الرواية الفائزة
بجائزة كفافيس
للنبوغ ٢٠٠٧
ن
نون
سحر الموجى
دار الشروق

سحر الموجى

نون

دار الشروق

نـون

سحر الموجي

تصميم الغلاف: نبيل لحود

طبعـة دار الشروق الأولى ٢٠٠٨

الطبعـة الخامسة ٢٠١٢

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

٨ شـارع سيبويـه المصـري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقـم الإيداع ٢٦٤٩١/٢٠٠٧
ISBN ٩٧٨-٩٧٧-٠٩-٢٢٩٤-١

حتى بعد رحيلك لا تزال عطاياك تنهمر عليّ كقطرات مطر.. مدهشة في طزاجتها

إلى أبي.. سعد الموجي

«وتحسب أنك جرم صغير
وفيك انطو ى العالم الأكبر»

محيي الدين بن عربي

المحتويات

الجزء الأول: في البدء كان الأبيض

(1)

(2)

(3)

(4)

(٥)

(٦)

(٧)

الجزء الثاني: جمر أحمر

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(5)

(٦)

(٧)

الجزء الثالث: سراديب الأسود

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

الجزء الرابع: تجليات الذهب

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

في البدء كانت الحكايا...

الهوامش

.

الجزء الأول
في البدء كان الأبيض

(1)

بينما كان الصغار في ذلك الجزء من المعبد المسمى ب-«بيت الحياة»

يتعلمون فنون الكتابة وأصول الرياضيات،

اجتمع الفتيات والفتيان المتدربون على الكهانة في فناء «بيت الأسرار» المفتوح على السماء.

التفوا في دائرة تحت شجرة الجميز العتيقة ينصتون إلى الكاهنة الأم:

«الآن وقد تعلمتم أسرار النباتات والأعشاب
و عرفتم كيف تداوي الطبيعة الأم علل الجسد،

تعالوا بنا نفهم كيف نصنع من الحكايا بلسما لجروح الروح».

اخترت أن أبدأ الحكاية من نقطة مضيئة.

هكذا يجب أن تبدأ الحكايا.

وهكذا أيضا أمارس أول ألعابي حين أستدرج قارئا محتملا إلى رمال الحكايا المتحركة فيصعب عليه الخروج منها إلا بإذن منّي. أجذبه إلى تلك المنطقة حيث تطارد «سارة» فراشات ملونة على التلّ المطلّ على الأطلسي بجوار بيت جدتها فتخطو قدماه في رمال ناعمة. ثم أناديه حيث يبكي «حسام» قلبه المكسور ويلعن «أبو الحروب الصليبية». وعندما تختفي «نورا» من الحكاية لوهلة بعد أن تركها تصارع غيلانها، يجري بالصفحات بحثا عنها، فتنغرس قدماه إلى الركبتين. ومع وصوله إلى ذلك الركن الصاخب بحوارات «دنيا» مع أمها التي تسكن علبة السردين باطمئنان, أكون قد تمكّنت منه فرفع راياته البيضاء مُسلِّمًا أمره لغواية الحكاية.

وعلىكم في هذه النقطة المبكرة من الحكي أن تسامحوا بعض غرور لديّ. أسمع بعضكم يتساءل ولِمَ السماح؟ ذلك لأنكم أنتم- البشر- قد أتعبتموني كثيرا. لكنني أعترف أنه تعبٌ حُلو لا أتمرد عليه إلا قليلا. الجزء مني الذي يراه حلوًا هو الأم التي تصنعُ مع أطفالها معجزات يومية. لا هي تراها معجزات ولا هي تتبرم عندما يخفقون. أما الجزء الذي يتململ... لكنني هكذا أقفز فوق الحدث ولم أكد أبدأ بعد. سيأتي ذلك في حينه.

اخترت فتح باب الحكاية بأن أخبركم كيف اختارتني الحكاية كي أصبح راويتها.

حدث ذلك بعد نهاية يوم محاضرات طويل في الجامعة وقد تلبد ذهن «سارة» بغيوم مُنذرة. أدارت سيارتها وزحفت بها ببطء داخل حرم الجامعة ملتفة حول مظاهرة للطلاب الذين رفعوا لافتات: «لا إله إلا الله...شارون عدو الله» و«خيبر خيبر يا يهود.. القدس لابد تعود».

وأخذ بضع مئات من الطالبات المحجبات والمنتقبات والطلاب ذوي الذقون يرددون هتافاتهم تضامنا مع الانتفاضة، بينما تناثرت مجموعات من الطلاب حول الأرائك الخشبية وبجوار أسوار المباني. أخذوا يتابعون المشهد وقد بدتْ على ملامحهم علامات التسلِّي.

التفتت سارة إلى مجموعة بعينها تراها في كل الأوقات في حديقة الكلية وتساءلت «هُمًّا بيحضروا محاضراتهم إمتى!».

«إنتِ هتفضلي ست هبلة.. دول جايين الكلية يحبوا مش يتعلموا».

ابتسمت وهي تتأمل الفتيات وقد حشرنَ أجسادهن في جينزات مرقعة كالحة اللون، وأكدت البلوزات الضيقة امتلاء نهودهن وتململها. أما وجوههن فقد تكلّست فوقها المساحيق الثقيلة بفعل الحر الخانق. أوقفت السيارة حتى يمر جمع المتظاهرين وعادت بعينيها إلى الشباب الواقفين معهن بعلب البيبسي كولا والسجائر في أيديهم. اتسعت ابتسامتها وهي تُمعنُ النظر في شعورهم اللامعة الملتصقة ب«الجل».

ما إن خرجت من الجامعة حتى عادت الأفكار تتدافع في رأسها وتضغط علىه ككماشة حديدية ثقيلة القبضة. لم تُبدِ مقاومة. فكرت فقط في التأجيل. علىها أن تتخطى الشوارع المكدسة وتعود إلى بيتها سريعا كي تخلو بنفسها. زحام السابعة مساء في القاهرة لا يختلف عن زحام الثانية ظهرًا. التوت السيارة والتفّت بين باقي السيارات كثعبان منهك بينما يرتّب عقلها الوقت. ستأخذ حمامًا ساخنًا بعد أن تدير موسيقى «ديبويسي». «مَجّ» من النسكافيه الساخن بدون سكر وسيجارة سيدفعان بحياة جديدة إلىها. بعدها تفتح الكمبيوتر وترتب دماغها المثقلة بالبحث الذي استهلك منها الشهور الأخيرة ولون تفاصيل أيامها وربما... أربكها.

في شارع البحر الأعظم تكدست السيارات بعضها جنب بعض. لو لم تكن سارة قاهرية لظنت أن هناك خللا ما أو ربما مظاهرة أخرى. لكن «لأ طبعا مش للدرجة»، مجرد سيارة ميكروباص تنزل الراكبين في منتصف الشارع. ارتفع صوتها بغيظ مكتوم «عادي جدا». حاولت الالتفاف حولها فقابلتها «بيجو» قديمة تسير في الاتجاه المعاكس. أخذت شهيقًا عميقًا. حبسته في صدرها لثوانٍ ثم أطلقته ببطء. رفعت من صوت كاسيت السيارة وهي تغلق النافذة:

وافتكرت فرحت وياك قد إيه..

وافتكرت كمان يا روحي بعدنا ليه.. بعدنا ليه.. بعدنا ليه..

بعد ما صدقت إني...

هاجمتها نوبة حنين إلى هدوء «بادستو» حيث تقضي إجازات الصيف مع جدتها منذ أيامها الأولى. تستطيع سارة التجول في القرية الصغيرة في جنوب «ويلز» على المحيط على قدميها فيما لا يزيد على الساعة. ربما يتطلب الأمر أكثر من هذا الوقت لو قررت الذهاب إلى غابة «جاف» أو «أندرتاون» حيث تقضي الوقت وحدها تماما تزور أشجار الكلّب العتيقة وتستمع إلى وشوشات أشجار البيلسان والزعرور البري ذي العناقيد البيضاء والوردية والثمار الحمراء ولا تعود إلى البيت إلا بعد أن تجمع بعضا من نبات سلطان الجبل ذي العطر النفاذ. وكثيرا ما تقابل هناك الأرانب البرية الشقية فتستمتع بمتابعة ظهورها واختفاءاتها المفاجئة. وعندما تفيق إلى نفسها تكون قد مر عدة ساعات مع صمت المكان والضباب الذي يغشى وجه الشمس حتى في بعض أيام الصيف. أحضرت الذكري في يديها نسمات هواء مبللة بالندي ورائحة عشب رطب أزاحت جانبا غبار القاهرة والعادم الأسود الذي ملأ صدرها رغم إغلاق زجاج السيارة.

تنفَّست عميقا وقد اتسعت ابتسامتها. في شرودها التفتت يمينا فقابلت عيناها وجه الرجل الدَّهِش في السيارة المجاورة. كتمت ضحكة كادت أن تفلت منها حتى لا يسيء الرجل فهمها. يكفي أن تكون مجنونة من وجهة نظره.. لكن لا داعي أن يظنها امرأة لعوبا تحاول إغواءه.

ما إن دخلت شقتها حتى أغلقت التراس وراءها. تحب ذلك الشعور أنها قد صفقت الباب في وجه العالم، وأن أحدًا لن يجرؤ على الدخول إلا بإذن منها. ألقت الكتب وأوراق الطلبة على مكتبها المجاور لباب المنزل في ذلك الركن المنير من حجرة المعيشة المكتظ بنباتاتها الخضراء، في نفس اللحظة التي خلعت حذاءها بجوار الباب. فتحت الكمبيوتر وقد تراجعت عن «ديبوسي» وأدارت موسيقى «المولاوية» خافتة. تلك النايات تعرف تماما كيف تخاطب مناطق داخلها على تلك الحافة الزلقة بين النور والعتمة. بداياتها أنَّات حنين طويلة

و بطيئة تشي بأسى الفراق وثقله، يدخل إلىها بعد حين دبيب طبول بعيدة كأنها وقع أقدام فوق طريق ما، لن تلبث أن تتصاعد نحو ذروة غامضة ثم... فرحة الوصول.

في الطريق إلى غرفتها كانت قد خرجت من بذلتها الكتان الفستقية وألقت بها فوق السرير، واستكملت التخلص مما تبقى من قطع الملابس في الحمام. عاد بها رنين تليفون البيت إلى حجرة نومها وأتاها صوت دنيا ضحوكًا «سارة هنتقابل الخميس كالعادة ولاّ عندك ارتباط؟»

«طبعا حبيبتي. هاكون كمان خلصت ترجمة الكتاب اللي معايا علشان أحتفل معاكم. بس أكِّدي إنت على نورا وحسام. أنا دماغي مدووشة».

لم يتبق على الخميس، موعد لقائها الأسبوعي بأصحابها، إلا يومان. والآن تشعر باشتياق لتلك اللمَّة التي غابت عنها أسبوعين.

عادت إلى الحمام ووقفت أمام المرآة الكبيرة تتأمل جسدها. تتأكد أن لا زوائد قد طرأت علىه خاصة من الجانبين بعد الخصر، وأن عضلات بطنها لم تزل مشدودة وإن كانت لا تزال بحاجة إلى التخلص من بعض الاستدارة. تأكدت من سخونة الماء ثم أنزلت دماغها المصطخب تحت التيار المتدافع. بدأ بعض الخدر يسري في أعصاب رأسها المثقل.

«معقولة الحياة بتكرر نفسها بالشكل الغريب ده. الطالبات بتوعي بيفكروا زي الستات في القرون الوسطى في أوروبا لما كانوا بيبلغوا عن بعض إن فلانة دي ساحرة وهمّا عارفين إن التهمة بالسحر هي تقريبا حكم بالموت».

توقفت للحظة وهي تخرج بوجهها من تحت الماء المنهمر «إيه باكلم نفسي!».

«عادي».

حولت تيار المياه فجأة إلى البارد فشهقت. ابتسمت مع تدفُّق الزخات الباردة فوق وجهها وانزلاق فقاعات الشامبو إلى قدميها. دق جرس الموبايل بتلك النغمة التي تأتيها برجل واحد فقط. ودق قلب سارة. انتهت الرنة، ولم تحاول الذهاب إلى الموبايل.

خرجت من تحت الدش. لفَّت البشكير الأزرق الكبير حول جسدها والتقطت زجاجة الكريم السائل برائحة الليمون. بدأت تدلك ذراعيها والأسئلة تتقاذفها. شردت مع ملامح البنات وهن يتغامزن على زميلتهن «منال» عند سؤال سارة عنها.

تحول ذهنها في حركة مفاجئة من منال إلى تلك العادة التي تأكدت في الفترة الأخيرة. الحديث بصوت عال مع نفسها. كانت تعرف أن الصوت الذي يعود إلىها ببضع إجابات لتساؤلاتها يأتي من منطقة داخلها إلا أنه منفصل أيضا عنها. كأنه سارة أخرى أكثر هدوءًا منها. ابتسمت وهي تنظر لدوائر الإرهاق تحت عينيها العسليتين «تعرفي يا بت يا سارة لو ماكنتيش بتدرسي علم نفس كان زمانك صدقت إن دماغك لسعت».

ردد البيت الهادئ صدى ضحكتها.

التقطت الموبايل وطلبت الرقم بعد أن جلست على حافة السرير المواجه للشرفة المفتوحة. أتاها صوت «نديم» دافئا «سارة طلبتك من شوية».

أجابت ضاحكة وهي تلاحق بالمنشفة قطرات الماء المتساقطة من شعرها البني الطويل «كنت عقبال عندك».

«بتستحمي... يا ألف نهار أبيض. هو النهارده عيد ولاّ حاجة. عموما إنت قمر في كل الأحوال».

«إلهي يسترك ولا يحوجك ويجبر بخاطرك ويدي لك على قدِّ نيتك يا نديم يا ابن...».

قاطعها ضاحكا «إيه... هو أنا باحب واحدة من حارة دقدق».

تراجعت ضحكتها وأتاه صوتها شاردا «نديم أنا دماغي مشغولة جدا وعايزة أتكلم معاك. بحث الساحرات شكلي هاغير فيه. مش هيبقى مجرد بحث في سيكولوجية الأوروبيين في زمن مطاردة الساحرات. بافكر ده يبقى مجرد خلفية. وأركز في البحث على أشكال مطاردة الساحرات والسحرة في مجتمعنا النهارده، في أوائل القرن الواحد والعشرين...!».

صمت نديم قليلا ثم جاءها صوته مفكرا «الفكرة ممكن تبقي إضافة لإنك عارفة طبعا كم الأبحاث الغربية اللي اتعملت في المنطقة دي. فكرة بحث مقارن هايلة. بس خلينا نتكلم أكثر لإنك كده هتحتاجي تدخلي في منطقة علم اجتماع».

أغلقت سارة الخط بعد أن اتفقا على موعد في نفس الليلة. وعندما أخذت أول رشفات النسكافيه الساخن عادت إلىها صورة منال اليوم كشريط سينمائي أوقفته عند ملامح الفتاة المرتبكة وهي تحاول أن تجيب سؤال سارة عمَ سمعت من زميلاتها. كانت تحب تلك الفتاة وترى في عينيها لمعة ذكاء. تشجعها دوما على التساؤل وتحضر لها قراءات في الأدب وعلم النفس من مكتبتها. لم تحدثها منال عن حياتها قبل ظهر اليوم حين انهارت باكية في غرفة الأساتذة. من وراء دموعها التي انزلقت على الإيشارب الوردي الذي غطى رأسها وانسدل على صدرها رفعت عينيها إلى سارة،

«حضرتك عارفة نادر زميلي. أصل إحنا كنا... كنا اتجوزنا عرفي. عارفة هاتقولي إيه. كان فين أهلي وليه عملنا كده! كنت باحبه وعايزاه أحسن راجل في الدنيا. أهلي مسافرين وأنا عايشة مع عمتى وكنا بنذاكر عنده في البيت. بس اكتشفت بعد سنتين إن العلاقة كلها له هو. طول الوقت بنتكلم عن مشاكله وأحلامه
و خططه. طيب وأنا... أنا فين في كل ده! أنا زيه برضه عايزة أبقى معيدة وليّ أحلامي. اكتشفت إن طول الوقت أنا اللي ساناداه. وفي اللحظات الصغيرة اللي باحتاج له فيها هو مش موجود. زهقت من كتر ما بافهمه ومش عايز يفهم. قلت أنا ماشية. ومن يومها وهو بيطاردني في كل مكان. مهددني يطلع الورقة ويبلغ أهلي، وابتدى يلمَّح لبنات معانا في الدفعة باللي بيننا. عامل لي رعب والبنات اللي كنت فاكراهم صاحباتي مش راحمني من كلمة أو تلميحة. حياتي كلها اتقلبت».

لم تكن قصة منال لتدهش سارة في العادة. كانت تفهم جيدا كيف يفكر رجل مثل نادر يشعر بامتلاك تلك المرأة، وستحول كرامته دون تفهم لم تركته كيف لا تفهم وقد عاشرت رجلا لا يختلف عن نادر كثيرا. لكن القصة التي لم تكن تدهشها من قبل كانت في ذلك اليوم تأخذ بعدا مختلفا. كان كل ما قرأته الشهور الأخيرة عن محارق الساحرات والسحرة في أوروبا، في إطار فكرتها الأساسية أن تلك المطاردة كانت قرارا جماعيا غير معلن بنفي كل من يشرد عن قانون القطيع، قد لوّن نظرتها للأشياء.

كان هوس بالتدجين قد استشرى في تلك السنوات. ربما لم يدرك الكثيرون وقتها الدور الذي أسهم به رجال الدين في إشعال جذوة تلك النار، لكن عامة الناس عرفوا كيف يستخدمون الظاهرة للإيقاع ببعضهم البعض. أُحرِقت نساء لأنهن كن دايات ومداويات بالأعشاب ومحبات للطبيعة ومؤمنات بقدراتها الشافية للروح وللبدن.

وأُحرقت نساء لأنهن كن فقط جميلات. وأُحرق رجال دافعوا عن هؤلاء النساء فاتهموا مثلهن بالسحر وعبادة الشيطان. أسالبب التعذيب من أجل الحصول على اعتراف تأرجحت على حافة العبثية. ارتفع صوتها مرة أخري في سكون البيت «دول كانوا بيربطوا رجلين الست وإيديها ويرموها في المية. قال إيه لو غطست تبقى ساحرة ولو طفت تبقى بريئة. طب ما هي في كل الأحوال ميتة!».

أشارت الاحتفالات الصاخبة التي تجلَّى فيها البغض والتشفي إلى حالة من المرض شبه الجماعي كان قد استشرى، تأجج وخبا وعاد ثانية للاشتعال على مدى قرون ثلاثة.

كلما استغرقت سارة في تفاصيل الحقبة، أفزعها التشابه بينها وبين الآن. تلك الحقبة لم تنته "يمكن أخدت أشكال مختلفة لكن جوهر المطاردة وهدفها ماتغيرش في مجتمعنا".

لم يزل كل صوت خارج عن المألوف يجرَّم ويشرَّد وينفي من جنة الوطن. تقافز عقلها بين صور عدة؛ مفكرين يُطلق علىهم الرصاص أو تلفظهم بلدهم. وهذا الذي قتل زوجته لأنها خرجت من دون استئذان أو لخلافات على شقة. وآخر يذبح بناته لأنه أراد ولدًا. دوائر العنف تتسع وقد أصبح كل فرد عينًا على الآخرين. أما فتاوى الفقهاء المضحكة في الصحف وعلى شاشات الفضائيات فهي لا تبتعد عن الإطار نفسه. «دخول المرأة على شبكة الإنترنت حرام إلا في حضور محرم». «البوجا حرام وكذلك الأكل بالبد السرى». رجال الدين يحرمون تعري الزوجين أثناء المعاشرة الزوجية ويحللون زواج ال-«فريندز». ولعبت النساء أدوارًا رئيسة

في المسرحية نفسها بترديدهن دعاوى العودة إلى البيت وعدم مزاحمة الرجال في سوق العمل. زفرت بضيق.

انجذب ذهنها إلى مغناطيس قصة منال ثانية. نفخت نفسًا من سيجارتها «عادية ومتكررة». ستحاول التدخل لدى الشاب. ربما يتراجع عن عناده عندما يعرف بتدخل أستاذته وإن كان هذا أمرًا لا يمكن المراهنة عليه. لكن القصة أكبر بكثير. كيف تخبر «نادر» عن روح حرة ترفض الانصياع لقوانين معلبة سابقة التجهيز لتخلق عالمًا من وحي القلب لا يتطابق مع عالم الروشتات الجاهزة لطريق مضمون إلى الجنة.

«ياترى هيفهم إن كل من غير في تاريخ البشر كان بيمتلك روحًا عاصية على الفكر السائد؟!».

هل بإمكانها هكذا ببساطة أن تغير من تركيبته فتعيد بناء عقل قد تشكل بالفعل على ما هو عليه؟ كأنها عندئذ تواجه مجتمعا بأكمله وليس شخصًا واحدًا. ولو صرّحت بما تعتقد، ألن تُتّهم بالجنون! أو ربما يلصق بها أحدهم التهمة القديمة بأنها ساحرة لابد من حرقها. ابتسمت.

«مش هاتقدري تفكري وإنت محبطة ومشوشة بالشكل ده».

قامت من جلستها على السرير وتربعت على الأرض. كان صوت نياتها يصلها من الكمبيوتر في حجرة المعيشة. أخذت نفسًا عميقًا بعد أن أغمضت عينيها. لا تزال ترى تراقُصَ لهب الشمعة الزرقاء على الكومود. أدركت أن التوتر قد تمكن من عضلات جسدها تماما. ركزت مع تلك العضلات المشدودة بدءًا من رقبتها إلى أكتافها. تحول عقلها إلى يد تشبه يد جدتها «إيزابيلا» عندما كانت تمسد ظهرها بضغطات قوية وحانية وبطيئة وهي تحكي لها عن عشق «إخناتون» و«نفرتاري». وعن كيف أنجب «جب» إله الأرض و«نوت» إلهة السماء أربعة أطفال منهم الطيب «أوزوريس» والشرير «ست»، وكيف أسبغ الفراعنة صفات البشر على الآلهة، فصارت لتلك الكائنات أوجه متعددة. ترهف سارة السمع وقد ارتسمت معالم الدهشة في عينيها العسليتين الواسعتين. تدلف إلى منطقة آمنة داخلها وتغوص فيها كسرير جدتها الناعم ذي الملاءات برائحة الورد. وكثيرًا ما كانت تدخل إلى مكتبة جدها «العملاقة» -كما رأتها في طفولتها- وتستكمل قراءة مغامرات «إيزيس» بحثا عن أشلاء حبيبها وهي جالسة على الأريكة الصغيرة الملاصقة للنافذة المطلة على المحيط.

تمتد اليد العجوز تفك اشتباك عضلات الظهر. تضغط أصابعها برفق على جانبي الجبهة ومؤخرة الرقبة والرأس من الخلف. تطلب منها أن تهدأ. ودَّت لو كانت تلك بالفعل هي يد «إيزابيلا» المغموسة في زيت خشب الصندل الذي لا يزال يمنحها ذلك المفعول المهدئ أينما استنشقته. أخذت شهيقًا بطيئًا وأخرجت الزفير أبطأ. دقائق وبدأت دورات عقلها تهدِّئ من سرعتها. تعرف أنها قد بدأت تهدأ عندما يستحضر عقلها صورة من صناديق الذاكرة الخشبية أو يذهب إلى مكان تحب. ينحسر السؤال. ويسحبها جزر الصور.

«عمرو!».

نظرة جانبية من عينيه السوداوين الصغيرتين وهو يسألها «هو إنت غجرية!». ابتسامتها المرتبكة وخفقة أولى في المطعم النيلي لذلك الذي استطاع الدخول بثقة إلى تلك المنطقة داخلها، ولم يكن لديه بعد تفاصيل تؤكد حدسه. سؤاله لها في السيارة «تيجي نلعب أدمغة؟». لم تكن قد سمعت عن هذه اللعبة من قبل، لكنها عرفت أنه سيقرأ أفكارها ففزعت وكانت «لأ طبعا» مثارًا لضحكاتهما معا في لحظتها ولاحقا. جولاتهما الليلية في ليل القاهرة الشتوي. قبلة أولى في طريق صلاح سالم وانفجارة ضحك وهو يخبرها «بكرة في الجرايد هتلاقي خبر القبض على أستاذة جامعية ومهندس ديكور بتهمة فعل فاضح في الطريق العام». وتلك الليلة التي تركته يخلع عنها ملابسها بينما انجذابها إليه يتصارع مع خجل مقيم ومرارات قديمة. تعود إليها لذعة الرعشة العنيفة التي رجَّتها وهما ملتحمان وقد تداخلت مع ذلك المزيج الكثيف من رائحتهما معا. لحظة خارج دائرة توقعات امرأة ثلاثينية تتعرف طعم الجنس للمرة الأولى بعد انقضاء سنوات زواج عشر.

عندما نظرت إلى عمق عينيه من وراء غشاوة دموع عرفت أنها تحب ذلك الرجل، الذي أخرج من داخلها امرأة كانت تقابلها للمرة الأولى. امرأة ستعرف بعد مرات قليلة كيف تهاجمه بشراسة العشق ولا تدعه يفلت من يديها. تحوطه بذراعيها من الخلف وهو يعد أكواب الشاي في المطبخ الصغير وتدغدغ رقبته. عندما يستدير إليها مبتسما تدس أنفها في صدره بينما تتسلل أصابعها

إلى أزرار القميص تفكها ووجهها يتبع انفتاح الأزرار. تخبره مشاكسة «سيب نفسك خالص» فينفجر في تلك الضحكة الطفولية التي طالما أحبتها ويترك نفسه لها. تتذكر تلك المرة التي أغمض عينيه وتركها تتجول ببطء فوق جسده المستكين لها، تستكشف ثناياه الدقيقة في ارتشافات صغيرة وتعود إلى شفتيه. ابتسمت للوجه الأسمر دقيق الملامح، ذي العينين الطفلتين وشعرت برغبة في احتضان ذلك الرجل الذي هشَّم البقين القديم أنها «ست باردة»، كما ردد دوما زوجها.

«عمرو اللي أنا مشيت وسبته!». مرق الخاطر في ذهنها سريعا ومرًّا فتراجعت الابتسامة.

لم تتوقف النايات عن جذب خيط الصور المتتابعة. ولم تفتح سارة عينيها بعد. لكن ملامحها انقبضت وتقطَّب جبينها عند ظهور وجه طليقها محمود من قلب العتمة. انطبعت على شفتيه تلك الابتسامة المتهكمة التي هيئ لها في لحظات عدة أنه مولود بها. تحضرها صورة تلك المرة التي صاحت في وجهه بأشياء لا تذكرها الآن. لكنها كانت على يقين في تلك اللحظة أن لا شيء عاد يجمعها بهذا الرجل. بل إنها.. على مشارف الكراهية.

«سارة دي كانت اللحظة اللي بدأت تكسري فيها عالم مش بتاعك لكنك كنتِ مصدقة إنه العالم الوحيد الموجود».

عاد الصوت فأزاح الوجه الأسمر حاد الملامح ونصف الابتسامة.

تحوَّل انتباه سارة من متابعة الصور إلى الصوت الذي يحدثها. رغم طول علاقتها به إلا أن تلك كانت المرة الأولى التي تبحث عن اسم له. كان يحمل ملامح شبه لصوت إيزابيلا. تلك الساحرة القديمة التي علمتها كيف تنصت لموسيقي الأمواج المواجهة لبيتها، وتلاحق أوجه القمر المتعددة وتترك نفسها لرائحة زهر الليمون ولخشونة الأخاديد العميقة في جذع شجرة السوكالبتوس في حديقة البيت. ربما هو صوت إيزابيلا و... «هو صوتي أنا برضه». لكنه...

فتحت عينيها وهي تقوم من جلستها على الأرض، وقد قررت الاتجاه إلى المطبخ من أجل كوب من النسكافيه، ستضع عليه تلك المرة قطرات من ويسكي الـ«Chevas Regal». هبَّت واقفة وقد نسيت كعادتها تحذير مدرب الوجا ألا تقوم من جلستها بشكل مفاجئ فشعرت بدوار خفيف. استندت إلى ضلفة الدولاب مغمضة العينين لتستعيد التوازن. لكن في لحظة إظلام رأسها بزغت صورة. دققت النظر.. لم تكن لتخطئ ذلك الوجه الذي طالما أحبته ووقفت منجذبة إليه أينما قابلها.

كان وجه «حتحور»(١) كما عرفته دوما.. بيضاوي الاستدارة بعينين واسعتين وذقن صغيرة وشعر ذي فرق في المنتصف يبرز الأذنين الصغيرتين ويسترسل على الجانبين.

لكنه لم يكن الوجه المألوف المحفور على جدران معبد «دندرة» والذي بقى في ذاكرتها منذ زارته مع أبيها وأمها ولم تزل ابنة سنوات سبع. لم تكشف العينان عن تلك النظرة المتحدية للزمن من فوق أحد الأعمدة الحتحورية في «فيلة» أو «الدير البحري» أو أي من المعابد الأخرى المكرسة لإلهة العشق والجمال والموسيقي. لم يكن الوجه حجريا ولا رافعا على الرأس قرص الشمس الذهبي محوطا بقرني البقرة. بل كان وجها مبتسما لامرأة ممشوقة القوام؛ في ثوب أبيض من كتان نصف شفاف لا يخفي استدارة نهديها وانتصابهما أو الخصر النحيل والمؤخرة اللينة فوق ساقين طويلتين، كأنهما لفرسة برية بدا لسارة كأنها تتحرك نحوها الآن، وقد أضاءت وجهها ابتسامة خفيفة.

انتابت سارة قشعريرة سرت حتى أطرافها. وقفت في غرفتها والهواء القادم من الشرفة الصغيرة العالية يفيقها. ارتفع صوتها في الغرفة الشاغرة وقد فتحت عينيها، لكنها كانت في تلك المرة تعرف أنها تحدثني وقد سمرتها الدهشة في مكانها: «هو إنتِ!».

اتسعت ابتسامتى وأنا أراها تضع قطع الذكرى واحدة بجانب الأخرى لتدرك أنني قد بزغت داخلها في ذات اللحظة، التي انزلقت دموعها فوق صدر عمرو مختلطة بعرقه وهو يضمها إليه. أغمضت عينيها وقتها ورأت العالم رائعا ومنيرا وغريبا كقمر في كامل استدارته. تأملت سارة وقتها تلك المرأة القادرة على العشق تتخلق داخلها. لا تلبث أن تنزلق منها وقد اكتست لحما فوق العظام، وابتسامة مُغوية فوق الشفتين وأصبحت لها رائحة كعطر الحب.

هذه لحظة معقدة حتى على امرأة مثل سارة تفهم أن بداخلها يعيش شخوص كثر. منهم من يقدر له المجيء إلى الحياة، والبعض

الآخر يظل في النصف المعتم من دائرة الاحتمال. لكن أن تفهم أن المرأة التي مارست الحب هي كاهنة المعبد- تلك التي تجسد حضوري وتفتح داخل الروح مناطق الرؤية التي لا تظلل المحبين فقط، لكنها تلوِّن الحياة كلها بحضور المقدس- ذلك كان اكتشافا ذا رهبة ليس فقط لسارة ولكن لي أنا أيضا.

هذه لحظة يتلبسها الغموض. لا أعرف إن كنت أنا التي ألدكم فترون لكم ذاتا جديدة لم تكن قد مرت عليكم من قبل، أم أنتم الذين تفسحون طريقا داخلكم فأمرق من حيز الإمكان إلى ساحة الوجود.

رددت سارة همسا «هو إنت!».

وهي تشعر بتخبط ذلك المزيج من الدهشة والرهبة والابتهاج داخلها كأطفال يلعبون في غرفة مظلمة. والحقيقة أنني لم أكن أقل ارتباكا منها. صحيح أنني على مر القرون لم أذهب بعيدا، وإنما بقيت بأشكال وصور عدة تختلف باختلاف من يعرفون بوجودي. لكن قليلة هي تلك اللحظات الكاشفة إلى هذا الحد.

وقفنا.. إحدانا في مواجهة الأخرى.. مسمرتين.

وفي غمرة شعور ملتبس بالارتباك والسعادة كان قد سرى بيننا خاطفا كصعقة برق مفاجئة حولت عتمة الليل إلى وهج فضي، كنت قد بدأت ألمح غيمات فكرة بعيدة تصلح أن تكون حكاية أنا راويتها والمحرضة على أجزاء منها. تسارعت دقات قلبي وأنا أفكر «لو استطعت الإمساك بتلك الغيمة، وعرفت كيف أفك شفرة تفاصيلها لشعرت عندئذ أن القرون لم تنقض، وزمن الحكايا التي نصنعها معا لم ينحسر، وشموس وقت المعجزات تعود لتبزغ من ناحية الشرق».

(2)

تركت الفتاة بيوت منف الصغيرة وراءها ومدت الخطو في اتجاه «حابي».

فوق الضفة الطينية ركعت ورفعت وجهها المرتعش إلى فضة البدر

«أيتها البهية على العرش المنير

أيا خالدة..

يا ابنة رع يا أولى الساحرات

أتوسل إليك ياماليكتي..

قفي بيني وهذا الأسى

لا تدعي روحي تنسحق.

وإن سمعت صوتي أبدا على البعد يناديك فالتفتي..

تعالى واتركي وراءك وديان أبيك الذهبية..

تقدمي في عربتك التي تقطرها الطيور المسرعة..

ترفرف أجنحتها فوق ظلمات الأرض وتنزلق بك من الأبدية.

يا إلهي... هاهم يحضرون بالفعل وها أنت.. أيتها الربة المباركة بجبينك الوضاء

تسألينني أي وجع جديد قد حل بي ولم أناديك.

تستفهمين عن تلك الرغبة المجنونة تتأجج في قلبي،

وعمّن- في هذه اللحظة- يغويني؟

من ذاك البهي الذي أفلح ؟

ومن آذاك يا ابنتي؟

فإن كان يراوغك الآن سيأتي حتما.

وإن كان يُعرض عن هداياك فسيأتي يوم يمنحك هداياه.

وإن كان لا يعرف للعشق لذعة سيتسلل إلى دمه العشق.

حتى لو ببطء وعلى استحياء.(٢)

يُفتح ستار الحكاية على حالة حب. هكذا أحبذ بدايات الحكايا. ألا تبدأ الحياة أيضا من نفس نقطة البراءة. من نفس الصفحة البيضاء التي لم يخط علىها الألم بعد حروفا للحكمة أو ربما للموت. لكل منكم اختياره. ولكن مسألة الاختيار هذه تبقى غير محسومة تماما على الأقل الآن وأنا أفتح لكم أبوابًا على حياة شخصيات الحكاية.

والحقيقة أنني قد بدأت بالفعل بكبرى أولادى، ليس لأنها الأقرب إلى قلبي كما سيطرأ على أذهانكم، فأنا لا أفرق في الحب بينهم، أو هكذا أحب أن أصدق، وليس أيضا لأنها أكبرهم عمرا، ولكن لأنها قد مرت قبل الباقين بطقوس البدء على درب الكهانة. ربما من يعرف منكم شيئا عن الكهنة والكاهنات سيتصور أنني أتحدث عن الزمن القديم حين منحني البشر أول أسمائي. لكنني أتحدث عن زمنكم أنتم. زمن قارئ محتمل يعود إلى بيته بعد يوم عمل طويل وزحمة شوارع تمور بالبشر والضجيج. ولسبب- ربما يراه مصادفة- يفتح تلك الصفحات على ضوء أباجورة صغيرة. تقع بقعة النور فوق كلماتي فتصبح الحروف عيونا تلمع، والجمل أصابع تشير إلى دروب بعيدة، والفصول المتتالية خطى أقدام تقترب بكم من ملامح فكرة. وهكذا يأخذ قارئ الحكاية خطوته الأولى داخل عالمي ناسيا للحظات وجه بوش المرعوب وهو يعلن بدء حرب «صليبية» جديدة. أو ربما هذا المزيج الغريب من المرارة والغضب والعجز الذي داهمه أمام صورة «صدام» وقت القبض علىه؛ وقد بدا كمتسول متسخ بشعره المشعث، وذقنه المهوشة وعينيه الزائغتين. طاردًا من رأسه أيضا إعلانات مونديال ٢٠١٠ «حلم كل مصري» التي تطارده في صحوه كما في النوم.

أبدأ معكم وسارة تعيش حالة حب. هي لم تكن تسميها كذلك وقتها. كنت أستمع إلى صوت صمتها وهي تتساءل «هو ده حب ولاّ افتتان بالحالة؟». كعادتها تحاول فهم المشاعر ولا تمل مطاردة الأفكار مثلما كانت تجري أميالا وراء الفراشات البنفسجية، وقت زياراتها وهي طفلة لجدتها إيزابيلا في إنجلترا. تتعقبها وفي يدها شبكتها البيضاء الصغيرة. وعندما تطبق بها فوق إحدى الفراشات وترقد بجانبها على الأرض، تتأملها تشعر بيد كبيرة تعصر قلبها الصغير وتسألها أن تترك الفراشة تنفلت.

تعرف أنها ستعيدها للفضاء لكنها كانت تتوسل لتلك اللحظات الصغيرة التي تراقب فيها التفاصيل المنمنمة. ترصد تداخلات الأزرق كالعروق الدقيقة فوق الأجنحة الذهبية الرقيقة كالدانتيلا وتبحث عن مكان عينيها. عادت يوما من إحدى جولاتها إلى حديقة البيت لتجد جدتها تنظف الحشائش من حول شجيرات التفاح والخوخ. أخبرتها وقد غمرها الإحباط «جراند ما كنت عايزة أبص في عنيها زي مابيص في عنيك كده. كنت عايزاها تعرفني».

رفعت إيزابيلا إلىها وجها خمريا قد كشف عن بعض التجاعيد الرقيقة حول العينين العسليتين المبتسمتن «لازم ترجعيها للهوا يا سارة. وعلشان تفهمي الفراشة لازم تكوني فراشة.. تشوفي الدنيا بعنيها وتحبي الورد والشمس والهوا قد ما هي بتحبهم».

لكنها لم تيأس من مطاردة تلك الكائنات الهوائية. في إحدى المرات أفلحت في الإمساك بواحدة فاحتضنَها كفُّها برقة شديدة. حاولت أن تخفف من رعشة يدها حتى لا تفزعَها فتطير الفراشة، تاركة إياها في حالة عطش للفهم لم يرتوِ. لكن الفراشة طارت وتركتها بلا إجابات. كأن المتحكم فيها دوما هي «ماعت»(٣) أم الحكمة وسيدة الحقيقة. في ذهنها السؤال يتدافع وراء الآخر والإجابات دوما قاصرة.

تلك هي سارة فما بالكم وقد وقعت في الحب.

كلما اختلت بنفسها بعيدا عن نديم، داهمها سيل السؤال المنهمر كشلال بعلو ألف قدم فوق رأسها. في أحد حواراتنا حاولت أن أقنعها أن تعيش الحالة وتبتهج بها بدلا من تشريحها المستمر بهذا الشكل كأنها تحاول إيقاف دورة الحياة لتتأملها لتفهم. نظرت إلىّ كأنني تلميذة بطيئة الفهم «أصل انت مش فاهمة. أنا طول ما أنا مع نديم الوقت بيمر حلو قوي.. عمري ما ببص في الساعة».

ثم لمعت عيناها كعيني قطة في الظلام وهي تستكمل «بابقى سعيدة. بس ده مش معناه إني بحبه. ممكن يكون عطش لحالة سعادة عمري ماعشتها بالشكل والكثافة دي قبل كده. باسأل نفسي لو كان أي راجل تاني مكانه مش برضه كنت هاحس نفس الإحساس! يبقى ده طعم الحالة مش نديم نفسه».

أعلنت باقتضاب عدم اتفاقي معها. لكنني لست مستعدة للدخول في جدل طويل مع امرأة تملك قدر عنادها. لذا في تلك النقطة تحديدا أفرغت يدي منها وقلت لنفسي الكلمات تفشل أحيانا.

عندما اقترح نديم ذهابهما إلى شرم الشيخ رفضت سارة « نديم.. أنا عايزة أروح الصعيد».

كانت تعرف أنها تريد لتلك العلاقة أن تبدأ في نفس المكان الذي عاش بدايات قصة إيزابيلا الإيطالية وجدها المصري؛ التي بدأت في إيطاليا وقت دراسته للدكتوراه في فلورنسا وتأكدت عندما أتى بها إلى مصر وعاشت ما تبقى من سنواتها في إنجلترا. هو نفس المكان الذي عادت إليه أمها كاتي وهي في العشرين لتلتقي أبيها. كأن كاتي قد جاءت مع أبويها في تلك الرحلة السنوية لتحقق لهما أمنية خفية. أن تعود ابنتهما الكبري إلى مصر وتكتمل إحدى الدوائر الناقصة.

لم تصرح لنديم بدافعها، لكنه وافق حتى يبعدها عن القاهرة وذكرياتها مع عمرو وارتباكها لترك العلاقة بتلك الطريقة، في المنتصف تماما وفي قلب الحب. كان على سارة وقتها أن تضع حدا لـ«المأزق العشقي» كما وصفت حالتها لحسام. واحد تحب والآخر على مشارف الحب. لو كان أحد الكهنة القدامى قد جاءها عبر الأزمنة وأطلق نبوءة تخبرها أنها ستنجذب لرجل وقلبها لا يزال يخفق بحب عمرو لما صدقت. كانت قد انتبهت إلى مأزق قلبها بعد فترة من معرفتها بنديم، ولم يكن أمامها من قرار إلا أن تترك الحكايتين وراءها وتمضي «مش هاخون عمرو ومش هاسيبه علشان راجل تاني».

تركت عمرو وقطعة من قلبها معه. لكن نديم لم يذهب بل أخذت جذوره تمتد ببطء وهدوء في عمق تربتها.

كانت شمس حانية قد أغرقت معبد الأقصر عندما أنزلهما التاكسي على البوابات. خطت مع نديم إلى داخل المعبد وهي تستشعر دوارًا لطيفًا. كأنها لم تفق بعد من خدر ليلتهما الأولى في «ويندسور بالاس». لم تزل رائحة نديم وقد دست أنفها في ظهره وهو نائم تلفها في دائرة من سحر. التفتت إلى الغمامة الخفيفة التي حجبت وجه الشمس وبدا لها كأن هذا النور الناعم المتلصص من خلف ستارة حريرية شفافة ليس إلا انعكاسا لحالتها. لم يترك نديم يدها وهما يقفان أمام الأعمدة العملاقة. دارت بعينيها حولها بنظرة سريعة فلاحظت تناثر مجموعات من السياح اليابانيين والأمريكان في أركان المعبد.

«كويس إن السياحة رجعت بعد حادثة الأقصر. أنا قلت مش هيقوم لها قومة تاني».

«يعني أربع سنين ممكن يرجعوا الثقة فينا شوية. بس في الأساس إحنا ما بنعرفش نعمل سياحة. انت بتسافري أوروبا وعارفة. مش بتشوفي بيت عمره ميتين سنة واتحول لمزار سياحي. المسألة مش آثار.. لأ دي ثقافة شعب عارف يتعامل مع السايح بلطف من غير ما يسرقه وبنيَّة تحتة وميت حاجة تانية».

«ولاّ التحرش الجنسي..! ليّ صاحبات ماعكرش علىهم الوقت في مصر قَد تصرفات الشباب معاهم في الشوارع. «هاريت» كانت هاتغتصب على البلاج في إسكندرية.. ولما اتدخل ناس وحاشوه عنها قال إنهم بيناموا مع أي راجل إشمعنى أنا!».

كانا قد وصلا إلى الساحة الترابية في قلب المعبد. وقفا في صمت
و رفعا أعينهما في نفس اللحظة إلى تلك الكتلة التي تضم مسجد الحَجّاج والكنيسة الصغيرة وقد التصقا بجدار المعبد العالى. في اللحظة التي أنهى فيها نديم فاصل الصمت القصير بدا لها أنه يستكمل حوارا داخلها «عمرك جيتي مولد أبو الحجاج يا سارة؟».

أشارت برأسها نفيا فاستطرد «لازم نيجي هنا في نوفمبر. الناس بتيجي من كل حتة في مصر. الشعب ده عجيب في قدرته على ممارسة الطقوس بأشكال مختلفة».

نظرت سارة إلى الكتلة المركبة فبدت المئذنة وقبة الكنيسة كأنهما فرعا شجرة عتيقة قد نبتتا من الجدار الحجري العالى والأعمدة القديمة. ثم استدارت لنديم بتلك النظرة الحزينة المتأملة «مش بس يا نديم إن كل الطقوس تعايشت جنب بعضها لكن كمان إزاي عاشت جوانا طبقات من المعنى».

جذبته للوراء مشيرة إلى وجه «حتحور» الذي يعلو أحد الأعمدة. «شايف الوش ده يا نديم.. يمكن إنت بتشوفه تاريخ بحكم تخصصك. وهو كده طبعا. لكني عرفته حضورًا جوايا مش بس وأنا في حالة حب.. لكن في نظرتي للحياة. طاقة عشق وسماح وفضا حرية لما كنت متجوزة كان ميِّت جوايا.. لأ نايم. وفي لحظة حررني فيها من عُقد قديمة وخلاني أشوف الدنيا ملونة بعد ما كانت أبيض وأسود».

ثم ضحكت مستكملة «أما «سخمت»(٤) بقى...».

قاطعها بابتسامة واسعة «ربنا يكفينا الشر».

«ما تقولش شر يا نديم هاتزعلها».

«طيب كفايا «سخمت» علشان بتشائم.. وخلينا نفكر في مستقبلنا».

ثم استدار بكامل جسده في مواجهتها. نظر في عمق عينيها مبتسما وهو يمد أطراف أصابعه في لمسة خفيفة لوجنتها. اقترب من وجهها كما لو كان على وشك ملامسة شفتيها.. همس في أذنها «ولاّ أقولك احكي لي عن طفولتك».

انفجرت ضاحكة « البائسة طبعا».

ثم أردفت بصوت خفيض كأنما تحدث نفسها «تصدقني يا نديم لو قلت لك إن لسه فيه مناطق جوايا ماقربتش منها. يمكن خايفة.. هربانة.. كسلانة.. ويمكن إنت السبب».

اتسعت ابتسامته فأضاءت ملامح وجهه السمراء التي اكتست بمسحة طفولة «هو أنا ربنا جابني الدنيا دي علشان تبهدليني.. قضيت التسع والأربعين سنة اللي عدوا طايح في الدنيا علشان أقع تحت إيدك تخلصي فيّ اللي عدى واللي جاي».

جذبته من ذراعه في اتجاه الشارع «أنا باتكلم جد.. طول ما أنا معاك باحس إني عايزة أبقى سعيدة وبس. مش لاحقة أفكر أو أقيم علاقتنا وإحساسي بيك».

قطعت كلماتها قبل أن تستكمل «وإذا كان ده حب ولاّ افتتان بالحالة».

أما هو فقد بدا عليه أنه قد سمع الجملة التي لم تجئ. آلمته منطقة في القلب. لكنه ذكّر نفسه أنها مسألة وقت قبل أن تُسلّم سارة وترفع كل الرايات. كيف لا تفعل أمام ذلك السيل الجارف من الاحتياج بينهما، وكل تلك البهجة التي تتفجر في حضورهما معا كشظايا نجوم ليلية تتهاوى إلى الأرض التي يقفان عليها، وتلفهما في دائرة من سحر لا يراها إلا كلاهما. ابتسم لنفسه وهو يفكر أن الفنان داخله لم يسبق له أن صحا من غفوته إلى تلك الدرجة، وأزاح أستاذ التاريخ جانبا إلا عندما قابل تلك المرأة.

كانت الشمس قد تحولت إلى البرتقالى ثم الأحمر القاني بلون النبيذ على مائدة العشاء أمامهما في تراس الفندق المواجه للنيل. سرحت سارة مع لون المغيب، وغاب نديم مع ملامحها السمراء وعينين يقترب عسلهما من الأصفر وشعر بُنيّ متموج حول وجهها حتى منتصف ظهرها. تساءل في صمت كيف جمعت بين روح طفلة تستكشف الحياة وامرأة مغوية تتوهج في أوقات الحب وعقل لا يمل الجدال معه. انتابته غصّة خوف من التعلق بها. غصّة ذكرته بكل تلك المرات التي انفصل فيها عن كارول، وأراد العيش بعيدا عن ذلك القيد الذي كلما ظنه قد غاب يكتشف أن ذاك الغياب لم يكن أكثر من خدعة مارسها مع نفسه باقتدار. ربما يرجع انجذابه لسارة إلى أنها المرأة الوحيدة التي تراجع مع حضورها الكثيف شبح كارول متقهقرا.

اقترب الجرسون الأسمر بابتسامة ودود وأخرج زجاجة النبيذ من الثلج وأكمل لهما الكأسين. ابتسمت سارة له وعندما مضى نظرت إلى نديم «تعرف.. أنا عمري ما تصورت أحب راجل أجنبي. يعني اللي بحسه جذاب بجد في أي راجل - يعني علشان أبتدي

أفكر- هو لونه الأسمر. الرجالة البيض- ويا سلام بقى لو إنجليز -مابيعملوش معايا أي تأثير».

«أيوه يا حبيبتي ما إنت فقريَّة. أنا مش بحس أساسا يا سارة إن نصك التاني إنجليزي. باشوفك بنت بلد وساعات بتبقي شَلَق لما بطّلعي الملاية اللف. فاكرة الراجل اللي خبط عربيتك وإحنا خارجين من الماريوت. بجد صعب عليّ من اللي عملتيه فيه يا غجرية. وفي الآخر رفضتى يصلح لك العربية».

«أيوه طبعا الملاية اللف ضرورة قومية طول ما انت عايش في مصر. وساعات بطلّعها وأنا مسافرة لما الموضوع يستاهل. أصل أنا كنت غاوية أسرح مع أبويا في القهاوي وأنا صغيَّرة. أقعد معاه هو
و أصحابه بالساعات وعمري ما أزهق. وكمان أنا عمري ما حسيت يا نديم إن نصي مش مصري. يمكن علشان علاقتي بإنجلترا كانت شهرًا أو اتنين كل سنة. ويمكن علشان عندي جدتين صعايدة. واحدة من المنيا والتانية من صقلية، صعيد جواني برضه».

«بس أنا مش متفق معاكِ في مسألة الحب من أجنبي. رغم إن أنا اتجوزت أمريكانية واتطلقنا لكن ماكانش علشان مش مصرية. كان لأننا بطلنا نتكلم. هي انشغلت بالأولاد وفي تغيير البيت والعربية، وحتى القراية وقفتها. الكلام خلص.. بس أنا حبيتها في الأول طبعا».

«ولما حبيت بعدها كانت أمريكانية برضه».

شرد قليلا وقد اكتسى صوته بمسحة شجن «كارول دي حكاية تانية. ما أنا حكيت لك إزاي علاقتنا قعدت تسع سنين. مش على بعض طبعا. لكن كل ما نسيب بعض، شهر أو سنة أو سنتين، نلاقي نفسنا بنرجع تاني. كويس إنها سابت مصر».

اتسعت عيناها وهي تضع كأسها على المنضدة «يعني لو رجعت يا نديم؟!».

قاطعها ضاحكا «لأ طبعا. حكاية كارول خلصت من أربع سنين ومن جوايا. إنت أول ست تحركني من وقتها».

مع حلول الليل ران عليهما بعض صمت وقد كثف النبيذ من إحساسهما بسحر انعكاس ضياء نصف قمر على مياه النيل ورمال البر الغربي. التفتت إليه «بيصعب عليك إن أولادك مش معاك يا نديم؟».

ظل على صمته لوهلة قصيرة كأنه يحاول أن ينفض عنه خيوط كآبة بعيدة تهدد دوائر السحر الناعمة في المكان «طبعا بيوحشوني. لكن أنا احترمت قرارهم إنهم يفضلوا في أمريكا. ده العالم الوحيد اللي عرفوه ومستقبلهم هناك أحسن. يارا بدأت دراسة الإخراج، وعمر عايز يشتغل قبل ما يقرر إن كان هيدرس في الجامعة ولاّ لأ. المهم عندي إنهم بييجوا مصر. بييجوا وأنا باسافر طول الوقت».

استرقت سارة السمع إلى رنين مرارة خافت في صوته. لم تعلق. وعندما سرح بعينيه ثانية في اتجاه النيل جذبتها موجة الحزن في عينيه. سمعت صوت صمتها «لسه فيه سحر في العالم». الآن تدفع موجات السحر الشفافة صوت «ماعت» إلى الوراء. يخفت صوت تحذيراتها ويتلاشى رويدا كصدى صوت بعيد لم يعد بإمكانها أن تحدد مصدره مع هدير البهجة الآخذ في العلو. نسيت نفورها منه في أول لقاءاتها به وسط جموع الباحثين في مؤتمر «كامبردج». رأته وقتها متعالما بمعرفته. وسارة لم تحب أبدا هؤلاء الذين يعلنون عن أهميتهم. لم تكن لتتصور يوما أن تنجذب إلى أحدهم.

شردت سارة راجعة إلى تلك المرة الأولى حين أخبرت حسام عنه «مش بس مش محتاجة أشرح له نفسي.. لأ ده بيقرا صمتى».

لم ينجح رجل آخر، وبتلك الدرجة، أن يخاطب عقلها. ومن أجدر منه بذلك وهو أستاذ التاريخ المعاصر والمثقف بروح فنان مرح يعرف كيف يذكر فيلما يناسب لحظة يعيشانها معا. في تجوال عقلها عادت إلى ذلك اليوم حين شاهدا فيلم «جسور مقاطعة مديسون» وأدركت أنها ربما قد وقعت في غرام رجل ينجح دوما في إضحاكها مثلما أضحك المصور العابر على المقاطعة تلك

المرأة الريفية التي أغلقت على روحها الإيطالية المحبة للحياة كل الأبواب منذ زواجها. سألت نفسها في صمت وقد استلقت على أريكة الحجرة في حضنه «يا ترى ميريل ستريب حبته وعاشت بذكرى الأيام المعدودة دي باقي حياتها لأنه رد لها روحها؟».

ردت «ماعت» وقتها مفسرة أن ربما تلك الحالة من الحب كانت وهما كبيرا على البطلة أن تخلقه، حتى تستنفر طاقة الاستمرار في حياة خانقة بزاد لا يتعدى ذكرى حفنة أيام. في تلك اللحظة أدارت سارة وجهها بعيدا عن «ماعت» بغضب «الرحمة... مش وقته!».

كلما عادت إلى تلك المقابلة الأولى حين رأته «حاسس بروحه خالص» تعود الدهشة إليها. ويدهشها كذلك ما طرأ عليها من تحول. لكنه يبدو منطقيا في ضوء كل ما فعل من أجل الفوز بقلبها. لحق بها في «بادستو» بعد انتهاء المؤتمر. وجعل ميناء تلك القرية الإنجليزية الصغيرة ينصت بانتباه لخفقات خفيضة لقلب منهك بعد عشر سنوات من زواج تبخرت مشاعره بعد عام واحد وكان عليها أن تستكمل تسع سنوات من المرارة. وبعد قصة حب كان عليها أثناءها أن تلهث وراء عمرو من أجل وقت يشبع جوعها إلى الحياة دون جدوى. أضحكها نديم كثيرا. أفقدها الشعور بالزمن في حضوره. ولم يكن ليوقف اندفاعه نحوها ما أخبرته أول مرة رأته بعيدا عن المؤتمر، تحديدا في البار الإنجليزي العتيق «فورت سانت جورج» في «كامبردج»، «أنا باحب يا نديم».

أخرج من مخزون الصبر لديه بلا حساب وهو يتأملها تبكي عمرو بين يديه. انعصر قلبه وهي تحكي عن مأزقها إذ إنها لا تملك العودة إلى عمرو بعد أن انفتح قلبها عليه. ولا تملك أن تجهز على ما في قلبها لعمرو. وتغمرها دهشة رؤية قلبها وقد انشطر نصفين؛ كل منهما عدو للآخر. وكلاهما يتجاهلها ويشعر ما يحلو له. كان جرحها لعمرو يطاردها كمشاعرها تجاهه في نفس اللحظة التي يشدها نديم بخيوط حريرية شفافة وقوية. تتذكر مشاداتها الكثيرة مع عمرو «مش كفاية يا عمرو إني مأجلة مشاعري واحتياجي ليوم واحد محدد في الأسبوع علشان شغلي وشغلك، لأ ده كمان إنت بتلغي. يعني أؤجل احتياجي لك كمان ستة أيام!».

تعود إليها تلك الذكرى كلما حوطها نديم بمكالمات على مدار اليوم ومشاريع عشاءات وليال مقمرة. تنفض دماغها المثقل وترتدي الفستان الأزرق عاري الكتفين وتذهب للقاء نديم. تراه فيفرح قلبها. لكن في قلب الفرحة يأتيها وجه عمرو، وهو يستمع إليها وقد شحب لونه ووقف مهزوما أمام دمعة غافلته وانزلقت بعد أن أخبرته «خلاص يا عمرو أنا ماشية. قابلت راجل وأنا مسافرة. اتشديت له. اكتشفت إن عندي منطقة احتياج ممكن تخليني أخون.. ده بالنسبة لي علامة إني لازم أمشي».

تأتي الذكري دوما بغيمات حزن رمادية. يلمحها نديم ما إن تمر فوق سطح عينيها فيشدها بأحد الخيوط الحريرية. يحكي لها عن تجربة السُكر الأولى حين فاجأ أصحابه بالجري نحو نافذة الدور التاسع راغبا في الطيران. تنفجر سارة ضاحكة فيستكمل «كان عندي ١٦ سنة ودماغي خفيفة وشربت كل الحاجات الغلط مع بعض. بيرة على ويسكي على فودكا. موت يعني».

وفي قلب ضحكتها تحضر عينا عمرو الحزينتان بلا استئذان. تتجمد الابتسامة على شفتيها.

كأن نديم كان يعلم أن عليه أن يحارب في جبهتين. عمرو من ناحية و«ماعت» التي لم ترتح له منذ البدايات من ناحية أخرى. كأنه يرى في عيني سارة نظرة توجس، وما هي إلا انعكاس لذلك الصوت الذي لا يفتأ يذكرها بأول انطباع عنه. لكنه رجل يجيد لعبة الغواية. يعرف ماذا يقول «تعرفي يا سارة أنا كنت شايفك دماغ قوية وبس، لكن اللحظة اللي قلت لي فيها إنك بتحبي، شفتك ست كمان». ويعرف ماذا يفعل ومتى «ورد بلدي أحمر وبريحة من الجنة علشان عيون حزينة بحبها».

تتلقف منه باقة الورد فتكتشف أنها لم تعتد تلقي الورود من حبيب. وعندما تنفرد بنفسها تتذكر أحد عشاءاتهما الأولى في مطعم «ريك شتاين» الصغير على المحيط، وقد استدار لها بعلامات الجد على وجهه قائلا «بصي بقي بوسة هنا دلوقت وقدام كل البشر دي علشان نخلّص فترة التعارف». فتنفجر ضاحكة.

ليس بالغريب إذن أن يصفق الباب في وجه «ماعت» وبعنف. كانت سارة تجادل «ماعت» مذكرة إياها أنه تحمَّل معها ألم الانفصال عن عمرو، ووجع أن يسمع منها «أنا بسيب راجل بحبه علشان حد أنا لسه ماعرفوش ومش عارفة إن كنت هاحبه ولاّ لأ».

أخفي نديم ألمه عنها وقد قرأ في دموعها حبا لعمرو لم يذهب. ورغم معرفتها بمدى ألمه لم يكن بإمكانها أن تنفي حضور الحزن وهي معه.

وجاءت اللحظة الفاصلة التي هدمت ما تبقى من أسوار مقاومتها القشية عندما جلسا في شرفة الفندق في ليلتهما الأخيرة في الأقصر، والأضواء تنعكس على وجه النيل الساكن وتلقي بظلال من حزن على سواد عينيه، وعلى ضفاف البر الغربي حيث يرقد ملوك وملكات الفراعنة فوق خبيئة أسرارهم. تسلل صوته عميقا إليها «تعرفي يا سارة أنا باحمد ربنا على وجودك في حياتي قبل موت أمي. مش عارف لو ماتت وإنت مش معايا كنت هاعمل إيه!».

انخطف قلبها.. رأت في تلك الجملة أجمل هدايا العشق، ربما لأنها قد مست خوفا لديها من مواجهة الحياة بعد ذهاب أبيها. إحساس غائم بعدم الأمان يرقد على عمق بعيد جدا في العتمة. وهاجس أن تعيش مرة أخري تلك الحالة من البعثرة في العراء، وحيدة، مجروحة وعليها أن تبدأ من جديد مثلما كان الأمر بعد أن تركت وراءها عشر سنوات من الزواج ولم يكن لديها من سند إلا أبوها بعد أن رحلت كاتي وتركتهما وبعد سفر أخيها أيمن. لكنها في تلك اللحظة لم تستطع إلا أن تخرج ذلك الهاجس من كهفه المظلم، وتعترف بصوتها العميق الذي كان قد امتلأ حتى الحافة بالحنان وفاض «وأنا كمان».

(3)

خطا الفتى إلى فناء المعبد وقد حمل في قطعة كتان تضرَّجت بالحمرة

قلبه..

عندما فرغت له سيدة الأسرار اقترب مطرقا في صمت.

فبادرته:

«يابني هناك طرق لمراوغة ألم الحياة واليأس.

هناك طرق لمراوغة تلك الهبة الخطرة الزلقة التي تمنحنا الحياة إياها:

العشق.

إحدى تلك الطرق هو أن تقتل العشق في القلب. قتل العشق يا بني ليس إلا موات الحياة.

الطريق الآخر هو قبول الهبة.

العشق هو قبول الفخ، تلقي جروح الشوك في الوردة (٥).

وتذكر وأنت تختار

لا يمكنك أن تقترب من الورود

ولا يجرحك شوكها. وإن لم تنزف

تجمع الدم الفاسد في شراييناك فسممها

فمت».

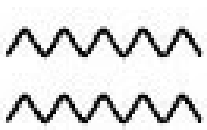

أنا قلبي كورة والفراودة أكم

استمعتُ إلى حسام يتمتم لنفسه بصوت خفيض بينما يراجع على الكمبيوتر الخبر الذي انتهى من تحريره عن مؤتمر «دوربان» لمناهضة العنصرية الذي سينعقد في خلال أسبوع من الآن. سود أمريكا يطالبون بتعويضات عن فترة العبودية ويؤكدون استمرار أشكال التمييز العنصري كما تظهر إحصاءات الفقر والجريمة في أوساط الأمريكيين السود. بعض الدول الإسلامية تقترح مناقشة اعتبار الصهيونية شكلا من أشكال العنصرية وبوش يهدد بمقاطعة المؤتمر إذا كانت إسرائيل هدفا له.

تأملتُ شروده وانسحبت إلى تتبع مسارات الحدث. تدركني الدهشة من ألاعيب الحياة الماكرة، وانا أتابع شخصيات حكاية لا تزال في بداياتها. فحسام ينزلق إلى لحظة معتمة في نفس اللحظة التي تعلو فيها سارة فوق أجنحة البهجة. ولأنه كان يعرف أن سارة

سوف تعود من رحلتها مع نديم بعد أيام قليلة لم يرغب أن يفسد علىها الوقت بأخبار زواج ليلى.

ظل جالسا أمام الكمبيوتر بعد انتهائه من كتابة خبر «دوربان». لم يجد لديه القدرة على ترجمة مقاله الذي كتبه الأمس حتى ينشر على الصفحة العربية في موقع الإنترنت، ولا حتى على قراءة الأخبار الجديدة الواردة على وكالات الأنباء. شحب لونه وزاغت عيناه. شعر بيد قاسية تعصر قلبه وذهنه يدور في إطار فكرة واحدة. إن المرأة الوحيدة التي تسللت إلى قلبه بعد عشر سنوات من قصة حبه الأولى التي دامت سنوات الجامعة وذهبت إلى صندوق التذكارات، وبعد زيجة وطفل صغير وبيت عادي لأن «الحياة لازم تمشي»، تلك المرأة تتزوج دون أن تعني بإبلاغه.

«معقول يا ليلى!»

يفكر مصعوقا أن تلك التي كان قد قرر الزواج منها وإعلام زوجته «منى» بقراره لتختر ما تريد، قد تزوجت بالفعل. كان سيهدم حياة ابنه من أجل امرأة لم تره إلا نكرة لا يستحق أن يعرف أنها قد اختارت رجلا آخر «وأنا اللي كنت هاقول لمنى خلاص. يا هَبَلك يا حسام!».

حملق في شاشة الكمبيوتر فلم ير كلمة ولم يسمع إلا صوت صمته:

أنا قلبي كورة والفراوده أكم

يا ما اتنطح وانشاط ويا ما اتعكم

وأقول له كله هاينتهي في الميعاد

يقول بساعتك؟ ولاّ بساعة الحكم؟

ابتسم بمرارة وهو يردد على نفسه في صمت؛ أنه قد عاش دوما للآخرين. بالتأكيد أحب النجاح وسعى إليه. لكن أمه وإخوته الأصغر وزوجة لا تتوقف عن الطلب والشكوى قد أتوا دوما أولا «طب وأنا هاعيش إمتى!».

هكذا كان يبوح لسارة. هل كان يبرر لنفسه الحب. «والحب أساسا مش محتاج تبرير. أنا هافضل أبرر نفسي لكل الناس وقدام نفسي لحد إمتى؟».

وددت لو أخبرته أن الحياة تختار مساراتها وكثيرا ما تكتشفون لاحقا أنها كانت أكثر حكمة منكم، رغم أنكم وقت الألم تخبطون أقدامكم في الأرض كأطفال مدللين. تبكون حتى تتحجر الدموع في أعينكم وتصرخون فتخز صرخاتكم قلوب الآلهة. بالطبع لم يكن ليستمع إلى كلماتي. لم يسمع في هذه اللحظة إلا أنين فكرة واحدة فقط «ده أنا كنت هاقول لمنى في أي لحظة».

هوت المفارقة كمطرقة ثقيلة فوق رأسه فأذهلته.

كان قد قضى اليومين الأخيرين في حالة تشبه الغياب. يصحو ويقود سيارته كأنه منوم. يقضي يومه في موقع الإنترنت. يكتب بضعة أخبار ويتناول «سندوتش» بلا طعم. ويعود للجلوس أمام شاشة الكمبيوتر متحاشيا أي حوار مع زميل كأنه فاقد الإحساس. حتى الشخص الوحيد الذي بإمكانه التحدث معه لم يكن متاحا. ولأنه يعرف بمجيء سارة صباح الغد، فقد بدأ يشعر ببعض الارتياح وبشيء يشبه الشوق إليها.

دخل في تلك الليلة إلى سريره آملا أن يصحو من نومه في حالة أفضل. هكذا أخذ يردد على نفسه قبل النوم عدة مرات. ورغم سعادته بالانفراد بالسرير وحده لنوم منى مع محمد في غرفته إلا أنه نام نوما متقطعا. كان يصحو على جسده مرتعشا فيتذكر بقايا

حلم بتوهة أثناء عودته إلى بيت أمه في القرية الصغيرة، وقد فقد سيارته الـ١٢٨ وهو يعرف تماما مَنّ سرقها. لكن لا أحد يصدقه. وضع المخدة فوق رأسه وضغطها بعنف محاولا العودة للنوم.

لم يذهب إلى غفوة أعمق إلا بعد أن سمع أذان الفجر بصوت الشيخ حسنين الجهم الأجش في الجامع الملاصق. أفاق على منى تدب الأرض مقتربة من سريره بشعرها المنفوش وقميص نومها الكستور الأزرق الثقيل، ووجه لم ينزل بعد تحت الماء البارد وقد تعلق محمد بثديها الأسمر المنتفخ غير مبال بصياحها «اصح يا حسام... الحق... ضربوا أمريكا».

رفع المخدة من فوق رأسه بتوجس وفي تمام اليقظة «مين دول اللي ضربوا أمريكا يا منى؟!».

وهو يفكر أن زوجته ربما طورت من أسلحة دمارها الشامل باختراع أكاذيب بهذا الحجم كي تستكمل مسيرتها في تسويد حياته.

في الموقع وفي الثانية عشرة ظهرا كان قد رأى مشهد ضرب برجيّ التجارة في نيويورك للمرة المائة. وفي كل مرة يراه يعود إليه نفس الإحساس. إن هذا ليس أكثر من مشهد من فيلم خيال علمي رديء. ثم يفيق على وجه بوش المصفر الخالى من الدماء وتهديداته. ويفكر أن تلك لحظة سيتغير شكل العالم بعدها.

«ها يتغير إزاي؟».

«ماعرفش».

لكنها بالتأكيد لحظة الفوضى المطلقة. وهي أيضا لحظة تقوض الحلم القديم الذي تهاوى مع الحجارة المتساقطة من السماء فوق رؤوس كل من حلم بجنة على أرض العالم «الجديد» كما أسموه.

لم يفعل يومها حسام أكثر من متابعة وكالات الأنباء والاندهاش أمام المشهد الذي أخذ يعيد نفسه تلقائيا. الطائرة الأولى ترشق نفسها في قلب البرج الشاهق. صراخ وعويل! «Oh my God».. اللهب يتساقط من السماء مع هؤلاء الذين ألقوا بأنفسهم من النوافذ العالية. اختلاط أصوات الرعب والدخان الأسود مع الحجارة واللهب.

لم يفعل أكثر من كتابة أخبار يعرفها العالم كله في لحظتها. لا يصلح يوم كهذا لكتابة تحليلات وإلا أصبح الوضع مزحة سخيفة. في اجتماع منتصف النهار وعندما أعلن الأستاذ الحامولي رئيس التحرير - بوجهه السمين واللُّغد الذي لايفتأ يرتج مع انفعالاته المستمرة على مدار الساعة - إصراره على «ضرورة تميز الموقع في هذه اللحظة بتحليلات سياسية توضح موقفنا كعرب ومسلمين».

لم يتمالك حسام نفسه «إذا كان حضرتك فاهم قوي اللي بيحصل وعندك توقعات وتحليلات الأمريكان نفسهم ماقدروش لسه يوصلوا لها اتفضل اكتب إنت تحليلات وعليّ أترجمها لك».

مال عليه عبد الرحمن زميله وهو يتأمل حبات العرق المتسارعة فوق لُغد الحامولي المحتقن وهمس «لم نفسك يا حسام ورانا عيال نجري عليهم».

«والله ما هي فارقة يا عم».

انتهي الاجتماع. عاد إلى مكتبه والكمبيوتر المفتوح على صور الطائرة الثانية وهي ترشق نفسها في قلب البرح، فعادت صورة ليلى تلاعبه. لكن الأمر كان قد اختلف الآن. بدت له قصة زواجها في هذه الظروف ليست فقط أقل مأساوية من حجمها الطبيعي، ولكنها أيضا متأرجحة على حافة العبثية. ابتسم ابتسامته الأولى والأخيرة في ذلك اليوم «نظام الكون كله بيتقلب وحضرتك عايز تعيَّط على قلبك... بلا خيبة يا راجل».

وقفت أشاهده في تلك اللحظة يهوي كحجر من فوق حافة جبل ضخم. ثقيل وبلا مقاومة للجاذبية. أما هو فلم يرني ولم يعرف كيف انفطر قلبي عليه. أنا - «البقرة السماوية» - رغم كل ما مر أمام عينيّ ورغم تكهناتي لما هو آت لا يزال قلبي ينعصر لانكساراتهم. أذكر نفسي أن تلك لحظات ستمر لكنها لا تمنعني أبدا من التخطيط للعبة قادمة أنتقيها من جعبتي الممتلئة. ولكل منكم لعبة تناسبه.

عند عودته من العمل ألقى بجسده المنهك فوق السرير. شعر بحالة الغياب التي تبخرت بفعل أحداث اليوم العاصف تعود من جديد. بدا له أن من واصل الاستماع إلى منى تشكو إليه الجارة التي تشاجرت معها صباح اليوم «والبت نعيمة الشغالة.. بنت الكلب طفشت» هو شخص آخر. يسري في جسده خدر من ضرب علقة ساخنة حتى فقد الإحساس بالألم. ومنى في استرسالها نقلت الشكوى من الجارة والخادمة إليه. وصلته أطراف جملة «أنا عارفة إنك بتكلم ستات يا حسام. مش بس سارة صاحبتك. لأ وستات تانية».

انتظرت لوهلة واستكملت وهي تحاول جاهدة أن توقف دموعا تترقرق في عينيها «إنت مابتردش عليّ ليه. مالك بتبص لي كإني مجنونة!».

رقد بلا حراك وقد شعر بجسده يؤلمه في أكثر من مكان بينما يتابع فيلما صامتا مكررا على شاشة عرض أبيض وأسود. بدأ الانسحاب إلى داخله ولا تزال أطراف كلمات عالقة في هواء الغرفة المكتوم عن مصروف البيت الذي قارب على النفاد «وابنك اللي كسر الفازة الكريستال الجديدة و....».

فكر في قدرة منى الفذة على لملمة شكاوى مختلفة في سلة واحدة تلقيها على رأسه دوما في أسوأ الأوقات وبنفس النبرة المكررة الرتيبة. أزاح صوت منى جانبا وقد قرر استدعاء جاهين. وقبل أن يقرر أي سطور قد يحب اللجوء إليها الآن جاءه الصوت جليا:

الدنيا أوضة كبيرة للانتظار

فيها ابن آدم زيه زي الحمار

الهم واحد والملل مشترك

ومفيش حمار بيحاول الانتحار

انفجر في نوبة ضحك تركت منى وفمها مفتوح عن آخره. دمعت عيناه وهو يفكر أن هذا هو الـ «ضحك كالبكا» وإلا فلا..

لم تدرك منى أنه مأزوم. ولن تفهم يوما كيف تتحاور معه في تلك اللحظات التي يغلي فيها عقله بألف سؤال لا يمتلك لها إجابة واحدة قاطعة. لا إجابات ولا حتى حلم اليقظة الذي أدمنه. كان يعرف أن عجزه عن خلق عوالم رائعة يلوذ بها أوقات الضيق هو قاع البئر ولا مسافات أبعد منها. ألم تكن تلك القدرة على التخيل هي ملاذه الأساسي وقت الظلمة الحالكة. وقد تعاقب عليه الكثير منها على مدار حياة كان عليه فيها أن يبدأ كما صرح لدنيا وسارة ذات مرة «مش من الصفر. أنا قعدت ييجي أربع خمس سنين بعد ما تخرجت بادوَّر على الصفر علشان أبدأ منه».

خرجت منى غاضبة من الغرفة. شعر بالحنق عليها يتكثف في صدره. لماذا تصر دوما أن تحاصره أوقات الضيق! لماذا لا تبذل أي جهد في اتجاه الفهم! لا يريدها أن تسمع. فلتتركه وحاله فقط. هل هذا كثير! شعر بثقل كأنه رغبة في البكاء تقبض قلبه. لكنه لم يذرف دمعة منذ كان طفلا وحتى عندئذ؛ كان صوت أبيه يلاحقه غاضبا «مفيش راجل بيعيط. فاهم!».

زفر ضيقه وقد قرر أن يترك نفسه لجزر دوامات الذاكرة وإلى الوقت الذي عرف فيه أنه قد أدمن حلم اليقظة. عاد إلى تلك الليالى التي قضاها في قهوة على شارع فيصل قبل أن يعثر على شقة يقتسم إيجارها مع أصحاب له. على قهوة كتلك في الخامسة فجرا وهو يتمنى أن يدفع أي شيء، لو كان معه ما يدفع، حتى ينام في سرير، ماذا بإمكانه أن يفعل. يحلم ببيت وسرير ربما! يحلم بأمه

فاطمة وهي تعد له الحمام المحشي في دارهم في البلد ورائحة التحمير بالسمن البلدي تبهجه كما فعلت دوما منذ أيامه الأولى. يحلم بأي شيء يسرق الوقت والمكان وأصوات شارع يأبى النوم.

«وقتها كنت بتحلم يا واد يا حسام وكنت بتصحى تلاقي حل للمشكلة. دلوقت بعد كل اللي حققته مش عارف تحلم! الله يلعن أبو الحروب الصليبية.... وليلى كمان».

جاءته الدعوة من سارة لقضاء ليلة الخميس معها ونديم. لم يتردد. تلك كانت أولى ألعابي وأبسطها، والحقيقة أن الأمر لم يستدع مني جهدا لإقناع سارة التي كانت قد عقدت العزم على التواجد مع حسام أكثر وقت ممكن. كما أن حسام كان لديه فضول تجاه الرجل الذي تسبب في مأزق سارة العشقي وأضفى على ملامحها تلك البهجة. ثم إن أي مكان بعيد عن البيت وقسم الأخبار هو أمر محبّذ هذه الأيام.

هبط مع سارة إلى مدخل النايت كلوب المفتوح على نسمات أوائل أكتوبر الليلية المنعشة. صعدا إلى الطابق الثالث والأخير للمركب ودلفا إلى المطعم ذي الإضاءة الخافتة والشموع البيضاء الصغيرة المتناثرة على المناضد النحاسية المنخفضة. تعرف حسام إلى نديم من نظرته تجاههما، وابتسامة أضاءت الوجه الأسمر ووقوفه في انتظار وصولهما إليه في ذاك الركن الملاصق للنيل. وبينما كانا يدوران حول المناضد الصغيرة في الطريق إلى نديم، استدار حسام إلى سارة هامسا «إنت بتلاقي الرجالة الحلوة دي فين يا أختي!».

ضحكت وهي ترد في صوت خفيض أيضا «إيه يا حسام إنت هتغيَّر الصنف!».

وصافحه نديم بحرارة صاحب قديم.

مع منتصف كأس النبيذ الثاني كان حسام قد بدأ البوح. حكى لنديم تفاصيل اللقاءات الأولي مع ليلى. وجه ملائكي يدخل الموقع الذي لم يعتد على وجود نساء جميلات. أكواب العصير على الكافيه الملاصق للعمل. رعشة في القلب ذكرته بسلمى -أول الغرام- وعينان يفيض منهما حنان يشبه حضن أمه. انجذاب تلقائي رغم تصريحه المبكر لها بأنه متزوج. فرحة أن قلبه الذي كان قد ظنه دخل في غيبوبة موت قد بدأ يدق بألحان قديمة وجديدة وغريبة كان قد نسى طعمها على مدار السنوات العجاف الأخيرة. وعندما اقترب من نهايات الحكاية توقف. نظر نديم إليه بدفء:

«كل الحكايات بتعدِّي يا حسام. المهم مانتكسرش. أنا لو هاحكي لك لازم تأخد إجازة وتقعد تعيط جنبي. لكن أنا كنت بقوم فورا. مفيش وقت أضيعه. يمكن الحياة في أمريكا بتعلمك ماينفعش تتوقف لحظة واحدة وإلا حد تاني هياخد مكانك».

قاطعته دهشة سارة «يعني مفيش وقت نحزن يا نديم. طيب نبقى بني آدمين إزاي!».

بدا لسارة فور خروج تلك الكلمات أن تلك الجملة قد أتت ليس منها هي وإنما من «ماعت» كصفعة خفيفة لم تلبث أن انسحبت بعدها إلى داخلها. في صمتها عادت تنظر إلى حسام بحنان محاولة لملمة أكبر قدر ممكن من الألم يمكنها أن تمسك به بيديها في غرفة طفل ممتلئة بالأشياء المبعثرة ونصف المتكسرة. تذكرت حديثها التليفوني صباح اليوم مع إيزابيلا حين طلبت منها أن تصلي من أجله في كنيسة «القديس بيتروك»، تلك الكنيسة الصغيرة ذات العتمة التي طالما أغوت سارة وحدثتها عن أشياء مدهشة حتى لو كانت غائمة الملامح. وابتسمت لرد إيزابيلا التي تحب أن تلعب لعبة الغموض أحيانا «سيبي لي الموضوع ده».

اتسعت ابتسامتها وهي تتخيل صلوات إيزابيلا على شاطئ المحيط هناك. ربما تحديدا فوق التل الأخضر العالى الذي طالما أحبته سارة وتعلمت من جدتها كيف تشعر بوجود الله هناك بين أسراب النوارس البيضاء المحلقة، وفي لمحات خاطفة لقفزات الدولفين فوق سطح الماء «ماشي جراند ما اعملي اللي إنت عايزاه».

كانت إيزابيلا بالفعل تقوم بإحدى ألعابها حين أخفت عن سارة أنها ذاهبة لـ«سان ميشيل»، حتى لا تسألها كعادتها أن تحكي لها

عن ذلك المكان الذي تزوره كثيرا. أما أنا فلا أستطيع البوح بما ترغب إيزابيلا في كتمانه في هذه اللحظة من الحكاية. لكن بإمكاني التصريح بأنني كنت أذهب معها في كل مرة إلى ذلك المكان الذي أحب. بالطبع أستطيع الذهاب وحدي لكنني في العادة أفضل صحبة من يصطحبونني في قلوبهم. خاصة إلى مكان له تلك المساحة المحفورة في قلبي بجوار «دندرة» ونيل النوبة.

عادت سارة من جولتها مع إيزابيلا لتجد حديثا محتدما في السياسة ومخططات أمريكا وتلك الحرب المزعومة ضد الإرهاب. أنصتت لنديم «أمريكا عايزة تنسى إن هي المفرخة الأولى للإرهاب.. هي اللي ربت بن لادن وأمثاله من أكتر من عشرين سنة وهي اللي دعمت صدام في الفظائع اللي ارتكبها ضد الأكراد واستخدامه أسلحة كيماوية ضدهم سنة ٨٨».

عاد إلى حسام الانفعال فتراجع أنين قلبه ووجه ليلي «لأ دي عايزة تنسى أصلا إنها ممكن تكون مصنفة دولة إرهابية زي ما أدانتها المحكمة الدولية سنة٨٦ للاستخدام غير المشروع للقوة. وبعدين صوتت بالفيتو ضد قرار مجلس الأمن اللي دعا كل الدول للانصياع للقانون الدولي. كان المجلس طبعا مكسوف يتكلم عن أمريكا تحديدا فقال كل الدول».

بدا الأمر لسارة أن محاكمة الساحرات في قرية سالم الأمريكية تتكرر الآن. لكن السحرة هذه المرة هم بن لادن ومن هم من جنسه. تذكرت كيف ـمنذ قرون ثلاثةـ انتشرت في القرية الأمريكية ذات الروح البيوريتانية المتزمتة حمى اتهام السكان لبعضهم البعض بالسحر حتى أزهقت تلك الحمى مئات الأرواح البريئة. الآن يقوم بوش بالدور منفردا وفي الخلفية تقف بلاغات أجهزته الأمنية العتيدة.

لكنها قطعت الحديث «إحنا مش قلنا كلام في السياسة لأ النهارده. ماحدش بيعمل حاجة الدومين دول غير الكلام في السياسة. خلينا في الكابتن ده اللي كان رايح برجليه لمصيبة تانية».

ضحك حسام لدى تلاقي عينيه بعينيّ سارة وقد مرق خاطر واحد بينهما في نفس اللحظة. عاد إليه ذلك اليوم ـ منذ عام ـ عندما جلس أمامها كطفل مرتبك ليعترف «يظهر إن أنا بحب يا سارة».

وابتسامتها العريضة وهي تخبره «يعني خلاص قررت تبقى بني آدم».

ما إن أدار حسام السيارة في صمت القاهرة فجرا حتى وجد نفسه محاصرا بين وجهين. «يا بوش.. يا ليلى!».

لم يجد في ذهنه إلا تلك الصورتين. حاول الفرار منهما ليمارس لعبته المفضلة وقت الأزمات. فليذهب بعقله إلى فاطمة أو بيته في البلد أو ربما سلمى وسنوات الجامعة التي لم تمر عليه أجمل منها «على الأقل.. تفكيري في سلمى مش هيوجع قوي».

توقف بالسيارة فوق كوبري أكتوبر وفتح الشباك على نسمة هواء خريفية تحمل وعدًا ببرودة وشيكة. وتحول الحوار إلى جدل بصوت عال وهو ينظر إلى وجهه المتجهم في مرآة السيارة ويحدثه بشماتة واضحة «لأ يا سي حسام يا فقري بيتهيأ لك. ده إنت اللي سبتها يا حمار بعد ما صدقت إنها كانت بتخدعك على طريقة فيلم «معبودة الجماهير».

عاد إلى ليلى. تذكر لحظات لهما فوق نفس الكوبري وفي هذه البقعة التي اختارت السيارة التوقف عندها. كان قد عرف في تلك الليلة الشتوية الممطرة أنه يحب تلك الفتاة التي تكمل جمله الناقصة.

«مالك يا حسام. ساكت ليه ؟».

«يمكن خايف من السعادة اللي حاسس بيها».

«إنت خايف عليها مش منها».

«يمكن زي ما قال عمنا «ليه خجلان تقول إنك سعيد يا ولد».

«مش ده كان برضه «كرباج سعادة وقلبي منه انجلد»!.

«يا بنت الإيه! تمام».

يعرف حسام الآن أن صورة بوش ستصبح أكثر رحمة به منها. غمرته مرارة أن كل الأشياء الجميلة قد أخذتها معها. ليس الحب فقط ولكن الإحساس بالثقة ولحاف من الأمان يغطيك وأنت قريب ممن تحب أو بعيد قد سحبته يد قاسية من فوقك، وتركتك كطفل مرتعش يعيش وحدة ليل الشتاء. بوش بوعيده لنا وملامحه الكاذبة أطيب من ليلى. هل يذهب إله بقدميه! تساءل في غيظ لماذا لا يملك عقله الذهاب إلى أي مكان لطيف؟

«مكان لطيف إزاي يعني!».

«ليه يا حسام يعني إنت ماعندكش أي منطقة ذكريات حلوة!».

«يمكن.. شقة فيصل والطبيخ اللي كنت بأعكه لبقية الشباب.
و النس-وان الكسر اللي كنت باخرج معاهم. وأول ما أحس إنهم واخدين الموضوع جد وداخلين في حكاية غرامي حكاية طويلة أفلسع».

«ياه يا حسام. ده إنت كنت تافه قوي!».

«مش عارف تافه ولاّ مجروح أو يمكن... ضايع».

«وإنت إيه دلوقت؟».

«مش عارف. تخيل!».

أدار موتور السيارة بغضب مكتوم متجها إلى البيت وهو يشحذ ما تبقي من طاقة استعدادا لاستجواب صباحي من منى عن سبب تأخيره وغلق الموبايل.

جنازة والد صديق له لا تعرفه منى!

«أيوه كده تمام».

فليكن زميلاً في الموقع.

«معقول برضه».

والتأخير يا حسام؟

«كان لازم أبقي معاه. مصدوم يا حرام. أبوه اتخطف من غير إنذار».

ولكن كيف يفسر عطر ليمون على صدر قميصه وقد وصل توا من جنازة. هل كان على سارة أن تضمه إلىها بقوة وقت أن تركها ونديم. علا صوته في السيارة وهو على مشارف شارع الهرم «يا سلام ده منى لسه في الحياة. تعالى يا أختي جنب إخواتك اللي منكدين علىّ العيشة».

(4)

وبعد أن عاد جلجامش من معركته مظفرا

جاءته عشتار وعرضت عليه وصالها

«تعال ياجلجامش وكن حبيبي

هبني ثمارك هدية

كن زوجا لي وأنا زوجا لك».

لكن جلجامش أدار ظهرا لحب الإلهة وأخذ في تعداد مثالبها وتهتكها

أي حبيب أخلصت له الحب إلى الأبد؟

وأي راع أفلح يرضيك على مر الأزمان؟

تعالى أفضح لك حكايا عشاقك... (٦)

«يعني هلاقيها من مصايب السياحة ولاّ منك ياخالد!».

زفرت نورا غيظها وهي تدير السيارة في التاسعة والنصف صباحا متجهة إلى وسط البلد، حيث ينتظرها مسيو رفاعي مدير الشركة بتلك النظرة المؤنبة التي تنجح دوما في استفزازها. من المفترض أن تكون على مكتبها في التاسعة تماما.

«يلعن أبو شكله. بينسى دايما إني مش بحاسبه على الأوفر تايم.. ده أنا سايبة الشركة إمبارح الساعة سابعة ونص».

فكرت أن علىها أن تمنع أي احتمال لجدل صباحي مع خالد حتى لا يتكرر تأخيرها.

«ما إنت ياما قلت لنفسك كده ودايما بيعرف يتخانق في الوقت اللي بيختاره».

أدارت كاسيت السيارة فأتاها صوت «جاك برل»:

بلا ش تفارق... بلاش تفارق

كل حاجة ممكن تتنسي

واللي فاز منا هو اللي نسي

أوقات الخصام.. إنسى

وأوقات...

التفت بالسيارة بعيدا عن زحام فيصل في اتجاه المحور وهي تواصل الضغط على البنزين بقوة. أدركت عند نزولها إلى ميدان لبنان ورؤيتها صفوف السيارات مكدسة كما لو كانت فوق بعضها البعض؛ أن الأمر سيستغرق ساعة كاملة حتى وسط البلد. اقتحمت عوادم السيارات والحر الخانق صدرها فأغلقت زجاج السيارة وفتحت التكييف وعادت إلى الأغنية. زفرت غيظها.

أوقات الخصام.. إنسى

وأوقات الأسئلة اللي ضاعت

فـ«ليه؟» و«ليه؟».

رنّ جرس الموبايل فرأت رقم سارة «هاي حبيبتي. إنت صاحية بدري ليه النهارده!».

أتاها صوت سارة مع خلفية من صخب «عندي محاضرة الساعة عشرة.. قلت أصبَّح علىك وأفكرك إننا هنتقابل الخميس عندي».

صمتت نورا لوهلة ثم.. «مش عارفة يا سارة خالد هيخترع إيه علشان يبوظ اليوم. أصل بقى له فترة متجنن علىّ خالص. مش فاهمة ماله!».

«يمكن ظروف الشغل يا نورا. ما انت فاهمة لما شغله بيقع. بس كنت عايزة أعرف...».

قاطعها صراخ نورا في عسكري المرور الذي رآها وهي تتحدث في الموبايل وبدا منهمكا في تدوين رقم السيارة «يعني فالحين بس تاخدوا لنا مخالفات بالميّات وإحنا مابناخدش منكم حاجة.. بلد بنت وسخة!».

رغبت سارة أن تهدئ من ثورتها ولم يسعفها الوقت «هاكلمك يا نورا بعد المحاضرة».

كانت قد وصلت ميدان مصطفى كامل عندما لمحت عم عيد السايس. قذفت إليه بالمفاتيح وهرعت في اتجاه المكتب.

أغلقت سارة الموبايل وهي تفكر في التحول الذي طرأ على نورا. من يعرف نورا مثلما عرفتها سارة منذ أيام الجامعة بضحكتها العالية التي كانت تدل علىها عبر فناء الكلية، بحفلات الموسيقى والمعارض التي كانت تنظمها لأسرة «حورس»، وحالة البهجة التي كانت تنثرها على الأصحاب الملتفين حولها، يصعب علىه أن يفهم التغير الذي طرأ علىها.

في طريقها إلى قاعة المحاضرات، مرت سارة بالطرقة الطويلة الرطبة التي تدخلها الشمس عبر الفناءين المنفتحين على السماء. كأنها تسمع ضحكات نورا التي امتصها المكان ولا يزال يرددها بعد أكثر من خمسة عشر عاما على رحيلها. كانت سارة تحضر معها محاضرات الرواية والشعر الفرنسي في أوقات فسحتها. تستمتع بمشاغبات نورا مع أساتذتها وتذهبان بعدها للتحضير لحفلة موسيقية أو رحلة إلى الفيوم. حتى الرسم توقفت عنه منذ سنوات. حاولت سارة أن تتذكر إن كان هذا قد تزامن مع بداية علاقتها بخالد.

«أكيد فترة وهتعدي. نورا طول عمرها بتحب الدنيا وبتعرف تستمتع».

فكرت سارة أن خالدًا بالتأكيد قد نحت من طبقات روحها الكثير وهو لا يفتأ يردد نظرياته «الناس هتفهمك غلط يا نورا بكل التلقائية اللي بتتعاملي بيها معاهم. يعني هاتقدري تتحكمي في رؤية الناس ليك إزاي!».

كانت «أقواله المأثورة» ـ كما أسمتها نورا ـ قد أصبحت محفوظة بين الصحاب من كثرة ترددها لدرجة أن نورا كانت تكتفي ببدايات الجمل وعلى سارة أو حسام أو دنيا أن يستكملوها.

انكمشت تلقائيتها وقد بدا لسارة أنها تحولت إلى طفل مذعور اعتاد تلقِي الصفعات من حيث لا يتوقع. وذهبت تلك الضحكة التي تحبها سارة والتي لحق بأطرافها الأخيرة حسام ودنيا عندما عرفاها. دخلت سارة القاعة وعلى وجهها ابتسامة جاءتها عندما أدركت أن ما تمرُّ به نورا مع خالد يكاد أن يكون نسخة من سنواتها مع محمود التي ألقت على وجه الحياة غشاوتها الرمادية فبهتت الألوان.

وضعت كتبها والأوراق على المنضدة العالية المتربة، وأزاحت شبح ابتسامة كادت أن تتحول إلى ضحكة وهي توجه الحديث إلى الطلبة «صباح الخير. النهاردة هنتكلم على الفروق بين نظرية فرويد ونظرية يونج فيما له علاقة بالأحلام. عايزة أسمع منكم الأول. وياريت نقفل التليفونات الموبايل».

دخلت نورا إلى الشركة وعرفت على الفور بعدم وصول المدير فتنفست بارتياح. جلست إلى مكتبها وفتحت الكمبيوتر لإنهاء الملف الذي بدأته بالأمس فجاءتها ملامح خالد في مشادة الصباح بوجهه المتشنج وعروق رقبته النافرة.

«نورا إنت بتعملي كل الحاجات اللي بتستفزني. عايزة تبقي متجوزة
و حياتك ماشية طبيعية.. أصحاب وخروج وعشا وغدا».

«يا خالد اللي يسمعك ما يتصورش إنه كان عشا عمل بين شركتنا والشركة الفرنساوي. مش ممكن أرفض طلب للمدير فيه مصلحة للشركة، في وقت شركات كتيرة ألغت عقودها مع شركتنا أو أجلتها بعد الزفت ١١سبتمبر. وبعدين أنا قلت لك تيجي. انت اللي رفضت!».

«هو كل يوم والتاني هاروح مع المدام حته. وبعدين هما ماعندهمش غيرك!».

«المسألة مش لغة وبس يا خالد. جزء منها موظف قادر يعمل علاقات عامة أو لأ. وفي الوقت الصعب ده».

«وإنت بقى الخبير الإستراتيجي للعلاقات الدولية. لأ ده جزء منها إن مديرك مش عايز يفهم إنك ست متجوزة».

بعد مشادات كتلك لم يكن ليخطر على بال نورا أن تشكو لأبويها اللذين سيُسمعانها ما لا تحب. تكاد أن تسمع الآن صوت أمها الخافت ذي النبرة الممطوطة المنكسرة «يا بنتي كل بيت وفيه مشاكل.. وبعدين إحنا ما صدقنا إنك رضيت تتجوزي وكان عندك حاجة وتلاتين سنة».

تقصد بالطبع أنها وأباها قد تنفسا بسعادة من أزاح هما ثقيلا عندما وجدا من يرضى بها وهي في هذا العمر، وبهذا القدر من العناد كما صرحا أكثر من مرة. ستمصمص تهاني شفتيها وتخبط كفا بكف «مش كفاية الراجل مستحمل قرارك بتأجيل الخلفة فوق التلات سنين... ده إنت جبارة!».

تعجبت نورا من انقلاب الأوضاع بين نقيض ونقيض. فهي في لحظة عائل الأسرة الذي يطلب منه مشاوير الأطباء والتقديم لمدارس أبناء أخيها، وفي اللحظة التالية تتحول إلى امرأة منكسرة تنتظر حماية رجل. زفرت غيظها وهي تحاول التركيز في ملف الشركة الفرنسية الذي رقد أسبوعا في درج مكتبها في انتظار إضفاء اللمسات الأخيرة عليه.

«عم عبده اعمل لي نسكافيه بلاك من فضلك».

كانت قد أنهت العمل على الملف في نفس الوقت الذي دخل فيه مسيو رفاعي إلى مكتبه. أسرعت بإدخال الملف إليه وقد حاولت رسم ابتسامة على وجهها. عادت إلى مكتبها وفتحت صندوقها البريدي فوجدت كارتا من دنيا. فتحته وانفجرت ضاحكة. نادت على زميلتها صفاء في المكتب المقابل لها «تعالى بصي المسخرة».

أسرعت صفاء نحوها بوجهها الطفولي وجسدها الضخم وانضمت ضحكاتها إلى ضحكات نورا على الكارت المكون من مجموعة من الصور المتتالية. عدة صور لرجل شديد الوسامة بشعر أسود وعضلات مفتولة وملامح إيطالية أو إسبانية. تبدأ الصور بباقة زهور وابتسامة جذابة وتتطور إلى إمساكه بعلبة فيها خاتم ماسي. صورة له وهو يغسل الصحون وأخري وهو يغيِّر حفاضات طفل. ثم الصورة الأخيرة لمجموعة نساء ملتفات حول منضدة مستديرة وقد أوقدن شموعا وفي أيديهن كؤوس نبيذ. اكتست أوجههن بابتسامات عريضة وقد تحولن إلى هياكل عظمية. وأسفل الصورة الأخيرة كتب عنوان الحكاية «النساء في انتظار الرجل الكامل».

ارتفعت ضحكتها «يخرب عقلك يا دنيا».

التفتت إلى صفاء وقد أعادت الابتسامة إلى وجهها ليونته وبريقا خفيفا في العينين السوداوين «الوحيدة اللي عرفت تضحكني النهارده».

في طريقها إلى البيت لم تفارق وجهها الابتسامة وتشكَّل قرارٌ أن تلاطف خالدًا. عادت إليها موجة حنين إلى جسده ملاصقا لها ورائحته تغمرها وربما بعض تفهم لموقفه. كلمات سارة تعود إليها الآن «يمكن يا نورا خالد مش بس بيغير علىك لكن منك برضه. مش سهل على راجل إن مراته تكسب أضعاف مرتبه. أنا بقول يمكن».

ظلت نورا تستبعد تصديق هذا الاحتمال «أكيد خالد أنضج من كده وعارف أنا بحبه قد إيه!».

وقد كان دخلها أضعاف دخله بالفعل. كان ذلك بالطبع قبل نكسات السياحة المتتالية بعد حادثة الأقصر. وها هو ذا الحادي عشر من سبتمبر يأتي ليكمل نفس المنحنى. لم تصدق كلمات سارة التي سبق أن سمعتها بصوت خافت داخلها، إلا عندما أكد حسام على نفس الرأي «أيوه طبعا يا نورا. أنا راجل وبقول لك مش هيبقى سهل علىّ لو مراتي بتكسب أكتر مني».

في البيت بادرته بحضن دافئ جاءه مفاجئا فلم يبد رفضا. طبعت قبلة سريعة على جبينه واتجهت إلى مزهريتها الخضراء التي تحب شكل زجاجها البلدي وقد حمل حبات الرمال الدقيقة داخل نسيجه والتفافات كفّ من صنعه. أسقطت باقة الورود البلدية فيها ودخلت إلى المطبخ «الأكل هيجهز في ثوان. جبت سمك مشوي وفاضل الأرز بس».

بحركات سريعة ارتدت مريلة المطبخ ورفعت شعرها بمشبك إلى أعلى، ثم أدارت الشريط في الكاسيت الصغير الراقد دوما فوق رخام المطبخ.

هاحبك... هاحبك

هاحبك حب

مش ممكن حد يتجرأ ويحبهولك

هاحبك الحب

اللي طول عمري بحب إني أتحبه

هاحبك... هاحبك

جذبه صوت «ميشيل ساردو» الناعم في حركة مباغتة إلى بدايات قصتهما. تلك هي الأغنية الأولى التي سمعاها معا والتي لم يسمعها مرة إلا واستحضرت جرأة عينيها، وهذا القوام الفارع المدرك تماما لجمال انحناءاته عندما رآها للمرة الأولى وسط مجموعة أصحاب في «وادي الريان». يتذكر خالد جيدا الـ«مايوه» الأسود الذي أكد جمال وصلابة نهديها الممتلئين، ونعومة الظهر المنساب نحو ذاك البروز الخفيف في ردفيها، وقد أخفتهما بخبث واضح تحت «كاش مايوه» أسود من الشيفون بعروق ذهبية نحيلة. تخفَّت الساق اليمنى بدلال تحت القماش الشفاف الناعم وكشفت ساقها اليسرى نفسها في غرور واضح حتى انحناءة المايوه أعلى الفخذ.

تنَّهد مع لمحة الذكرى وهو يخرج الطماطم والخيار من الثلاجة الصغيرة لإعداد طبق السلاطة. تابعها بنصف عين وهي تضع الأرز في «الحلة». جاءت كلماته مغلفة بنبرة لطيفة «أنا عارف إنك بتحبي القزاز البلدي. عايز آخدك يوم للحسين نجيب شوية حاجات تانية».

استدارت إلىه. لفت ذراعيها حول وسطه ودسَّت رأسها في صدره. ضمها إلىه بقوة. وقفا لوهلة وقد سرت بينهما موجة خدر... رفع وجهها إلىه، وبدأ يتلمس تفاصيلها بشفتيه. لاحقته شفتاها وذهبتا به في قبلة ناعمة لم يفقهما منها إلا رائحة الأرز الكثيفة. ابتسمت وهي تستدير لتضع الماء في حلة الأرز وتهدئ من شعلة النار.

«عارف نفسي في إيه؟».

«سيجارة جامدة جدا. صح!».

ابتسم وهو يرفع من صوت الأغنية:

هاحبك...هاحبك

هاحبك حب....

قطع ابتسامته رنين جرس الموبايل. جفَّفت نورا يديها بفوطة المطبخ وردت وهي لا تزال تقلب الأرز على النار. «هاي مدحت. كله تمام. ليه مالك؟ طيب ممكن أشوفك بكرة بعد الظهر. قول على ٨ كده. خليك كويس بس مفيش حاجة تستاهل».

التفتت فوجدت خالدًا يقطِّع الخيار بعصبية. بادرته «ده مدحت. يظهر عنده مشاكل في الشغل وهيستغنوا عنه. دي مشكلة شركات السياحة الصغيرة. مش بتتحمل أي خبطة في السوق. اتفقت معاه على ميعاد بكره».

لم يتوقف عن إعداد السلاطة وهو يحاول إظهار اللامبالاة «طيب ما كان قابلك هنا في البيت بدل ما حد يشوفكم بره لوحدكم».

أدارت ظهرها لحلة الأرز ورفعت عينيها إلىه بنظرة مباشرة «إنت مش قادر تنسي إن أنا ومدحت كنا بنحب بعض. بس الحاجات بتتغير يا خالد. هو اتجوز وأنا اتجوزت. ثم إن إحساسي بيه صاحب وبس. وطبعا بحس إني مسئولة عنه بشكل ما».

ارتفعت نبرة صوته بعصبية «مسئولية إيه دي يا نورا.. مش تقولي كلام أفهمه!».

ألقت الملعقة الخشبية فوق رخام المطبخ بعصبية وهي تغلق الكاسيت «اسمعني كويس يا خالد.. هو أنا لو فكرت أخونك هاقعد معاك ليه وقتها!».

«فكرة الخيانة ما خطرتش على بالى».

زفرت بغيظ «طيب ليه الغيرة بقى!».

«دي مش غيرة إنما خوف علىك من جموحك».

لن ينسى تلك المرات التي خرجا فيها للعشاء مع مجموعة أصحابها من أيام الجامعة. كانت ضحكتها الحاضرة تثير البهجة وقفشات تربط بينهم بخيط لا يراه، وتستبعده رغم أنها كانت تستدير إليه بين وقت وآخر لتفسر مصدر الحكايات. لم يكن ليكذّب عينيه. كان يري الرغبة في عيون الرجال. ومدحت أحدهم. في تلك اللحظات تتملك منه صورة واحدة. معا في غرفة نومهما حين ينسى الوقت والمكان ولا يتبقى إلا جسداهما في إيقاع عناق بطيء يتمنى أن يطول. كان قد سألها مرة في بدايات علاقتهما «عرفت كل الحاجات دي منين؟».

لم تخف أبدا كيف أحبت جسدها ولم تصدق أنه شيء قبيح أو غير مرغوب. لكنها في الحقيقة لم تفهم أبدا مصدر هذا الزهو بجسدها. هل لأنها كبرت وهي ترى أمها تتبرأ من جسدها طوال الوقت تحت عباءات فضفاضة تخفي كثرة الشحوم وندرة الحنان!

«وبعدين طبعا كان لي علاقات.. رجالة حبيتهم واتخطبت لهم وكنا هنتجوز وما نفعش.. هو إنت ما كانش لك علاقات يعني.. ليه أنا ماحاسبتكش عليهم!».

صمت تماما. ولم يعد أبدا إلى نفس السؤال.

كانت مكالماته لها على مدار اليوم قد تكثَّفت في الشهور الأخيرة «بأطمّن عليك».

وما إن يعرف أنها في اجتماع مع شركة سياحة أخرى أو غذاء عمل حتى يشعر بدماغه تغلي. تعود صورتها إلى مهاجمته بشراسة وقد أشعلت شموعا لهما تعكس نورا خفيفا على لون النبيذ الأحمر وأسطوانات «شيمن بادي»:

اللي بينّا... اللي بينّا

حكاية ابتدت بالمصادفة

من عنينا اللي سرحوا

كل عين تسأل التانية بلهفة

تأخذ الموسيقى غرفتهما خارج المكان بينما تخطو نحوه في كامل ألقها واكتمال الشوق. تخلع عنه ملابسه وتمر بشفتيها ببطء على انحناءات رقبته وصدره فيعود إليه الإحساس بمناطق جسده المنسية. عبق جسدها المُسكر يتملكه حتى في لحظة الذكرى، ويستحضر معه تفتح الجسد الأسمر الفارع له ثم شهقة دخوله إليها. سكونه داخلها ونفس عميق يخرج من صدره إلى فمها في قبلة لا تنتهي إلا مع وقوعهما البطيء من فوق تل الرغبة.

كم أحب تلك المرات التي أخذته فيها فاستسلم لها، وتركها تفتح داخله أبوابا وتقطع معه مسافة للشهقات تبدو في كل مرة جديدة. وعندما ينفصل الجسدان وما يكاد يلتقط أنفاسه، حتى يشعر بأناملها تتسلل ناحيته ببطء ثعبان يعرف جيدا طريقه في الظلام. يمسك بيدها ضاحكا ويشعل سيجارة بانجو. يشرب منها بضعة أنفاس على مهل وهو يتأمل جسدها الأسمر. يعطيها السيجارة ثم يمر بأنامله على انحناءاتها الناعمة.

كان قد أخبرها ذات مرة أنها لو كانت تعيش في زمن «رودان» لَغَدَتْ من أجمل موديلاته بتلك الدرجة من اللون الخمري، وهذا البروز الخفيف لعظمتى حوضها وهي مستلقية على ظهرها. تتململ فيطلب منها ألا تتحرك من مكانها. وتبدأ أنامله مغامرة الاستكشاف البطيئة. تمر بخفة فوق رقبتها، وتتسلل إلى الوادي العميق بين نهديها وتعود تلف حولهما في دوائر وتستدير راجعة إلى بطنها المشدود. تحاول أن تمد يديها إليه فيمسك بمعصميها يعذبها بطول الانتظار بينما يدخل شفتيه في معزوفة الإيقاع البطيء. يمر بها فوق انحناءة رقبتها ونقطة التقائها بالكتف متسللا إلى إبطها ثم إلى النهدين المتقظين. بين وهلة وأخرى يسترق النظر إلى تحولات تلك النظرة المتوسلة في عينيها. يثيره هذا البريق الخافت كأنها على حافة دموع وانسدال شعرها في موجات

عفوية حول وجهها فوق الملاءة البيضاء، وشفتاها المنفرجتان على ارتعاشة التوق. ما إن يدخلها حتى يهدأ تململ جسدها الذي يقبض على جسده بقوة ويبدأ سحب جزرها يتوالى عليه. يشده إلى عمق يليه عمق أبعد ثم أبعد... لو ترك نفسه لغوايتها لانجرف من اللحظة الأولى. لكن على كثرة ما عرف من نساء هي الوحيدة التي أفهمته أن كل لحظة بينهما هي ذروة في حد ذاتها.

الآن وقد انتهت من إعداد الغداء وجلسا في صمت على المائدة المستديرة الصغيرة، يعود إلى نورا ثقل الشعور ببعد المسافات. تتأمله متسائلة في صمت «هو مين ده!».

فجوة من الغربة تتسع لتفصلها عنه، ويزداد قلقها من طعم مرارة يتكثف على طرف لسانها.

أتأملها.. هاتان العينان الوسيعتان السوداتان، والشفتان المكتنزتان في وجه مستدير يحوطه شعر ناعم فاحم السواد، ويتأكد لديّ شبهها لهؤلاء الكاهنات حاملات القيثار على جدران أحد المعابد الجنوبية. تلك امرأة قد استبقت كاهنة «الربة الذهبية» حية داخلها. أجادت فنون الحب والمنح والتلقي. هي ذات الكاهنة في المعبد القديم، معبدي ومعبد «عشتار» و«أفروديت». تمناها الرجال ولم تبخل عليهم ببركتي.

لها عينان صافيتا النظرة

وشفتان عذبتا الحديث

صاحبة الجيد الطويل والصدر المضيء

الشعر بلون اللازورد

ساعداها يسموان على بريق الذهب

وأصابعها أشبه بأكمام اللوتس

صاحبة الخصر الرقيق والأرداف الرهيفة

والسيقان المدافعة عن الجمال.. (٧)

هي ذات الكاهنة. تمنح من قوة. لا تتصنع ضعفا أو تتنفس كذبات من هواء فاسد.

لكنه لم يكن الغريب الذي يعرف إلهات الحب ويركع في خشوع أمام الشعلة المتقدة في قلب المعبد. وعندما تتلقاه الكاهنة تحممه في ماء دافئ معطر بالطيب وتدلكه بزيت اللوز ثم... تأخذه إلىها فتفتح له أبوابا سحرية لرجولة تعرف معنى الأنوثة داخلها، لا ينسى أبدا أنها كاهنة «حتحور» العذراء التي لا يتملكها رجل لأنها ليست ملكا إلا لنفسها. بعد كل أيام سبعة مع غريب عابر تعود عذراء من جديد. تسترجع فرديتها.

أعرف بالطبع أن لم يعد لديكم معابد للحب في هذا الزمن. لكن أهم حيلي كانت هي أن الكاهنة لم تختف، بل جعلتها تتراجع داخلكم فنسيتموها.

تأملتهما وشعور بسُمِّ المرارة البطيء يتسرب إلى دمي. ما أبعد خالد عن الغريب الطارق أبواب المعبد. كنت أود لو أدخل نورا معي لتطل من نافذة ليلية على نساء أحلامه. رأيته مؤخرا يسير في حلمه في شارع مع امرأة كانت صديقة طفولته. في أثناء سيرهما شعر بشيء في يده وأن هذا الشيء حي، أو بدأت تدب فيه حياة. عندما ينادي على صديقته يجدها قد أصبحت نورا.

الشيء في يده يتحول إلى حمامة تطير بحثا عن طعام. يعطيها فتات خبز كان في جيبه. تتحول الحمامة إلى يمامة. يلتفت إلى صديق شاب قائلا «هل تراها. هي مثلك تماما. أقرب للموت منها للحياة!».

في جزء آخر من الحلم تتأرجح السمامة ثانية على حافة الموت. يحضرها الشاب إلى «انظر إلى يمامتك». تموت ثانية فيلقي بها فوق المنضدة. تصحو وتقفز إلى الأرض. يفكر أنها ربما تبحث عن مكان هادئ كي تموت. الشاب لا يبدو متأثرا بما يحدث. قرب نهاية الحلم يفكر أن ربما ثمة ارتباطًا بين السمامة ونورا التي كانت راقدة في مكان ما بلا حراك. (٨)

كنت أعرف يا نورا المرأة الأولى في حلمه. هي صديقة طفولته منذ كان لا يزيد على ست سنوات وأحبها مراهقا. أعرف أنه قد حكى لك عنها. لكن هل فهمت أنها الشكل الغض الأخضر للحب بلا تعقيدات تثير صراعات داخلية. هي الحب في براءته الأولى. أما الحمامة التي ارتبطت دوما في ذهنه بالطعام والتزاوج، فهي الشكل الأكثر نضجا للحب. هي «أفروديت» - السمامة البيضاء.. هي أنت.. هي هذا المزيج من الحب والجنس الذي يختنق إن لم تفتحوا أبوابا داخلكم
و تنظفوا الكهوف المعتمة من نفايات تواريخكم وتعقيدات تكبرون بها.

الشاب الظل فيه لا يزال متعلقا بحب البدايات الغض والمرأة داخله تموت، وهو في الأغلب لن يسعى إلى إصلاح شروخه لأنه لن يعترف
و لا حتى لنفسه أن لديه مشكلة. وأنت ستدفعين ثمن تلك العلاقة غالبا وقت انتهائها. فقط لو ظللت مشغولة عن نفسك بطنين الخارج الذي يصم أذنيك عن صوتي. لقد حاولت سارة أن تبعث إلك بإشارات. هل وصلك شيء منها؟ هل تذكرين حوارا بينكما في إحدى ليالى الصيف الماضي في شرفة سارة!

«إنت بتحبيه يانورا. اصبري. افضلي حبيه».

«باحبه ياسارة. بس بكره ضعفي معاه».

«ده مش ضعف. ده منح غير مشروط. يبقى ضعف لو فضلت تدي له بعد الحب ما يخلص».

«حياتي بره البيت بقت توتر».

«إنت مش بتعملي حاجة غلط. هيفهم كده مع الوقت».

«حاسه إن نورا اللي أعرفها بتضيع مني».

«اسمعي يا نورا. طول ما بتسمعي صوتك الجواني اللي عمره مابيكدب علىك، عمر نورا ما هتضيع منك».

«ما هو كدب علىّ لما فهمني إن هي دي علاقة حياتي وإني هاكون سعيدة مع خالد».

«إحنا عندنا أكتر من صوت يا نورا. بس أي واحد منهم هو صوت الحقيقة! دي مسألة محتاجة نتعب علىها».

«أنا هاتعب على إيه ولاّ إيه يا سارة! الشغل ومصاييه. أهلي وطلباتهم. خالد ولاّ أنا».

(٥)

خرجت الكاهنتان ليلا إلى ضفة البحيرة المقدسة.

كان الهواء يميل بزهرات اللوتس البيضاء وبأطراف أثوابهن الكتانية

وينثر على شعورهن السوداء الطويلة نجمات سماوية.

كن يتناقشن في بعض حالات مرضى الروح الذين يترددون على المعبد

وتستكملان حديثا عن الحلم...

قالت ميرت-أتون:

«نهارا.. تجمع أرواحنا الانطباعات والانفعالات معا في حقيبة

كخيوط نحيلة من دخان. وعندما ننام

يفتح العقل حقيبة الدخان و... يتلصص»(٩)

هزت نفرت رأسها موافقة:

«أي صاحبتي لقد مرت بي أحلام

ظلت ترافقني، غيَّرت من أفكاري،

سرت داخلي وظلت تسري كالنبيذ في الماء.

أحلام بدَّلت من لون عقلي...».(١٠)

فتحت دنيا حقيبتها تتلمس الحطّة الفلسطينية التي كانت قد أخفتها حتى انتهاء حصصها في ذلك اليوم. خطت مسرعة بجسدها القصير داخل البنطلون الجينز حائل اللون وحذاء الرياضة الخفيف، وهي تلقي السلام على الأخت ماري وتمرق من بوابة المدرسة. مشت نحو ميدان التحرير آملة أن تصل قبل أن يحكم الأمن تطويقه للمكان ويغلق كل المنافذ المؤدية إليه. وصلت قبل الموعد المحدد بساعة كاملة، ولم تجد صعوبة في العثور على بعض أصحابها من أعضاء «اللجنة الشعبية للتضامن مع الانتفاضة «كما لمحت حسام منهمكا في التقاط الصور للحشد الذي رفع العلم الفلسطيني فلم ترغب في مقاطعته. لكن ما إن وقعت عيناه عليها حتى اقترب «بت يا دنيا. لو اتقبض عليّ خلِّي بالك من ابني».

ضحكت «إنت هتعمل فيها بطل قبل ما حاجة تحصل. ياعم رووووح».

«طيب ارفعي العلم يا دنيا. أنا اللي هاعمل منك بطلة لما صورتك تنزل في الموقع».

«هاقتلك يا حسام. إنت عايز أمي تشوف الصورة وتبهدلني!».

نظر إلـها وقد اتسعت ابتسامته «يا سلام هي أمك روْشة قوي كده وبتدخل على الإنترنت!».

كانت سارة قد اقتربت منهما وفي يدها مجموعة أعلام صغيرة. بادرته بابتسامة «امشي وسيبها يا حسام. روح شوف شغلك».

ثم التفتت إلى دنيا «نورا ما عرفتش تسيب الشركة النهارده. مسيو رفاعي كابس على نفسها».

ضرب جرس الموبايل فأخرجته دنيا من حقيبتها وعندما ردت تراجعت ابتسامتها «ليه يا أحمد مش هتيجي؟».

أغلقت الموبايل وقد تملكها الغضب. حاولت أن تهدئ من ثورتها مذكِّرة نفسها «دي حاجات ماتنطلبش».

لكنها لم تنكر أنها كانت ستسعد لو كان قد جاء من أجلها. أفاقت من شرودها على يد سارة تجذبها في اتجاه المجموعة التي تكتلت على يمين الميدان وقد نظموا صفوفهم. ورفعوا لافتاتهم التي تندد بإعلان قمة «شرم الشيخ» بين مصر وسوريا والسعودية وما جاء فيه بشأن ما أسموه بـ«العنف». كأن ما يصدر عن الفلسطينيين والإسرائيليين يستدعي نفس الوصف.

«وعايزين العالم ينصفنا!». ابتسمت دنيا بمرارة.

تأتي ذكرى النكبة ولم تمر إلا أيام على رفض حزب الليكود قيام دولة فلسطينية. ولم يمر إلا شهر وأيام على مجزرة «جنين» التي اعترف أحد مرتكبيها بأنهم أبادوا مدينة كاملة وقتلوا النساء والأطفال
و أخفوا الجثث ومنعوا دخول الصحفيين إلى المخيم. لكن كل من اقترب من الأطراف داهمته رائحة الفجيعة. شعرت دنيا وهي تتابع عبر شاشة التليفزيون مشاهد البيوت المهشمة التي امتزجت حجارتها بالدماء، أنها تشم رائحة كالموت. ومن بين أنقاض لوحة الرعب ينبثق أمامها وجه ريم ذات الخامسة عشر عاما. ريم تحكي عن حلمها. «ما عاد لي رغبة أكون مدرسة أو ممرضة، بدِّي أقوم بعملية استشهادية. كل زميلاتي بدِّهن نفس الشيء».

استرجعت دنيا بقايا الطفولة الذابلة على وجه ريم التي رأت الإسرائيليين يحطمون أثاث منزلها في «جنين» ويجعلون من أبيها درعا بشريا. لم يكن قد مر أكثر من عام على رؤيتها مقتل ابنة عم أمها ذات السنوات العشر. ريم التي قضت عشرة أيام مع خمسين جنديًا إسرائيليًا قرروا استخدام منزلها كمأوى للقناصة، لم تسمع على مدار هذه الأيام إلا صوت طلقات الرصاص وهدير الدبابات وطائرات الـ«ف١٦» التي اجتاحت بلدتها. مرقت صورة ريم في ذهن دنيا بتلك الملامح البريئة، العينين الذكيتين والشفاه التي نسيت مذاق الابتسام، شعرت بوخزة في صدرها... هل مصدر الوخزة شيئ يشبه الإحساس بالذنب! وما قيمة الخروج في مظاهرة أقصى أخطارها أن تنال من الأمن ضربة عصا بينما المئات يموتون بطلقات الرصاص الحي والقنابل!

أفاقت على تزايد أعداد المشاركين. لم يسبق لها أن شاركت في مظاهرة بهذا الحجم، ارتفعت دقات قلبها «كل دي أعلام لفلسطين! يا الله! وكل ده أمن».

«غلق سفارة وطرد سفير».

عندما بدأت الهتافات تتردد في الواحدة والنصف ظهرا، تداخل صوت دنيا مع الأصوات الأخرى. «غلق سفارة و... «ارتفع الهدير الذي أشعرها أنها نقطة في محيط واحد يجمعها وكل هؤلاء البشر في ميدان التحرير، وآلاف أخرى في الإسكندرية تسير في ذات اللحظة من المنتزه حتى رأس التين. كأن اليوم هو استكمال للأمس الذي شهد مظاهرة النساء أمام تمثال نهضة مصر المقابل للسفارة الإسرائيلية. يشد جمع الأمس واليوم إلى بعضهم البعض ويشدها إليهم دوامة تحتة من غضب ومرارة. تدور الدوامة بعنف فتنسيها لوهلة وخزة ألم في صدرها، وتعيد إليها شعورا بالانجذاب إلى هذا البلد الذي لم تعرف غيره، رغم تركة أبيها من دم فلسطيني وغياب مبكر. ولكن بعيدا عن الدوامات هل هناك من أرض يمكننا أن ننام علىها وقت التعب!

عادت إلى البيت بشعور المحارب المهزوم. «أديهم سايبنا نصرخ ومفيش حاجة هتتغير».

كل جزء من جسدها يؤلم ورأسها يئن من عنف الصداع. جرت إلى الحمام قبل أن ترى أمها شعرها المشعث وملابسها المعفرة

ونزلت بجسدها تحت تيار الماء الساخن. تنفست بعمق وهي تفكر أن أحمد لم يفكر في الاتصال للاطمئنان علىها. جففت جسدها بالبشكير وهي تتأمل بشرتها السمراء في المرآة وقد توهجت بالحمرة.

«هو إنتِ عايزة منه إيه؟».

«يا سلام... عايزة أحس إنه مهتم بيّ!».

«علشان إنت مهتمة بيه وبكل تفاصيله!».

«وليه لأ؟».

خبأت ملابسها في قلب الغسالة وارتدت بيجامتها. في خطوها السريع نحو غرفتها اصطدمت بأمها في الطرقة المظلمة. شهقت «صرعتيني يا ماما».

نظرت إلىها سميحة بوجهها الأسمر الضخم وشعرها الخشن المعقوف بارتياب «أنا برضه اللي صرعتك ولاّ إنت اللي بتدخلي من غير لا إحم ولا دستور. وبعدين إنت كنت فين؟... مالك سكتِ ليه! أنا قلبي حاسس إنك كنتي بتعطّي في مظاهرة النهارده».

فاجأتها نبرة التحدي في صوتها «اللي يسمع «عط» يقول البت كانت بتتصرمح في كباريه!».

«يا ريت كان بقى أرحم. ما هو إنت وأختك مش هتجيبوها البر. مش كفاية علىّ أخوكم اللي طول الليل والنهار مع أصحاب السو مالهمش غير في الدخان الهباب ده. ناقص أروح ألمكم من الأقسام. ومين ده اللي هيرضى بيكم وأنتم...».

لم تنتظر دنيا حتى تفرغ سميحة من الموشح المحفوظ. دخلت تحت اللحاف وشدته فوق أذنيها في انتظار هدية من صمت.

كانت بوابة الليل تنتظرها بكابوس يعج بعفاريتها المقيمة. ما إن غفت حتى استقبلتها وجوه عديدة، متغضنة وكالحة السمرة يصيحون بأشياء لم تتبينها. لكنها لم تخطئ شكل الأيدي التي قبضت على ذراعيها ودفعت بها إلى قلب الحشد تجاه منصة خشبية يتوسطها صليب كبير الحجم. كانت تعرف أنها مساقة للموت. ولكن أية ميتة! الدموع ترفض الانزلاق من عينيها الذاهلتين. دقات قلبها أعلى من صراخهم. وبرودة تسري في جسدها من أسفل إلى أعلى فلا تستطيع تحريك أطرافها.

كأن الماردين اللذين يسحبانها يعرفان ما تشعر به فقد رفعاها عن الأرض، فتأكد لها الشعور بجسدها ككتلة هواء داخل الخرقة السوداء. دفعها أحدهما إلى الصليب وبدأ يربط يديها إلى الجانبين. رائحة حريق تصل إلىها ولا تتمكن من تحديد المصدر. يندفع الآخر تجاهها
و بحركة واحدة خاطفة من يده يمزق ثوبها من الأمام. فتنكشف.

ظنت أن الجمع قد علا صوته من حركة الأفواه، وتوقف الكادر على نظرة تحمل مزيجا من التشفي والشهوة التي سالت لعابا شفافا من الشفتين الغليظتين. فمها ينفتح على صرخة ترفض المجيء. جسدها يثقل بالبرودة و... الظلام يقترب. أغمضت عينيها ودقات قلبها العنيفة تتلاشى رويدا في قرار استسلام أخير.

مر دهر قبل أن تستجيب لهزتي لها برفق كي تفتح عينيها على ملامح غرفتها. الجمع لا يزال هناك ورائحة الحريق. لا تملك تحريك يديها. تعمدت التنفس ببطء كي تهدئ من دقات قلبها. توقفت عن إملاء الأوامر إلى أطرافها المتبِّسة لوهلة. دقائق وبدأت تحرك يدها الىمني بصعوبة تتلمس جسدها فتبينت ملمس البيجامة القطنية البيضاء. ذهبت الد الىمنى إلى السرى. حملتها بصعوبة لكنها سرعان ما سقطت منها كجزء ميت. لا يزال صدرها ينتفض برغبة في البكاء وصرخة مكتومة.

سحبت الموبايل وضغطت علىه. أنارت الشاشة على الرابعة صباحا. اقترب أذان الفجر. دقائق وستسمع ضجة أمها ناحية الحمام والمطبخ. ثم ستفتح الباب علىها بأسلوب ضباط البوليس عند مداهمتهم وكرا للمخدرات «مش هتقومي تصلي يا دنيا إنت

وأختك؟».

كالعادة ستغمض عينيها وتدَّعي النوم.

«أكيد الكوابيس دي عقاب ربنا لأني بطلت أصلي الفجر. هي بس لو تسيبني في حالى وتبطل تحسسني إن هي اللي هتاخد الثواب والعقاب بدل مني».

جرجرت جسدها إلى الحمام في صمت حتى لا توقظ أختها نسمة.

لم تكن دنيا لتعرف كيف تتعامل مع تلك الكوابيس التي حاصرتها شهورا. كأن لها حياة أخرى كثيفة ومستمرة تعيشها وحيدة خائفة. كرهت النوم وأطالت فترات الاستيقاظ فكانت تذهب إلى المدرسة وعيناها منتفختان وتبعد عن باقي المدرسين حتى لا تتصادم مع أحدهم. بعد انتهاء العمل تدور في الشوارع وتخترع أشياء تقوم بها آملة طوال الوقت أن تنهار في فراش بلا أحلام. لكن لكل تأخير خارج البيت ثمن التصادم مع سميحة؛ التي يخرج صوتها في العادة حادا متقطعا كطلقات مدفع رشاش «اتأخرت بره. هو كل يوم صرمحة ولاّ إيه!».

وستنهي ما لديها بتعقيب ثابت «مش كفاية إنك مقربة على الثلاثين ولسه قاعده لي زي البيت الوقف».

لم أحب أبدا هذا النوع من الأمهات رغم كثرته. ميزته الوحيدة أنه يدفع البشر إلى آخر نقطة لاحتمالهم فيخرجون قدما من إطار علبة السردين الجماعية حيث يرقد الكثير من البشر طبقات، بعضهم فوق بعض، لا تكاد تستطيع التمييز بين ملامح واحد وآخر. قانعين بحالهم دون تذمر. وتلك تحديدا هي النقطة التي كنت أنتظر وصول دنيا إليها.

مدت يدها إلى شريط الدواء المهدئ على «الكومود» جانبها. ابتلعت القرص الوردي وهي تفكر أن أكثر ما يزعجها في تلك الكوابيس هو انتهاء زيارات أبيها الليلية والذي كان يأتيها بين حين وآخر. لكن لحظة ظهور الوجوه الكالحة كانت هي نفس لحظة غيابه. تساءلت عما إذا كان ذلك إعلانا منه بالتخلي عنها.

«يعني كده خلاص مش ها أشوفك حتى في حلم. هو إنت كمان زعلان مني؟».

(٦)

وقد نقل لنا الحكيم تحوت ما سبق ورددته دوما «سيدة السماء»

«اسبح عكس التيار

باحثا عن مرفأ حر آمن.

أرس عليه

وستجد مرشدا يقود خطاك إلى بيت المعرفة.

هناك سترى بقلبك النور الباهر.

أما لو أغلقت على روحك في جسدك مقللا من شأنك وقلت:

«لا أمتلك المعرفة.. إني خائف.. لا أستطيع الصعود إلى السماء...»

فأي شأن لك بأتوم؟

أيقظ روحك النائمة».(١١)

«عارفة يا سارة لو أمي عرفت ممكن تلطم وتشق هدومها وتلم أمة لا إله إلا الله وتبقى جُرسة».

لم تكن دنيا قد أطلعت أحدا على زياراتها لطبيب نفسي إلا سارة التي أعربت منذ البداية عن عدم ارتياحها له. لم تتردد في التصريح وقتها «لا يا دنيا إنت مش محتاجة أبدا أدوية مضادة للاكتئاب. إنت متعرفيش المادة دي بتعمل إيه في الجهاز العصبي. فيه جدل حاد حول أعراضها الجانبية من عنف وميول انتحارية من أول التسعينيات. وفي أحسن الأحوال هتحولك مع الوقت لإنسانة متبلدة».

أطرقت دنيا لحظتها في صمت طويل وسرحت بعيدا.

كانت قد عزمت على البوح في أول لقاء لها بسارة بعد إلحاح الحلم الأخير. «بس حاجة صعبة قوي!». قلَّبت في صندوق ذكرياتها عن لحظة مشابهة لتلك التي تقدم علىها الآن. لم تحضرها واحدة. لقاءاتها بأحمد لم تتضمن أكثر من كلام عادي عن العمل ومشاريع لهما معا وبعض سعادة لم يعطها أي منهما اسما. حتى مع انتهاء جلساتها مع دكتور عزمي لم تشعر مرة براحة. هناك أشياء تخفيها عنه. هي أشياء لا تعرفها. لكنها تدرك جيدا كم هي مثقلة. لم تبح. وفي خلفية رأسها الآن يتردد صوت أمها الساخر «أهو ده اللي كان ناقص كمان. رايحة لواحدة بتفسر الأحلام. ما فاضلش بقى إلا قراية الكف وفتح المندل. يا خيبة أملي فيك. ييجي أبوك يشوف تربية إيديا».

دخلت دنيا إلى شرفة سارة الصغيرة التي تحبها في أيام الصيف. جلست والنيل تحتها يئن تحت طبقات التراب وعادم السيارات. عندما بدأت الحديث شعرت بالكلمات تخرج ثقيلة متباطئة وكان علىها أن تشدها شدا.

«أنا... أنا عايزة أتكلم معاك يا سارة كواحدة صاحبتي مش حد دي شغلته».

تملكها شعور بسخافة ما تقول ولم يكن بإمكانها استعادة الجملة بعد أن خرجت منها. ابتسمت سارة وقامت لتحضر أكواب الشاي الأخضر إلى الشرفة المطلة على جبل المقطم والقلعة البعيدة.

«وعايزه أعرف أنام كمان». أطرقت.

عادت سارة بأكواب الشاي وطبق الأرز الذي وضعته على حافة الشرفة في مكانه المعتاد كي تمر الحمامات ليلا وتلتقط بضع حبات. بدأت دنيا تحكي عن حلمها الأخير. انتفض جسدها بعنف الذكرى. انحنى ظهرها كأنه يميل عليها ليحميها من خطر وشيك بينما اشتبكت أصابع يدها والتفت بعضها حول بعض. بعد انتهائها سادت لحظة صمت ممزوجة بالترقب. جاءها صوت سارة بسؤال «عندك حلم تاني بيتكرر؟».

أخذ الأمر منها وهلة صمت أدركت خلالها أنها قد دُهِشَتْ لسؤال سارة. ولم تلبث أن دهشت لدهشتها. هل كانت تتوقع من سارة تفسيرا سهلا للحلم وحلولا بنفس القدر من السهولة. مرق الخاطر سريعا تاركا على وجهها ابتسامة متهكمة. عادت من شرودها.

«باحلم بعصافيري. كان عندي وأنا صغيرة قفص عصافير كنت بحبهم قوي. كنت أهرب للبلكونة بالليل من غير ماما ماتشوفني وأتكلم معاهم. وساعات كنت بعيَّط وأرتاح. كإنهم سامعين
و حاسين بيّ. من زمان وأنا بحلم بيهم على فترات. هو نفس الحلم حتى لو اتغيرت تفاصيل. بحلم إني داخلة البلكونة بالصدفة
و أتفاجأ بيهم. بافتكر إني كنت ناسياها من زمان وإن ما عندهمش ميه ولا أكل. بجري أجيب ميه وشوية حبوب. ممكن في حلم تاني ألاقي واحدًا منهم مات. «برعي» لما مات زعلت عليه جدا وصحيت لقيت دموع على المخدة. كنت مسمياه برعي علشان كان بلطجي
و لا يمكن يدخل دكر تاني القفص. آخر حلم فاكراه كويس علشان زوزو ماتت لكن لقيت البيض فقس أربع عصافير صغيريين».

أطرقت سارة. كانت تعرف أن اللحظة التي ستخبر دنيا فيها عن معنى الحلم هي نقطة فاصلة يصعب الرجوع منها. أما أنا فقد شعرت بدقات قلبي تتوالى. ولم لا... أليست هذه هي لحظات البهجة بالنسبة لي، إذ يصلني دبيب أقدامكم على الطريق القديم المهجور. سمعت صوت همسي في آذانهن.

فلتنسيا يا ابنتيّ طرق السلامة لأنها لا تحمل معرفة. ولتنسيا طرق الندامة لأن ليس لها وجود إلا في أذهان ساكني علب السردين الخائفين. ولتسيرا طريق من يذهب ليعود بالذهب. لا تسيئا فهمي لأن ذهبي ليس هو الذهب الذي تتزين به بعض النساء ليقلن للأخريات إنهنّ تملكن. ذهبي هو ما كان سيميائيو العصور الوسطى يدخلون كهوفهم من أجله. ولم يكونوا إلا أحفاد المصريين القدماء الذين أخذوا «علم الأسرار» عن «تحوت». ذاك العلم الذي نحت اسمه من اسم مصر/كيمي (Alchemy). هؤلاء الكهنة القدامى قضوا أعمارهم يبحثون في أسرار المادة. يقطرونها ويصهرونها ويمضون أيامهم والليالى أمام البوتقة في انتظار تجلِّي الذهب من التراب.
و لم يكن هذا إلا ذهب أرواحهم إذ تنصهر من حرارة بحثهم عن السر. هو الروح عندما تنقيها نار الألم ولهيب التجربة فتحترق الشوائب. تتساقط رمادا، ولا يبقى إلا ذهب الحقيقة في كامل نقائه.

رفعت سارة عينيها لتلتقيا بعينيّ دنيا الطفلتين في ترقبهما «أنا شايفة إن العصافير دي هي روحك الحرة يا دنيا. هي الجزء فيك اللي ممكن يطير ويوصل لسما مش كل الناس تقدر توصل لها».

تزايدت دقات قلبي مع كلمات سارة. تحولت إلى طفلة مشاكسة ترغب استكمال الجمل. لكنني أعرف أن تلك هي لحظة البدايات وأن المعرفة لا يمكن تلخيصها. وددت فقط لو أخبر دنيا عن انتمائها لهؤلاء الذين يمتلكون روح العصفور القادرة على معجزة الطيران حتى وهم في أماكنهم. وأن فيها كانت معجزة تتخلّق «بالرغم من سنوات القهر الطويلة لسه روحك البرية عايشة هناك في الضلمة بتدافع عن نفسها حتى لو من غير زاد». هكذا أخبرتها سارة وهي تشد الستار على ما رغبت قوله.

كان جزء من دنيا يستمع بشغف والجزء الآخر يرفض الخروج من علبة السردين التي لم تألف مأوى غيرها «روح برية! إزاي تمشي ضد المجتمع والناس وربنا!».

«بالعكس يا دنيا، الروح دي هي هبة ربنا لنا. اعرفي دنيا المستخبية جواك بتحب إيه وبتكره إيه وعايزة إيه من الدنيا».

مرت دنيا بلحظة تردد. لحظة أدركت فيها أنها كانت طوال الوقت منشغلة عن نفسها بصراعاتها مع أمها. تدافعت في ذهنها الذكريات واحدة إثر أخرى كأنها معقودة في خيط واحد شفاف يقودها إلى مكان بعينه. كم من أشياء فعلت لأن أمها لم تحب ذلك، وكم من أشياء تحبها استبعدتها حتى لا يبدو الأمر على أنه محاولة استرضاء. في كل ما فعلته وما لم تفعل لم تغفل عن سميحة لحظة واحدة. تتالت اللحظات الصغيرة أمام عينيها. لم تعد متأكدة أن رفضها الالتحاق بكلية الهندسة كان قرارا منها أم أنه كان كيدًا في الأم التي رغبت في دراسة «تأكّل عيش». أو أن العرسان الذين رفضتهم كانوا بالفعل يستحقون الرفض. وهل رفضت ارتداء الحجاب لأنها لم تقتنع، أم لأن تلك الفكرة كانت هوسا خاصا بأمها؟ «هو إنت هتعصي أوامر ربنا!». بدا الأمر مغريا. أن ترى دنيا فقط.

تركتها سارة مع صمتها واتجهت إلى غرفة المعيشة وهي تسأل «فيروز؟».

جاء دنيا الصوت الناعم في أغنية بلا كلمات:

يا ليلي ليلي...

يا ليلي يا ليل

ليلي ليلي..

.يا يا يا يا يا يا ليلي يا ليل

شردت دنيا في فضاء الأغنية. وسرحتُ أنا معها. أخذتُ أتأملها وقد ذهبت مع صمتها وشعرت برفرفة سعادة خفيفة في قلبي كنسمات رطبة تأتيني بطعم نداوة في قيظ صيف كان قد طال. أدركت أنني لم أكن في انتظار أكثر من تلك اللحظة. هذا الشرخ الرفيع في الجدار المحكم الذي قد يكون بداية لنهاياته. كانت دنيا تتذوق لحظة إدراك أولى ربما ما أدهشها فيها هو أنها لم تقاوم.

«يمكن علشان بافهم دلوقت إن كل اللي عملته قبل كده ماكانش أكتر من رد فعل».

وفي تلك اللحظة يبدو الفعل نفسه هو تلك التفاحة المتدلية من فرع شجرة بعيدة تذهبون إليها بكامل إرادتكم.

خائفة أنت يا ابنتي. لكنك سعيدة أيضا. هناك دبيب خافت يسري في دمك. كأن دهشة ممكنة ستأتيك على أجنحة عصافير صغيرة ملونة. لست مخطئة، هي ليست دهشة واحدة بل دهشات.

لا تخافي. تعالى إلى «الربة النائية» فأعود. أصحو فيك. اقتربي لأهدهدك وأضع رأسك الصغير فوق صدري الدافئ الذي أشعر الآن بتدفق اللبن الدافئ في شرايينه إلى حد الألم. سأطعمك وأغني لك أغانيَ ليلية. هي أغان ستغنيها لي عندما تعودين إلى نفسك مثلما غناها لي نساء ورجال منذ أعوام تعد بالآلاف، في أرض سمراء عاش فيها بشر أحبوا الجمال واحتفوا بالبهجة كإحدى هبات الآلهة...

شكرا لك يا جميلتي..

شكرا أنك أتيت..

وقد أحسنت صنعا بمجيئك..

كنت في حاجة إليك...

لقد جعلت الحب يشتعل في صدري

باركك الرب..

باركك الرب دوما..

إذ كانت الساعات تمتد بلا نهاية

في غيابك. (١٢)

(٧)

جمعت الكاهنة العجوز كل الكاهنات لأمر عاجل. قالت:

«إن كهنة آمون قد بدوا يلهون العباد بصغائر الأمور. يعطون أهمية للقرابين

ويخبرونهم ماذا يأكلون وكيف يعاشرون نساءهم.

تمسكوا بالقشرة وتركوا قلب الحقيقة

وما هذا إلا بداية..

لقد أسرَّت إليّ «سيدة الرؤى» باقتراب أزمان قاسية

تنقلب فيها الموازين فيصبح الحكيم أبلهَ والأبلهُ سيدَ الحكماء.

أزمان ستجعل من الكاهنة ساحرة تطبخ اللعنات على موقد الدماء،

تحول نفسها فأرًا وخنزيرًا،

تلعن النساء عندما يرفضن منحها مما لديهن من طعام

وتطارد الأزواج باللعنات...

سيرانا البشر بعيون خيالهم كهلات قبيحات نصرخ في الرياح أن تتحالف معنا

لنجفف الرجال كأعواد القش

ونطارد النوم بعيدا عن أعينهم حتى يتساقطون إعياءً أو جنونًا. (١٣)

سيتبرأ البشر من الشر ويرونه... فينا».

«سارة إنت فين. ممكن أعدي علىك. مش عارفة أروح فين؟».

جاء صوت نورا على الموبايل مهشما. كان واضحا لسارة أنها تبكي أو على الحافة. سألتها أن تمر علىها وقامت من جلستها أمام الكمبيوتر بعد أن أغلقت ملف بحث الساحرات. أسرعت بمهاتفة نديم «مش هاقدر أخرج معاك النهارده. لازم أشوف نورا».

جاءها صوته هادئا «مفيش مشكلة. أنا هاقابل البنوتة اللي حكيت لك علىها. هدى اللي كنت أعرفها قبل مانتقابل.عندها مشاكل مع أبوها ومحتاجة تتكلم معايا».

«إنت لسه ما قلتلهاش إنك بتحب؟».

«لأ يا سارة».

«ليه يا نديم؟».

«مش قادر أجرح مشاعرها وهي في الحالة دي. بس في أول فرصة مناسبة هاقول لها».

صمتت سارة.. فبادرها نديم «إنت قلقانة من ست أنا قلت لك إني ما حبتهاش يا سارة. إنت الوحيدة اللي حبيتها بعد كارول».

مرت لحظة صمت ثقيلة تبعتها بسؤال «كلِّمت الأولاد قريب؟».

«بكلمهم كتير. إنت عارفة دلوقت الأوضاع مقلقة. أنا مسافر لهم عموما الشهر الجاي. عندي سلسلة المحاضرات في جامعة بوسطن اللي كنت قلت لك علىها عن تاريخ مصر في الخمسين سنة الأخيرة».

أسرعت سارة بطرد أشباح القلق من رأسها وهاتفت حسام لتطلب منه الحضور. لكن «النهارده مباراة منتخب مصر مع المغرب في تصفيات كأس العالم يا أستاذة. مستقبل مصر في خطر».

ضحكت «وطبعا انت اتلكِّكت وسبت الشغل بدري».

«بمناسبة الشغل. من زمان ماسمعتش خبر يفرح».

«خير...!».

« النهارده كان فيه مظاهرة في «جنيف» مؤيدة للقضية الفلسطينية. بصي الماتش هيبتدي. أدخلي على الموقع واقري الخبر اللي كتبته».

أغلقت سارة التليفون وفتحت الإنترنت على الخبر الذي أشار إلى تظاهرة من أربعة آلاف من العرب والمسلمين والسويسريين نددت بالممارسات القمعية للجيش الإسرائيلي ضد المدنيين الفلسطينيين، وطالبت الحكومة السويسرية بقطع العلاقات مع إسرائيل وتشكيل لجنة تحقيق في انتهاكات حقوق الإنسان وتحديدا في مخيم «جنين». وأشار الخبر أيضا إلى عزم مجموعة من المنظمات اليهودية السويسرية تقديم المسئولين عن مظاهرة «برن» في إبريل ٢٠٠٢ للمحاكمة بسبب ما رأوه «ممارسات تعبر عن العداء للسامية» مثل حرق العلمين الإسرائيلي والأمريكي، وتشبيه شارون بهتلر والسياسة الإسرائيلية بالنازية.

ابتسمت سارة وهي تدخل على الإيميل وتبعث برسالة لحسام «يا حرام الإسرائيليين طالبين رد شرف. غلابة يا عين أمهم».

رنَّ جرس الباب في السابعة مساء. دخلت دنيا تسبقها ضحكتها «جبت سندوتشات فول وطعمية. أنا عارفة إن البيت ده مافيهوش غير جبنة ونسكافيه».

احتضنتها سارة بعد أن أخذت منها الكيس ضاحكة «يا ساتر على الفضايح. اللي مش عاجبه ييجي يطبخ».

اقتربت دنيا من نورا فلاحظت تجهمها. تراجعت ضحكتها وهي تتخذ مكانا جانبها على الأرض. لحقت بهما سارة وجلس ثلاثتهن صامتات. حدقت نورا إلى الفراغ وقد قطّبت جبينها وسرحت بعيدا. تبادلت سارة ودّنيا النظرات القلقة. قامت سارة إلى المطبخ وعادت بزجاجات البيرة وطبق السندوتشات. اقتربت بتوجس «فيه إيه يا نورا. مالك؟»

«خلاص مش قادرة أستحمل. مش كفاية كل يوم خناقة. لأ ده جالى الشغل النهارده، البيه بيعمل علىّ كبسة. ماكنتش على مكتبي. تتصوروا يعمل إيه! يدخل علىّ عند المدير والسكرتيرة بتجري وراه. كان عندنا اجتماع والدنيا مقلوبة. الشركة بتفلِّس ويا إما أسيب الشغل أو أقبل نص المرتب، نسيت الهم اللي أنا فيه وكنت في نص هدومي. طبعا قلت للمدير إن ماما تعبت وكان لازم ييجي يبلغني. كان شكلي أكيد كدابة بس هاعمل إيه. لما روَّحنا دبينا خناقة. تخيلوا يعمل إيه بعدها! راح لأخويا بيته وحكى له إن كان لي علاقات. قالهم ليه بالاسم».

انهمرت دموعها على وجنتين قد تأكد شحوبهما وذبول الوجه الأسمر المستدير الخالى من أي ماكياج. ران الصمت ثقيلا على المكان. كان واضحا أن العلاقة قد انتهت، وأنها مسألة أيام ليس أكثر. ولم يكن في جعبتي أي من الألاعيب. بل دعوني أعترف أنني لم أتعب نفسي في التفكير لأنني كنت أعتقد أن في نهاية تلك العلاقة بشائر بدايات لنورا. لذلك تنحَّيت جانبا ووقفت أتفرج في صمت. كنت حزينة لحزنها، لكن الزمن قد علمني ألا أندهش بسهولة. اقتربت سارة من نورا وأخذتها في حضنها. أما دنيا، التي أرادت كسر حاجز الصمت في الغرفة، فقد خرج صوتها وقد حمل شبها لصوت أمها «إزاي توقعت من راجل يا نورا، هو في النهاية شرقي، إنه يسامح علاقات سابقة ليك!».

ما إن خرجت الجملة منها حتى أدركت أن تلك لم تكن الكلمات المناسبة في هذا التوقيت. كعادتها عندما تحاول إصلاح الأشياء فينتهي بها الأمر إلى الضرب على الأوتار الخطأ. وقبل أن تفكر في إصلاح ما قالت كانت نبرة نورا قد علت في انفعال «أنا قلت له بمزاجي لإني مش هاكدب ولإني مش خايفة من حد ولإني بحبه وبحترمه. أو كنت. وبعدين يعني إيه راجل شرقي وراجل غربي. يعني رجالتنا عجينة والتانيين عجينة تانية!».

خرجت سارة عن صمتها «نورا الازدواجيات موجودة عند كل البشر. لكن الأمر بيتوقف على درجة وعي كل واحد وقدرته على مراجعة مواقفه... والأهم إذا كان المجتمع بيشجع المراجعات دي ولاّ- زي ثقافتنا كده- الراجل شايف نفسه زي الفل ومش محتاج يراجع أفكاره».

«يعني إنت يا سارة كذبت على نديم!».

«لأ. مش بس علشان هو راجل تقدمي، لكن لإني مش هادخل علاقة وأنا بكدب. كفاية مع راجل اتجوزته عشر سنين ماكانش عندي غير الكدب».

طفا الصمت مرة أخرى على سطح المكان وأخذ كلاً منهن في طريق. كانت نورا تحاول إنكار أنها قد خدعت؛ وهي التي تظن نفسها رأت وعرفت عن العالم والبشر الكثير. كما أنها أحبته ولم يكن سهلا مع لحظة الغدر أن تقرر التوقف عن الحب. لكن الوقت لاشك سيحضر لك في يده التصديق ومعه سيذوي الحب على مهل. وكان باكرا جدا في تلك اللحظة أن تفهمي أنه قد فتح لك طريقا - للشراب والسجائر الملفوفة - سيحتاج منك حكمة حتى تأخذيه في المسارات الصحيحة. وتذكرت سارة نديم بامتنان أنه لم يخذلها كما توقعت أن يحدث منذ الأيام الأولى لعلاقتهما. كانت في لحظات كتلك تشعر بفيض أمان لوجوده في حياتها. فابتسمتُ في مرارة. وذهبت دنيا إلى أحمد وتساءلت «هو أنا أعرف الراجل ده كويس!». كيف تعرفينه يا صغيرة وأنت لم تتهجّي أبجديتك بعد. ألم تفهمي أن أحلامك والكوابيس تدفع بك إلى سكة لا تزال طويلة ومعتمة، وليس في يدك أي قنديل ينير الطريق! على الأقل ليس بعد.

ثم إن الكثير سيحدث في الأيام القادمة أيتها الكاهنات، المبتدئات منكن واللاتي مررن بطقوس أولى. ترى من ستصمد منكن ومن ستعود أدراجها! هكذا هو الطريق. صعب ومليء بالاختبارات. ومع كل اختبار منها هناك اختيار. إما العودة للوراء إلى علبة السردين - وهو موت - وإما التقدم رغم النزيف. وهذا موت أيضا لكنه ذاك الموت الذي يفتح أبواب حيوات أخرى. ولهذا أنا موجودة في الحكاية ومحرضة على أجزاء منها. أنا -«البقرة الذهبية»- راعية الموت المؤدي إلى الحياة الحقيقية. أقيم في الجبل الغربي، أنتظر الذين عبروا من بوابات الحكمة وأعمِّدهم أبناء للحياة. أما عن المدهشات فلا يمكنني الحديث.

أدركت أنني قد سرحت بأفكاري بعيدا عندما أفاقتني ضحكة سارة التي هشمت حوائط الصمت الزجاجية. نظرنا إلـها جميعا وقبل أن تتساءل نورا أو دنيا كانت تتطوع بالإجابة وهي لا تزال تضحك.

«أصلي بصِّيت علنا إحنا التلاتة وإحنا قاعدين على الأرض راسنا في راس بعض على ضوء شمعة، شفتنا بالظبط الساحرات التلاتة بتوع ماكبث طالعين له في الغابة بالليل. ماتعيَّطيش يابنتي. بيني وبينك إحنا نصرع أي راجل».

ضحكت نورا رغم الدموع واستمرت ضحكات دنيا العالية تتردد. فقد تصورت المشهد ورأت تطابقه. وبدأت نورا وسارة تضحكان على ضحك دنيا. نظرت سارة إلى نورا «أيوه كده اضحكي. قطيعة تقطع الرجالة والنكد».

كان تصورهن لأنفسهن على أنهن الثلاث ساحرات اللاتي خرجن إلى ماكبث في الغابة وأطلقن نبوءاتهن له بالملك والقوة المطلقة مضحكا. لكنه أيضا لم يخل من حقيقة. أخذتني المزحة إلى تأمل شكسبير ساحر الكلمات وأحد مالكي مفاتيح «بيت الأسرار»، والذي أخذ العهد من «تحوت»، وتذكرت كيف رسم الساحرات كهلات قبيحات منذرات بالشر. كان بالتأكيد يلعب على تصور شعبي لهن في وقت كان عالمه، وعلى مدى قرون ثلاثة، يحرقهن ومن يظنهم سحرة وساحرات بالملايين. كان معظمهم من النساء.

نعم كن ساحرات ولكن لسن بقبح ساحرات «ماكبث»، ولم يكن يلعبن ألعاب خالق تلك الحكاية. لم يكن هناك من مكان لأنصاف حقائق. كن فقط أنفسهن أو كافحن كي يكن كذلك.

كانت كل منهن كاهنة أو ستكون. والكاهنة ساحرة يقرأ قلبها المستقبل مثلما يعرف القديم ويحفظه في بيت للأسرار، مثل ذلك الذي طالما احتواه المعبد واحتوى هو كل راغبي المعرفة من كهنة وكاهنات. هل تدهشكم كلماتي. دعوني أخبركم إذن أنني أعرف أن المعابد القديمة في أيامكم لم تعد إلا أطلالا تجتهدون في فك شفرات أسرارها. وما كان المصري القديم ليحفر الأسرار على حوائط من حجر أو رخام ويتركها لأيدي العابرين اللاهين في جهلهم. حتى في تلك الأيام القديمة لم تكن الأسرار مباحة للجميع وإلا لم تعد سرا. وللسر ثمن. والثمن طريق. والطريق وعر إلا على هؤلاء الذين لا يرون له بديلا. هؤلاء الذين يدفعون الثمن راضين. لم تعد المعابد القديمة إلا أطلالا. تماما كما توقع «تحوت»، سيد الكلمة، منذ زمن بعيد:

آه يا مصر

لن يبقى من دينك سوى لغو فارغ

ولن يلقى تصديقا حتى من أبنائك. (١٤)

لكن أول الأسرار هو أن المعبد قد زحف إلى القلب وضرب جذورا وأعمدة وحفر نقوشا فيها الحكمة المنسية. ولم يختلف معبد القلب عن المعابد القديمة في الكثير. لا تزال له نفس طقوس العبور في الممرات والسراديب المعتمة. لا تزال الأفعى حامية الكنز صامدة على البوابات.
و لا تزال الآلهة تسكن قلبه يسكبون البركة فقط لمن يصلون.

الجزء الثاني
جمر أحمر

الجزء الثاني
جمرأحمر

(١)

استدارت البهية فظهر وجهها الأسود

ارتعشت القلوب وردد البشر ابتهالاتهم
لـ «سيدة الرعد»

«مليكتي. أيتها البقرة البرية الجموح،

لقد تابعت هجومك كعاصفة زاعقة،

تهدرين برعد فاق صوت «ست»

تعولين بصوت أعلى من صراخ الرياح الشيطانية،

مليكتي إن الآلهة الكبار فرت أمام وجهك الغضوب،

لم ترفع عينا إلى جبينك المهيب فما من سبيل لتهدئة جنانك الثائر.

مليكتي أنت الجذلى الطروب

ولكن يا ابنة «رع» غضب قلبك بلا حدود».(١)

«آآآآآآآآه» طويـلة تخللتها شهقات بكاء عنيفة ردد صداها فضاء ليل القاهرة، ما إن دخلت سارة سيارتها وأدارتها خروجا من شوارع المعادي الداخلية بعد عودتها من زيارة لأبيها. كانت قد ضغطت على نفسها بشده على مدار ساعتي الزيارة في محاولات لتمثل شبح ابتسامة على شفتيها.

لو لم يكن اليوم هو ذكرى وفاة أمها ما ظهرت أمام أبيها. تعرف أنه بنظرة واحدة من طرف عينه سيرى دموعها المكبوتة. شغلت نفسها بجاكلين ونازلي وعايدة صاحبات أمها اللاتي دأبن على التجمع في هذا اليوم من كل عام. ابتسمت لهن رغم أنها لم تسمع إلا أطراف كلمات متناثرة من حديثهن مع بهاء. ذكريات وحكايات سمعتها بالتأكيد من قبل، لكنها لم تفقد الاهتمام بسماعها أبدا إلا اليوم. ودت لو عادت إلى بيتها فور ذهابهن لكن مكالمة تليفونية من أخيها استبقتها. تعرف جيدا أن أيمن لم يكن لينسى هذا اليوم رغم مسافات الزمن والجغرافيا. تأملت وجه بهاء الطيب وهو يمزح مع أيمن وتتعالى ضحكاته «بتحب يابانية. الله الله. ده شعب جميل وثقافة متفردة. لكن أنا بقى مُصر أحب واحدة هندية. إيه يا ولد مش مصدقني!».

ظلت على ابتسامتها وهي تتلقى السماعة.

«سارة يا قطة. إزيك حبيبتي».

دفع بها صوت أيمن الدافئ إلى موجة اشتياق إلى حضنه. ودفعت موجة الاشتياق بالدموع إلى عينيها، لكنها أدارت وجهها بعيدا عن بهاء وهي تستجمع كل إرادتها لتظل على تماسكها. فكرت أن في حال خيانة الدموع ستعزوها إلى فقد كاتي. لكنه بالتأكيد سيكون تصرفا حقيرا. أنهت المكالمة بتذكير أيمن أن يرسل ما طلبت من كتب مع خالتهما صوفي القادمة خلال يومين. لحظات حاولت سارة أثناءها أن تهدئ من دقات قلبها وتتنفس بهدوء وقد تشاغلت عن أبيها بغسل أكواب الشاي والقهوة. عادت من المطبخ وقد أمسكت بحقيبتها معلنة نية الذهاب. لكن أباها ذكرها كعادته «طبعا ما أكلتيش حاجة النهارده! نتعشَّى مع بعض».

على طاولة السفرة المستديرة قلَّبت في الكتاب المفتوح على منتصفه تقريبا: «فريتسيوف شوان. الوحدة المتعالية للأديان! مين شوان يا دادي».

«الشيخ عيسى نور الدين. من أعظم ميتافيزيقيي القرن العشرين. توفي من سنوات قليلة. ١٩٩٨».

علقت وهي تستكمل قراءة الكلمة على الغلاف الخلفي «سويسري! أنا عمري ماسمعت عنه».

«شأن كل المفكرين العظام. مايعرفهمش إلا القليل في أزمانهم وعبقريتهم لا تتجلى إلا مع الزمن. لكن هو كمان كان عارف إنه بيتكلم مع الصفوة فقط».

«ابتسمت لتلك اللمعة في عيني أبيها «بقي لي كتير مشفتكش منفعل ومتحمس كده!».

«بصي إزاي يا سارة بيستخلص من واقع بسيط وبديهي حقيقة ميتافيزيقية كبرى. الإنسان هو الكائن الوحيد في المملكة الحيوانية السائر على قدمين».

«طبعا...!».

«كل الحيوانات بتدور في نطاق أفقي سواء كانت بتزحف أو على أربع، بتطير أو بتسبح. الإنسان هو الوحيد اللي بيمتلك بُعد رأسي. أي إنه متطلع بحكم قامته المفرودة إلى السماء، إلى الماوراء، وإذا كانت كل الحكمة التراثية بتُجمع على أن الله خلق الإنسان على صورته أو نفخ فيه من روحه، إذن يحق لنا الربط بين تفرد الإنسان بالوقوف وبين الحقيقة الميتافيزيقية القائلة بأن المطلق (بحكم التعريف) هو القائم بذاته، الصفة اللي الأديان بتعبر عنها بمصطلح «القيومية»».

أطرقت سارة متفكرة «الفكرة منطقية. بس فهمها أو بالأصح استيعابها صعب شوية!».

«يعني شكل الجسد الإنساني ما هو إلا انعكاس لحقيقة علوية».

«أنا بشوف مثلا إن ده رمز منطبق على الشجر اللي جذعه في عمق الأرض وباصص دايما لفوق. رابط بين الأرض والسما! لما كنت صغيرة وباروح الغابة في «ويلز» كنت متأكدة إن الأشجار بتكلم ربنا، بس أنا مش فاهمة لغتها».

«ومش عايزة نفس الفكرة يعكسها البشر! عموما لازم تقري نور الدين. هيفتح لك أبوابًا جميلة».

هزَّت رأسها موافقة وفضول داخلها يتنامى رغم الأسى الذي أثقل قلبها. كم تحب هؤلاء القادرين على قراءة الأسرار من ألواح الحياة العادية. هم سحرة بامتياز لأنهم يمتلكون تلك العين التي تجلو الأشياء فتلمع
و يبرق ذهبها، وقد كانت منذ لحظات مجرد موجودات كالحة باردة بلا مغزى. كاتي وهي تحدث الزهور في حديقة البيت. صوفي وهي تلتقط في لوحة نظرة طفل صغير أمام البحر. بهاء يتحدث عن كتاب. لو أحصت ما تعرف من سحرة! لكنها لملمت حاجياتها وهي مطرقة. طبعت على رأس بهاء قبلة سريعة كأنها لا تريده أن يفك شفرة الألم من مجرد لمسة. تلاقت أعينهما للحظة خاطفة تبعها بهاء بلمسة على وجنتها «خللي بالك على نفسك يا قطة». سرت رعشة في جسدها استمرت معها بعد إغلاق باب البيت

وراءها. ما إن أغلقت باب السيارة وأدارت الموتور حتى تدفق شلال الدمع المحتبس الممتزج بآهات متقطعة حتى كادت ألا تري الطريق من اندفاع سيل الدموع من عينيها.

مثل كل الحكايا ذات البدايات السعيدة لا بد أن تأتي ما اعتدتم أن تسمونه نقطة النهايات وهي في الأغلب حزينة. لكن هل فكرتم يوما إن نقطة النهايات تلك قد تكون هي نفس نقطة البدايات؟ هي أولى الخطوات نحو عتمة الداخل بعيدا عن أضواء الخارج الباهرة التي تغشى أعينكم فتفوتكم الحقيقة الراقدة في القاع في هدوء منذ خلقتم ـ أنتم البشر ـ ونفخ فيكم الواحد الخفي من روحه. راقدة هي في عمق الظلمة، بعيدا جدا، إلا على هؤلاء الذين يخطون تجاهها يقاومون خوفهم من تنين ذي رؤوس سبع قد ينفث نارا في وجوههم. ولن أدعي ـ كي أبسط المسائل علكم ـ أن التنين خرافة من صنع خوفكم. هو موجود بالفعل كما الأفعى ربة الحكمة وحاميتها من أيدي العابثين.

من السهل علكم أن تصدقوا أن ذهاب نديم هو إحدى النهايات الحزينة. حتى سارة نفسها صدقت ذلك في ذهول المفاجأة. بعينين زائغتين وقلب لم يستوعب بعد ما حدث، أبلغت حسام «بالبساطة دي مشي. أيوه مشي. تصدق يا حسام!».

وحسام الذي كان قد أحب من نديم حالة البهجة التي أضفاها على سارة بحث عن كلمات ولم يجد. أخذ سارة في حضنه وبدأ يجفف دموعها «وبعدين معاك بقى. إنت عايزة ميزانية مخصوص للكلينكس ولاّ إيه. إنت بتعمليه ساندوتشات يا ولية!».

ضحكت من بين نهنهاتها فهدهدها وبدأ يغني «دخل الشتا وقفل البيبان ع البيوت، وجعل شعاع الشمس خيط عنكبوت».

جاءه صوتها خفيضا «وحاجات كتير بتموت في ليل الشتا».

فارتفع صوته «لكن حاجات أكتر بترفض تموت».

مرت لحظة صمت ثم... «بس أنا قلبي حاسس إنك ظالمة نديم».

رفعت إليه سارة عينين منتفختين ووجها متسائلا فاستطرد «يا بنتي أنا حاسس إن السبب ورا اختفائه سفر للعراق. يعني مع تهديدات أمريكا بالحرب، وجوده ممكن يردعهم شوية. أستاذ تاريخ ومعاه الجنسية الأمريكية و...».

«دمك تقيل يا حسام».

«عايزة أصدق بس يا صوفي علشان أرتاح. ونفسي أفهم ليه!».

في طريق العودة من المطار تأملت صوفي شحوب وجه سارة ومرارة لم تعهدها في الطفلة التي لم تمل مطاردة الفراشات على التل القريب من بيت أمها في «بادستو»، ولا الرقاد على ظهرها على أرض غابة «أندرتاون» القريبة بالساعات، ثم العودة محمَّلة بأحجار غريبة وأوراق شجر جافة وبعض زهور الأوركيد الأرجوانية وابتسامة المكتشفين. لم تتوقف سارة عن ترديد جملة واحدة أثناء قيادتها على طول طريق صلاح سالم وحتى المعادي «عايزة أصدق بس!».

في صمتها تأملت صوفي تقلبات سارة بين حزن وغضب ومرارة وهي تجاهد في تتبع مسيرة هذيانها علها تلتقط بعض الجمل المفيدة. تقافزت سارة بين تأمل اختلافه في الشهور الأخيرة والأسئلة. كانت قد لاحظت غياب شيء ما. حرارة ربما، لهفة،أم هو فضول قد خبت جذوته. لكنها كانت مصممة على عدم التصديق. التفتت إلى خالتها،

«بس كدب على يا صوفي. سألته أكتر من مرة إنت زعلان مني؟ فيه ست تانية؟ يقول لي لأ دي مشاكل في الجامعة وولاده اللي

في أمريكا. أمي أصلها عيانة وخايف تموت. وكنت بصدقه».

مسحت صوفي رأسها وقد اكتسى وجهها بالحنان «علشان كنت عايزة تصدقي يا سارة».

اشتعل صوت سارة بلهيب الغضب «أيوه كنت عايزة أصدق إنه مش ممكن يكون ماشي خلاص وبالبساطة دي و... ليه!».

خبت النيران فجأة فهبطت سارة سريعا إلى منطقة دفء. ارتجف صوتها ببحة دموع تتأهب للمجيء «كان لسه عندنا حاجات كتير نعملها مع بعض. أفلام هنشوفها وكتب هنقراها وصناديق قديمة لينا قلنا هنفتحها ونشوف عقدنا ومشاكلنا ونبقى مع بعض وإحنا بنحلها. كانت لسه دنيتنا واسعة».

ران صمت قصير. نظرت صوفي إلى النيل عن يمينها. لا يزال جميلا وحزينا كما كان دوما. لكن حزنه هذه الأيام يبدو ثقيلا. عبر طيف جوناثان برأسها. صدمة رحيله. شهور المستشفى ومرارة الأدوية وغيابها عن تفاصيل الحياة. لا تزال غير متأكدة رغم انقضاء كل هذه السنوات إن كانت حالة الغياب هذه ـحين عاد عقلها إلى نقطة البدايات بلا ذاكرة ولا ألمـ ترجع للأدوية التي تجرعتها بلا مقاومة أم أن تلك كانت حالتها هي. لكن سارة بالتأكيد أقوى منها عندئذ.

«كذّاب».

عاد الألم في صوت سارة يحرق صوفي في منطقة في القلب. استكملت سارة حديثها والأسانسير يصعد بهما الطوابق الثلاثين وبقيت صوفي على صمتها. تستطيع أن تفهم تماما أن أكثر ما يجرح في أوقات كتلك ومع نساء مثلها ومثل سارة هو الكذب.سبق أن أخبرتها سارة أكثر من مرة كيف رأته دوما نبيلا وقادرا على الصدق. تعرف صوفي أن في لحظات كتلك التي تمر بها سارة الآن يصبح الصدق موتًا للآخر. لكنه موت سريع واضح. ضربة سكين واحدة بدلا من البقاء معلقين وحبل خشن سميك حول رقابكم يرفض الاقتراب ووضع نهاية للمشهد. تعرف صوفي أن الأمر لسارة ليس مجرد قلب مكسور. كان الخذلان الأكبر فيه. في تصوراتها النبيلة عنه. استكملت سارة الحكي عن كيف ماتت تلك الصورة، في كل مرة كان ذلك الصوت الغريب يأتيها على الموبايل يطلب منها «ببجاحة وبرود يا صوفي عمري ما قدرت أفهم جابهم منين» أن يظلا صديقين. كان إصراره غير مفهوم لها ولا لصوفي. يردد نفس المطلب «ليه مش عايزانا نفضل أصحاب يا سارة. مش لازم نخسر بعض. إحنا برضه ناس متحضرين».

لم تكن تلك الكلمات إلا زيتا يسكبه نديم بدون قصد فوق نار لا يعرف مداها. تنفث «سخمت» لهبا من عينيها ومن فمها. تلتفت إلى خالتها بعينين محمرَّتين «قلت له مين اللي قال لك إنى متحضرة. أنا ملقيتش اللي يربيني».

بعد تلك المكالمة أغلقت سارة الموبايل وعادت إلى البكاء كطفلة تتذوق مر الألم للمرة الأولى. الآن تعود الدموع.

جذبتها صوفي إلى حضن فيه من رائحة أمها «اهدي بس يا سارة. أكيد كان فيه مشاكل وإنت مش واخدة بالك. مش لازم مشاكل بينكم. ممكن مشاكل عنده هو».

رفعت سارة وجهها المبلل إلى صوفي «أحلف لك إني مش فاهمة. أيوه حسيته بيبعد. بس هو ضللني. كل ما كنت أسأله إن كنت أنا جزءًا من الحالة دي كان بينفي. صدقته».

«بس ليه إصراره إنكم تكونوا أصحاب. مش شيء إنساني إنه يبقّي ست في قلب الحب جنبه وهو اللي رفضها. يمكن قبولك الصداقة معناه إنك مسامحة؟».

«صوفي البني آدم بتاع الأيام الأخيرة حد قاسي. حد ماعرفوش. أنا لما سبت عمرو، اختفيت من حياته. راجل لسه بيحبني وجرحته بالشكل ده مش ممكن أفضل قدامه أعذبه».

صمتت سارة. انسحبت إلى داخلها وقد غمرتها الدهشة من الحياة ومن نفسها. كانت تدرك أن اللحظة التي شعرت معه بالأمان تزامنت مع قراره بالرحيل. في إحدى مرات خلوتها بي في أيام الألم الأولى أخبرتني وهي تجز أسنانها «الحياة بتديني درس

ماسلمش رقبتي لحد أبدا».

التزمت الصمت. لم يكن بإمكاني أن أخبرها أن الطريق لا يزال طويلا قبل أن تدرك أن الجملة في حد ذاتها خاطئة والبحث عن مرفأ له أماكن أخرى.

كانت الشمس الغاربة قد ألقت بظلال حمراء باهتة على صفحة النيل الرمادية الساكنة، وصوفي ترشف القهوة التركي من فنجان من الخزف البني، وتتأمل تداخل درجات البرتقالى والقرمزي قبل حلول الأسود. علىها أن تصر على مجيء سارة إلىها في «سان فرانسيسكو» في أقرب وقت. لا شك أنها بحاجة إلى تغيير مكان كما أنها تعرف عشق سارة للمحيط. مجرد الإقامة في بيت يطل على الماء، والذهاب مع ميريت في جولاتها الإرشادية للمجموعات التي ترغب التعرف على الحياة البرية في الغابات و....

«تعرف تنسى تليفوني وتنسى إني كنت في حياتك وإني ممكن أكون منحتك أي ذكرى حلوة أو علمتك أي حاجة زي ما بتقول».

عادت صوفي من شرودها على صوت سارة الآتي من غرفة نومها فانتفضت من جلستها.

اقتربت بهدوء من الغرفة لتجد سارة تقذف بالموبايل من يدها وهي متربعة فوق سريرها. بدا وجهها كتمثال من رخام قد احتفظ على مر القرون بتلك النظرة الذاهلة التي تجمدت في العينين. جلست بجانبها ولمست يدها بخفة. لم تتحرك سارة. جذبتها صوفي إلى حضنها حيث استكان الجسد المتشنج لوهلة قصيرة ثم خرج صوتها شاحبا «جسمي سخن يا صوفي؟».

بعد مرور شهر على توقف مكالماته لها، وتراجع إصراره بعض الشيء عن طلب الصداقة يأتيها اليوم صوته هادئا وربما راغبا في البوح كأنما لصديقة قديمة «ما تتصوريش يا سارة بافتكرك كتير إزاي النومين دول. كنت معايا في معرض لفنان هولندي في «كارميل» كالفورنيا. كان نفسي تشوفي استخدم الموتيفات الفرعونية إزاي. مش دول أصحابك برضه».

كان جزء منها يستمع لكلماته والآخر يفكر أن ذلك الرجل، مهما كان اسمه في هذه اللحظة، يتحدث عنها إلىها كذكرى ميت عزيز، وهي المستمعة الوحيدة وأشجار الحب الوارفة تنعي الغياب. تأججت جذوة الغضب في لحظة وعلا لهيبها إلى أطراف السماء. ازدادت حدة النيران و«سخمت» تمرق في البيوت والحقول بحثا عن دماء تهدئ منها. «تأججت لبدتها وغدا ظهرها بلون الدم، وتوهج وجهها كلهيب الشمس واضطرمت عيناها وأظلمت الصحراء من الغبار، بينما كانت تضرب الأرض بذيلها». أخذت تقتل وتدور في أرجاء الأرض بحثا عن دماء جديدة. ولم يكن بيد أبي «رع» إلا الخديعة حتى يوقف نزيفا كاد أن يقضى على كل البشر. أمر بإحضار رسل يعدون كالظل، وطلب منهم الإسراع إلى «فيلة» ليحضروا من هناك نبات الكركديه.

«فلتطحنوه جيدا ولتخلطوه بسبعة آلاف دنا من الجعة. أريد أن يبدو مثل دماء البشر تماما. وأغرقوا به الحقول».

انطلت الخدعة علىّ. في هيجاني.. رأيت دماء البشر تغرق الأخضر واليابس إلى ما لانهاية. فرحت وجريت لأشرب. عببت من الشراب ثملت ووقعت فاقدة للوعي.. فعاش البشر.

كيف أجعلك تفقدين الوعي يا سارة. لقد شربت دماء الرجل الذي تحبين حتى لا يتبقى منه قطرة واحدة. شربت ولا يزال غضبك بركانا لا يهدأ له فوران.

أراك تبكين دما يتساقط على جوانب فمك، ومن عينيك كلما هاجمتك بشراسة لحظاتكما معا. في خلوتك معي بعد أن تنام صوفي تستديرين إليّ. تحكين عن عينين يترقرق فيهما الدمع وهو يعلن «محتاجلك يا سارة». عن يدين تمتدان من خلفك تحوطانك وأنفاسا تدغدغ رقبتك وأنتما تنظران إلى هرم بعيد من خلف نافذة شتوية. عن قبلة أولي على شاطئ محيط مظلم تشهد علىها مراكب راسية ونصف قمر وأضواء بيت جدتك من بعيد. تحكين عن ضحكات يرددها ليل القاهرة وأضواء معبد الأقصر الخافتة ليلا. عن فم يميل على قدمك المستكينة على الأريكة يقبلها «إوعى تقولي لحد إني بُست رجلك». وعن شهقة موت تسري في جسديكما كصعقة برق فتنهال دموع بطعم العشق. ترفعين إليّ عينين زائغتين «معقولة اللحظات دي كانت كذب!». عرق جسدين وقت الحب!

طعم ملح على شفتيك! ومذاق دموع فوق صدره! تتوالى أسئلتك كالصفعات على وجهي.

أرى اللحظات أنصال سكاكين تلاحقك أينما التفت فتتغير هيئتك من كاهنة «حتحور» إلى لبؤة منتقمة لن ترويها إلا الدماء. أرتبك. أبكي بكاءك. أقترب لآخذك في حضني في رحم معتم لتنامي فلا تشعرين ألما، وتفيقين على بوابات المعبد. لكنك تدفعينني بعيدا. ترفسين بقدميك. تمزقين ملابسك حدادا عليه. على قلبك النازف وكرامتك المنسكبة بلون الدم على أرصفة غريبة. أفتح أبواب صبري وأعود لأقترب منك فتصرخين في وجهي ويلسعني فحيح كلماتك

«إنت عارفة أنا لما باحب بأدي قد إيه، وبتبقى روحي واسعة إزاي! بطلي تقوليلي سامحي. لو مت مش هسامحه وهتفضل روحي تعذبه لحد مايموت. هابقى ساحرة بجد. هاحرقه. هابعت وراه غضبي يطارده في كل مكان ويصحيه من نومه».

أنظر إليك وحسرة تأكلني. لِمَ يا سارة، من بين كل الناس، تشعرينني بالعجز. تصفقين الباب في وجهي. تبقين وحدك مع صوت عويلك القاسي. أبتعد عنك. أسرع إلى تلك البقعة التي أحبها في قلبك حيث يجري نيل النوبة الأزرق المحوط ل-«فيلة». هناك سألقي بجسدي المنهك فوق الموجات الناعمة. سأرتفع إلى حافة النون وأهبط بهدوء إلى قلبها. ستسلمني نون إلى نون أخرى في متتالية تهدهد عقلي المتعب. يشتد احتياجي إلى قدر من الماء الصافي وبعض السلام في هذه اللحظة. ربما تسعفني هناك فكرة جديدة.

في أثناء انسحابي لم يدر ذهني إلا في إطار فكرة واحدة. لقد وقف «رع» بيني وبيني يا سارة. فعاش البشر. كيف أقف بينك وبين نفسك لتعيشي أنت.

أفقدني «رع» الوعي. كيف أفقدك إياه يا «سا» «رع»... يا ابنة رع.

(٢)

رفعت نفر- عنخ عينيها النجلاوين إلى العجوز تي

قالت «كل بهجاتي ترقد في القبر معه».

أضاءت العينان المبتسمتان الوجه ذا التجاعيد العميقة

كقنديلين من زيت وهَّاج.

قالت تي «يا ابنتي الألم أيضا
- مع مسحة قدم -

يغدو جميلا.

هذا ما أعرف يقينا

فقد ذقت منذ أمد بعيد

طعم القلب المكسور».(٢)

سرى الفزع إلى نورا وحسام ودنيا من حالة سارة. دأبت دنيا على مهاتفتها كل يوم قبل انتهاء اليوم الدراسي. يأتيها صوت سارة كإسفنجة قد تشربت دموعا كثيرة فثقلت ولم يعد بها مكان لامتصاص المزيد. تنهي دنيا يومها في المدرسة وتسرع إليها. تدخل إلى المطبخ لتعد طبقا من السلاطة وتحضر قطعة جبن «هو إنت عمرك ما بتطبخي يا سارة. بتاكلي إيه يا بنتي!».

وتبدأ الثرثرة حول أشياء صغيرة. تتابعها بما يحدث من صراعات بين المدرسين. وتضحكها على العريس الذي أصرت أمها أن تراه بالأمس لكنه قرر أن ينسى الموضوع عندما عرف أنها فلسطينية.

«طبعا خير وبركة يا أختي إنه قرر يمشي. بس كنت عايزة أقوله يا بني أنا عمري ما شفت فلسطين. أنا كبيرها عندي أخرج في مظاهرة ضد الطحن اللي شغال في فلسطين ولاّ حرب أمريكا المزعومة ضد العراق أو أروح أشتغل في «ملتقى المرأة».

ثم شف صوتها عن غيمة مرارة خفيفة «يا ريت كان في إيدي أكتر!».

تبتسم سارة «وهو ده قليل! هو عايز يتجوز مش يتقبض عليه. بمناسبة الحرب ضد العراق شفتي المظاهرات في أوروبا وأمريكا ضد سياسة بوش وبلير. الحركات المناهضة للحرب ضد العراق أعلنت ١٥فبراير يوم التضامن بين يونايتد فوربس والحركات الأخرى المناهضة للحرب».

«أيوه شفت وفرحت وشفت كمان إن مظاهرة السيدة عائشة اللي كان فيه حكم قضائي بخروجها اتمنعت».

«لكن مظاهرة السيدة زينب تمت وفي الجامعة الدنيا والعة. مرعوبين. الأمن المركزي أكتر من الطلبة واعتقالات الطلبة شغالة وتخيَّلي بيمنعوا دخول الأعلام العراقية والفلسطينية!».

«ناس ذوق ذوق ذوق».

تعلو ضحكة دنيا «بس اسكتي يا بت يا سارة إنت سرك باتع. أحلامي بقت أحسن بكتير. على الأقل بقت أحلام مش كوابيس. كفاية إني أحسن بعد مابطلت أدوية وماعدتش باروح للدكتور الأهبل ده. تعرفي يا سارة حاسة كإن كان فيه غمامة على عيني واقفة بيني وبين الدنيا. يظهر فعلا الأدوية كانت بتفقدني الإحساس. بافتكر دلوقت إن كانت بتمر عليّ ساعات وأنا متنَّحة مش بافكر في حاجة محددة».

تخطو سارة خارج دوامة نديم التي تلف برأسها. تبدأ معها حديثا حول الأحلام والعصافير فتعود إلى صوتها حرارة كانت قد غابت. «لازم تقري يونج يا دنيا».

تقولها وقد اتجهت إلى المكتبة وسحبت كتابا.

«ذكريات، أحلام وتأملات» عنوان سيرته الذاتية. لازم تشوفي بيتكلم إزاي على أحلامه وعلاقته المعقدة بفرويد ورحلته جوَّه نفسه».

تتأمل سارة صاحبتها وهي تتصفح الكتاب فيعود إلها خاطر حب دنيا للتصوير منذ كانت صغيرة. تستكمل بصوت منهك «ويمكن لازم تاخدي موضوع الفوتوغرافيا بجد أكتر من كده».

تنظر دنيا إلها وقد كست ملامحها غلالة من الشجن «أنا بس يا سارة لسه باعمل الواجب الأول. باشوف دنيا اللي بجد فين وبأفسح حوالها مكان. خايفة يكون حبي للتصوير جزء من حبي لأبويا علشان ده كان عشقه».

لكن في اللحظة التي تنفرد سارة بنفسها يختلي بها الأسى. تعود الدوامة العنيفة تجرفها إلى نقطة المركز. غياب نديم والتساؤلات. يقطع رنين الهاتف دوخة دورانها فتسمع صوت حسام «ياللا انزلي هاخرجك شوية. أنا تحت البيت».

«لا يا حسام مش قادرة أخرج. عنيا وارمة وشكلي عار. أنا با أروح الجامعة بالعافية ويادوب على قد ساعتين المحاضرة. وترجمة الكتاب اللي معايا متعطلة من شهرين».

يعود إلها صوته «طيب افتحي الباب».

دقائق وتجده واقفا أمامها بجسده الطويل النحيل وابتسامته العريضة وفي يده باقة الورود البلدية الحمراء التي تحبها. تشهق «إزاي لقيت النوع ده يا حسام. عطره كثيف».

تحتضن الباقة وتدس أنفها في موجة العطر فتتذكر باقات نديم لها «ورد أحمر وبريحة من الجنة علشان عيون حزينة باحبها».

تبتسم بأسى وقد بدأت تصدق أنها تتعامل معه كذكرى ليس أكثر. نعم لا تزال تؤلم. لكنها مجرد... ذكرى.

ويبدأ حسام الحديث عن ليلى «إنت فاكرة يا سارة حالتي كانت عاملة إيه وقت جوازها. كله بيعدي يا حبيبي. مش ده كلامك ليّ وقت ما كنت باعيط زي حضرتك. يعني مش للدرجة دي. إنت موهوبة أكتر مني في الموضوع ده».

تضحك سارة. فيمسك حسام بطرف ضحكتها حتى لا تفلت
و يستكمل «إنت نزلتيني من الشغل على ملا وشي. قطعت عليّ متعة الفرجة على الصحاف وهو بيهدد العلوج بجهنم وبئس المصير».

وكانت رؤية ابتسامة نورا تعود إلـها تنجح بالفعل في إدخال البهجة إلى قلب سارة. لم تستطع رفض الذهاب إلى الهناجر لأنها كانت فكرة نورا «عازماكم رغم الفلس. على الله يتمر فيكم. صوفي بس هي اللي تشفع لكم».

ردت دنيا «يا أختي اتشطرت على عزومة في الهناجر!».

ضحكت نورا «طبعا لو الموضوع فيه باله أو موسيقى في الأوبرا كل واحد منكم يظبط ميزانيته يا غجر».

وصل سارة صوت الضحكات أثناء الاستراحة ووقت الخروج من المسرح كأنه مجرد صدى يأتي من عالم آخر. كذلك كان الحال لما حدث على خشبة المسرح. في طريق العودة من المسرح نظرت نورا في مرآة السيارة فلمحت سارة على الكنبة الخلفية شاردة. أدارت كاسيت السيارة على صوت «جاك برل»:

كل حاجة ممكن تتنسي

واللي فاز منا هو اللي نسي

ثم بادرتها «كل ده من المسرحية. هيّ كانت زفت فعلا. ماتعيطيش بقى».

أوقات الخصام... انسى

وأوقات الأسئلة اللي ضاعت في ليه! وليه!

ابتسمت سارة فاستكملت نورا بنبرة بعيدة عن المزاح قريبة من الحنان «مش إنت اللي دايما بتتكلمي عن التسامح وإننا لازم نعدي الأزمات لأننا بنحب الحياة. ولاّ كان كلام بس».

شعرت سارة بخجل ينتابها و«ماعت» تمرق أمامها بسؤال وتمضي «اتعلمت إيه في دنيتك وليكى عين تنصحي حد وإنت فشنك كده!».

لكن صياح نورا قطع علـها خيط السؤال جاذبا إياها من دائرة أفكارها لتجد صاحبتها قد أخرجت رأسها من نافذة السيارة موجهة قذائف لسانها إلى سائق الميكروباص، الذي كاد أن يصدم رفرف السيارة الأيمن في جنونه لتخطيها «يلعن أبوك على أبو اللي سايبك في الشوارع. ده إنت لازم يحبسوك في جنينة حيوانات يا ابن ال-...».

قاطعتها دنيا «لمّي الدور يا نورا معانا واحدة إنجليزية والواد حسام في عربيته. يعني إحنا أربع ستات لوحدنا».

ضحكت صوفي «أنا نص مصرية يا دنيا. ولما تروحي نيويورك هتعرفي إن القاهرة جنة».

التفتت دنيا إلى سارة «هو العيلة عند حضرتك مافيهمش حد سليم في دماغه يا أبلتي».

عندما عادوا ليلتها إلى بيت سارة بدون لي في صخبهن كمراهقات قفزن من فوق سور المدرسة وذهبن للسينما وملاقاة صبيان المدرسة المجاورة. وسرعان ما لحق بهن حسام بعد أن أحضر سندوتشات السمك والجمبري. كان جو من الفرحة يشبه الانعتاق ينتاب دنيا ونورا عندما تقرران تمضية الليلة مع سارة. يحدث هذا عادة بعد نجاح سيناريوهات محكمة مفصلة على مقاس الأمهات. أسرعت دنيا بتحويل كنب غرفة المعيشة إلى أسرّة وأخرجت سارة بيجامتين من دولابها. ارتدت نورا واحدة والثانية بدت مضحكة على دنيا بجسدها القصير النحيل في بيجامة سارة الأكبر. أما صوفي فقد دخلت المطبخ لإعداد طبق من السلاطة اليونانية وقد اشتبكت مع سارة في جدل حول دور المثقفين الأمريكيين فيما يحدث «ياسارة الإعلام الأمريكي مش هايدي فرصة لأي صوت

غير السائد. مش هو ده الإعلام اللي كان بيتكلم على مظاهرة فيها مايقلِش عن ستين ألف بني آدم، عرب وأمريكان، بيعارضوا سياسات بوش ونية الحرب ضد العراق في خمس دقايق وقدامهم في نفس النشرة خمس دقايق تانيين لمظاهرة لميت يهودي مش أكتر بيطالبوا بوقف العنف الفلسطيني ضد الأبرياء المدنيين، اليهود طبعا. الفلسطينيين ماعندهمش مدنيين أساسا. حتى إحنا في امريكا لحد قبل اللحظة دي كنا مصدقين إنه إعلام حر!».

انفعلت سارة «طيب يا صوفي اكتبي تغطيات صحفية للإعلام العربي تصرح بالوضع في أمريكا وبوجود صوت قوي معارض».

وتدخل حسام مشجعا «الموقع عندنا ممكن يستفيد من تقارير زي دي يا صوفي».

«أولا أنا مالش في الكتابة يا حسام. أنا بارسم وبس. ثانيا المشكلة مش هنا. المشكلة هناك. لازم تكون على وعي وعندك استعداد تفكر في وجود سيناريوهات بديلة عن اللي بتشوفها في التليفزيون طول الوقت. والمواطن الأمريكي تركيبته مش كده خالص. حياته هي البيت والعربية والتأمين الصحي والمرتب اللي بيروح معظمه في التقسيط للحاجات دي».

«حتى بعد ١١ سبتمبر يا صوفي؟».

«اسمع يا حسام.. قبل ١١ سبتمبر ماكانوش مهتمين أصلا فين الشرق الأوسط. دلوقت ممكن يتابعوا الأحداث. لكن قليل منهم اللي مهتم وعنده عقلية نقدية. الراجل الأمي اللي قاعد على قهوة في شبرا أو في المنصورة عنده وعي سياسي أعلى منهم. والأصوات المنتقدة لسياسة أمريكا ما لهاش مكان في الإعلام».

دخلت سارة إلى غرفتها في الرابعة فجرا بعد أن تركهم حسام
و نامت الباقيات. أغلقت باب الغرفة وفتحت نافذة الشرفة واتخذت موقعها على الكرسي الصغير الكاشف التفاف النيل الأفعواني في تلك المنطقة. أصابتها نسمة باردة برعشة خفيفة فدخلت إلى الغرفة وأحضرت شالا لفّته حول كتفيها. رغما عن حرارة صيف القاهرة تفلح دوما تلك البقعة الصغيرة في جلب بعض نفحات سماوية. رشفت كوب الشاي باللبن وقد أغمضت عينيها وأخذت نفسا عميقا أخرجته من صدرها ببطء شديد. تبعته بشهيق آخر أكثر بطءٍ وزفير.

تراجع صخب البوم والضحكات وهبط علىها هدوء بزغ منه شعور غامر بالامتنان لهؤلاء البشر. كانت تستشعر خبو نيران الغضب رويدا. كلما تراجعت خطوة أفسحت مكانا لي وبعض هدوء يسمع سارة صوت «سيدة النور». سمعتها تردد بهدوء «مش هافقد إيماني بالحياة».

ابتسمتُ... وفكرت في هدية لها.

مرقت نسمة هواء صيفي مسحت بنعومة على وجه سارة وأحضرت في يديها طيف أمها بتلك الطيبة وذاك الفيض من البراءة التي لم تفقدها كاتي حتى رحيلها إلى «أمنتي»(٣) وهي لم تزل في الأربعينيات. دقات الآلة الكاتبة وعلو رزمة الأوراق المترجمة وسارة تلعب تحت المكتب مع أخيها أيمن وقد رفعت إصبعا صغيرا محذرا في وجهه «شششش.. مامي بتشتغل». شموع ونبيذ على العشاء في ليالى الشتاء. أصحاب يجتمعون ليلة الخميس من أجل حفلة سومة. وكاتي تدخل إلىهم بالطعام والبسمات. «كأنها طيف فعلا». صوتها الرائق يغني خافتا لها ولأيمن قبل نومهما. فرحتها يوم ذهبت مع سارة إلى الكوافير وهي في الثانية عشرة لتقص شعرها «زي الكبار». جسدها الصغير مثل جسد صوفي يتحرك في المطبخ ليعد الطعام وأبوها يضحك «نفسي آكل بسمن أمي يا كاتي. معدتي نشفت من زيت الذرة».

ابتسمت سارة بحنان وقد تداخل طيف كاتي مع إيزابيلا ذات الدماء الإيطالية الساخنة رغم بضع سنوات بعد الثمانين. لا يزال جدولها مزدحما بلقاءات الأصحاب ودروس الفن التشكيلي التي تعطيها للأطفال في الجالري القريب في «بنزانس» وفوق التل في أيام الصيف المشمسة أو على الميناء.

دخلت إلى الغرفة وعادت بصورة إيزابيلا في الإطار الخشبي القديم. ابتسمت لوجه جدتها ووراءها زرقة المحيط القاتمة. مرت بأناملها على تجعيدات الوجه العميقة والعينين العسليتين اللتين لم يمسس الزمن مسحة الطفولة فيهما. وإيزابيلا تعيد حكي تلك القصة القديمة التي تعرفها سارة جيدا ولا تمل سماعها مفتشة في كل مرة عن تفصيلة جديدة تذكرها جدتها لأول مرة. ماركو الإيطالى، أول من أحبت إيزابيلا عندما كانت في فلورنسا لا تزال طالبة فن. في كل مرة تسمع فيها سارة الحكاية تتذكر ملامح ماركو في الصورة الأبيض وأسود التي تحتفظ بها جدتها في صندوقها القديم. ذلك الشعر الأسود الفاحم، الجبين العريض والوجنتان البارزتان. ملامح شديدة الوسامة وضحكة كبيرة تكاد تسمعها من صورة في إطار فضي فقد لمعته. ترتسم الضحكة ليس فقط على الشفتين ولكنها تكاد تقفز من عينيه التي أسرَّت لها إيزابيلا في أذنها أنهما كانا بلون البحر. بداية الخفقات وخطط الزواج ورحلاتهما إلى الألب وإلى عاصمة النور ثم الحرب العالمية الثانية التي لم يعد منها ماركو أبدا. تقلص حلم إيزابيلا من بيت وأطفال كثيرين إلى مجرد جثة يواريها التراب في مكان تعرفه.

اتسعت ابتسامة سارة وقد شعرت باشتياق لهذا الحضن فجاءها صوت إيزابيلا «السنين علمتني يا سارة إني مش محتاجة قبر علشان أزوره، وجدك علمني إن طول ما له مكان في قلبي هو ما ماتش».

كانت سارة تعرف أن جدها نعمان هو الذي اقتسم الحزن مع إيزابيلا وأفهمها أشياء ظلت ترعاها فكبرت مع أشجار البوكالبتوس في حديقة بيت «بادستو». ومثل الساحرات القدامى ستعرف إيزابيلا كيف تنقل الأسرار لمن يستحق. تسترجع سارة ملامح جدها السمراء شديدة الوسامة وطوله الفارع وتلك الطريقة التي كان يسير بها كفرسان عصور بعيدة. تساءلت أي رجل كان نعمان الجمل وقد بنى لماركو قبرا رمزيا عندما وافقت حبيبته على الانتقال معه إلى «أوكسفورد» بعد حصوله على الدكتوراه في علم المصريات.

«وراحوا فين الرجالة اللي زيك يا جراند با؟».

وعندما تقاعد وانتقلا إلى بيت «بادستو» الصيفي، نقلت إيزابيلا القبر إلى المدفن المستلقي فوق أحد تلال القرية الصغيرة المطلة على المحيط. اعتادت سارة زيارة ماركو في كل إجازة مع جدتها. ولم يلبث قبر جدها أن جاور ماركو فأصبحت سارة تحضر عددا أكبر من الزهور.

تذكري جدتك يا سارة وابعثي إليها برسالة لن تلبث أن ترد عليها بقصيدة شعر تحبها لإميلي ديكنسون. قصيدة تناسبك تماما. هل تذكرين تلك السطور عن الجنة التي هي «بلدة صغيرة تنيرها ياقوتة ويعلوها تل من زغب العصافير». نعم...هي الجنة الـ «أكثر سكونا من الحقول المغرورقة بالندى. البهية كصورة لم ترسمها يد إنسان»!

تذكري أي إرث تحملين في قلبك واحفظيه بعيدا عن «سخمت». هدئي منها واستخدمي سحرك كي تحوّلي طاقتها الحمراء إلى طاقة شفاء. وعندما يخفت لهيب الأحمر ستحين لحظة العتمة. ستدلفين إلى الأسود من أجل اختبار آخر على عمق أبعد داخل المعبد. ولكن يكفيك الآن مواجهة التنين والنفاذ من نيرانه إلى الداخل.

في العمق ستزداد كثافة الظلام وأنت تصعدين الطريق الحجري. لا تتعجلي. فهناك على الطرف الأيمن للطريق النحيل سترين بابا خشبيا صغيرا مغلقا بمزلاج. نمت الحشائش من بين شقوق الأحجار على جانبيه. مساحة مغلقة تثير فضولك. وصوت من داخلك يشدك إلى تلك البوابة الصغيرة.

ولا تنسي وأنت هناك ألا تغفل عيناك عنهم. دنيا تقوم بالواجب الأول هذه الأيام. امنحيها حضنا لم تجده لدى أمها التي تحضر دروس الدين، وتشغل نفسها كثيرا بالسؤال عن حرمانية الأكل بالبد السرى وأي نوع من الفن مسموح به، المسطح أم ثلاثي الأبعاد.
و قريبا ستلحق بك على الطريق المعتم. لم يتبق الكثير أمام حسام أيضا. تركته الآن مشغولا بالعمل من أجل مال لإخوته وأمه. اتركيه يصارع غيلان الخارج، فأصوات العالم تغرق بضجيجها همسات احتياجه لارتعاشات حب بعيدة. إن كان أمام دنيا خطوتان فأمامه أربع. أما نورا... لكن في جعبة «سيدة الحيل التي لا تنفد» لعبة ماكرة في الطريق إليها.

(٣)

بيتنا الذي كان يقطن على صفحة النهر

ومن سقفه المتداعي

يخطر الأصيل والزنبق الأحمر

هجرته يا ليلى

وتركت طفولتي القصيرة

تذبل في الطرقات الخاوية

كسحابة من الورد والغبار

غدا يتساقط الشتاء في قلبي

وتقفر المتنزهات والأسمال والضفائر الذهبية

وأجهش ببكاء حزين على وسادتي

وأنا أرقب البهجة الحبيبة

تغادر أشعاري إلى الأبد

والضباب المتعفِّن على شاطئ البحر

يتمدد في عيني كسيل من الأظافر الرمادية

حيث الرياح الآسنة

تزأر أمام المقهى

والأذرع الطويلة تلوح خاوية على الجانبين.(٤)

«بأكّد علىك يا حسام على بكرة عندي في البيت. وما تنساش تجيب لنا جبنة وسلاطة خضرا والنبي».

جاءها صوت حسام على الموبايل مرتبكا «سارة أنا في طريقي للبلد. أبويا في المستشفى».

ضغط حسام على البنزين بعصبية وهو يربت على المقوَد محدثا السيارة الـ ١٢٨ «إوعي تعمليها فيّ يا «مونيكا». خليك بنت ناس محترمة. الراجل في المستشفى والظروف مش اللي هيّ».

ابتسم وهو يسترجع رفض صاحباته الركوب معه في السيارة لمعرفتهن بتهوره رغم أنه ليس بالسائق القديم. وفي المرات القليلة اللاتي اضطررن لمصاحبته في عربته لم يخفين الرعب ولا التساؤل «حسام إنت بتسوق زي سواقين النقل العام!».

التفت ساعتها إلى دنيا على الكنبة الخلفية «مش عايز أي تعلقات تشكك في سواقتي. أنا سافرت البلد بالعربية من غير ما أكون باعرف أعمل مارشدير، وما حصلش أي حاجة. ثم إن أنا اللي هعلمك السواقة فمتطوليش لسانك».

مرقت «مونيكا» على الطريق وقد تراجعت تلك الابتسامة التي زارته مع ذكرى صاحباته مع تدافع صور قديمة بلا ترتيب أمام عينيه. أب مسافر دوما لا يظهر إلا في شهور الصيف. في أثنائها كان يبدو مثل رجل كادح في استمتاعه بإجازة. الفرحة والذبائح وقت نجاحه في الثانوية، ولم يكن ليشك للحظة واحدة أن ابنه البكري سيعصي رغبته في الالتحاق بكلية الشرطة. سأل نفسه إن كان يبحث عن شيء بعينه بين تلك الصور.

«أيوه.. ح-وار بين اتن-ين أصح-اب مث-لا. أي لحظة حميمة بين اتنين بني آدمين مش لازم أب وابنه».

كلما فتش عنه في أوراق الذاكرة المصفرة لا تحضره إلا صورة فاطمة وقد غرقت يداها في عجين العيش المختمر. تنز جبهتها بقطرات عرق سرعان ما تختلط بذرات الدقيق البيضاء الناعمة وهي تثرثر مع جاراتها حول الفرن في مؤخرة البيت. العلقة التي تلقاها عندما كان يزوغ من المدرسة في أول أيامه فيها. تلك كانت إحدى المرات القليلة التي رآها شرسة. طقطق الجمر في عينيها وقد قبضت على ذراعه بعنف حتى ظنها ستنخلع وهي تصيح «أنا مش هيكون لي ابن بكري فاشل». ابتسامتها الخبيثة التي حاولت أن تداريها عندما عرفت عن حسام وهناء في الغيط الملاصق للبيت و«كانت فضيحة طبعا» كما حكي لدنيا ضاحكا ذات مرة. ضحكتها الواسعة التي لم تكشف أبدا عن شكوى من خمسة أولاد وزوج موسمي وضرة. وفرحة رآها في عينيها وقت نجاحه في الثانوية العامة بمجموع كبير أهَّله لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية التي كان يحلم بها «علشان أعدّل الوضع السياسي في مصر». عندما ضبط نفسه مبتسما لتلك الصور عاد إليه السؤال عن أبيه وموقعه في القلب.

وصل إلى المستشفى الجامعي في المنصورة ونزل راكضا من السيارة «فين قسم الحالات الحرجة لو سمحت؟» واستكمل الركض.

كانت فاطمة أول من التقطت عيناه. رأته قادما نحوها فأنهت حديثها مع محمد أخيه الأصغر المحاسب في المحافظة «روح هات الأدوية اللي الدكتور طلبها ولما ترجع هابعتك البيت تجيب حاجات».

أخذت حسام في حضنها المشبع برائحة الدقيق «الدكاترة قالوا هبوط حاد في الدورة الدموية. أصله مش عايز يبطل شرب حشيش على معدة فاضية وأكل غلط».

أزاح الستارة حيث أشارت أمه، وخطا بهدوء نحو أبيه النائم. بدا شاحبا وهزيلا كطفل علل. اخترقت إبر أنابيب المحلول المعلقة بجانبه ذراعه اليمنى وقد ازرقَّت في تلك البقعة. وحملت الذراع السرى آثارا زرقاء مماثلة في أكثر من مكان. مد يده واحتضن اليد السمراء المعروقة بخفة. ارتجف.

تركتهما فاطمة وحدهما بعد أن سحبت في يدها عمته وخرجت إلى الطرقة حيث اجتمعت باقي الخالات والعمات وزوجات إخوته وأطفالهن وقد تناثرت حولهم أكياس طعام وبرتقال. في وحدته مع الجسد المستكين فوق الملاءات البيضاء تكثف الإحساس بانقباض قلبه وهو يحاول جاهدا أن يتخيل ماذا سيشعر عند موته «أكيد هازعل. هو أنا ليّ مِيت أب أختار بينهم».

كانت الأشياء غائمة ولم يكن باستطاعته الإمساك بإجابة. لا يزال يتأمل تلك الحالة من الضعف التي لم يشهد أباه عليها من قبل و الأسئلة تتقاذفه كموج عنيد. هل غفر له زوجة ثانية في البلد وبيت أجمل من بيت أمه! وماذا عن الغياب! ماذا عن تركه المسئولية له من قبل تخرجه! مصاريف مدارس وجامعات إخوته الأصغر وفتح بيت أمه. نهض متجها إلى حسابات المستشفى وهو يصفق الباب بعنف في وجه الأسئلة.

دخل حسام إلى بيت فاطمة بعد أن أنزل من سيارته زوجتيّ أخويه وأطفالهما. لم يكن يتمنى في تلك اللحظة أكثر من حمام ساخن وسريره. كأن فاطمة كانت تتابع أفكاره. جاءه من ناحية المطبخ صوتها ورائحة تحمير البط «ادخل استحمى يا حسام. بس إياك تنام قبل ما تأكل لك لقمة».

خطا إلى الشرفة الكبيرة التي كانت يوما مفتوحة على الغيطان. الآن تقلص حجم البيت مع اقتراب جيوش نمل من بيوت صغيرة. جذب نفسا عميقا من هواء خال من الغبار وعادم السيارات. لا تزال الرائحة كما كانت. هي ذلك المزيج الفريد من رائحة الطمي وبقايا حرق قش الأرز ورائحة المواشي. رائحة تتحدث معه بلغة لا يفهمها إلا كلاهما. أغمض عينيه وهو يتنفس بهدوء وقد مدد جسده على الكنبة البلدي الملاصقة للجدار الخشن فشعر بطقطقة عضلاته المتشابكة. غفا لدقائق ولم يزل يشعر بنداوة النسيم العابر فوق جسده. وأفاق على يد خشنة مألوفة تربت جبينه «قوم يا حبيبي كل لك لقمة. هي منى مش بتأكلك وإلا إيه. مالك معصعص وممقوت كده!».

جلس متربعا وقد تضاعف إحساسه بألم عضلاته المرهقة. شد صينية البط والأرز الأبيض والملوخية إليه «إيه يا طمطم إنت هتعملي حما ولاّ إيه!».

ضحكت ببراءة فازدادت حدة تجاعيد وجهها الأسمر ولمعة العينين وهي تلكزه «فشر يا واد يا عبيط. ما إنت عارف إني بدافع عن النسوان الغلابة منكم. عيالى وعارفاكم. إوعى يا ابني يكون فيك عرق افترا!».

نظر إليها بابتسامة خبيثة «زي أبويا قصدك؟».

«بس يا واد بلاش قلة حيا. جاك قطع لسانك».

عندما نزل بجسده تحت الماء الساخن خرجت منه آه عميقة. أغمض عينيه فشعر بنوبة حنين مفاجئة إلى سطح البيت. عادت إليه لحظاته وهو صغير عندما كان يختلس أوقاتا له وحده مع البدر. كان ينام على ظهره فوق أعواد القش ويفتح ذراعيه. يبتسم في سعادة غير مفهومة لأقرانه الذين كانوا يضجون في الشارع بلعب الكرة ولا يفهمون لماذا لا ينزل إليهم ليلعب كما العادة. يتذكر أوجه القمر المتعددة. كان ينظر إلى الدائرة المنيرة فيرى عينين وفما مبتسما. يغمض عينيه لثوان ويفتحهما فيكتشف أن العينين قد تلاشتا ولم يتبق إلا ملامح أنف في وجه بلا عينين ولا فم. «لسه فيه سحر في العالم». تحضره الآن رسالة سارة الشهرية له مع كل اكتمال للقمر. ابتسم لوجه سارة.

وابتسمتُ أنا لتلك الذكرى. كنت وقتها ألقي بضيائي على وجهه الصغير. أبتسم له وأعده أنني سأبقى. أتأمله الآن والسؤال يحضرني «هل حان وقت عودتي؟».

دخل غرفته وارتمى على السرير الحديدي الصغير. لم ينم منذ يومين. سمع نداء محمد عليه وقبل أن يرد، كانت فاطمة تسحب أخاه بعيدا عن الغرفة. بدأ مفعول الحمام الساخن يسري كمخدر قوي في أعصابه المشدودة ويجذبه برفق إلى حافة النوم. أغمض عينيه وهو يتحسس الملاءة البيضاء ويدس أنفه فيها ينهل من عبق البراءة. تلك المساحة الصغيرة هي سنواته الأولى حتى الجامعة. كلما عاد إليها يقابل حساما آخر لا يزال حالما وقويا. مغمض العينين ابتسم لذكرى ذلك الأسبوع الذي حبسه أبوه فيها بعد أن عاد به من قسم البوليس «وقال لي يا دنيا هافتح لك دكان تبيع فيه فراخ. قلت وماله مش عايز أروح المدرسة».

هل تعود إليه تلك الذكرى الآن لأنه كان يحكي لدنيا عنها منذ أيام!

حدث ذلك عقب تحريضه باقي الفصل على الخروج في مظاهرة من أجل سليمان خاطر(٥) الذي «قتلوه في السجن». ولم تلبث باقي المدرسة الثانوية أن خرجت ترج القرية الصغيرة بأصوات الغضب. جاءته ضحكات صاحباته وهو يحكي لهن تلك الحكاية، «كنا في حصة رسم. وكانت عندنا توحة المزّة بتدرس لنا. طبعا كنت باحضر كل الحصص علشانها مع إن من يومي حمار في

الرسم. لكن ما تعرفيش يا أختي إيه نوبة الوطنية اللي ركبتني يومها. نسيت توحة والتسبيل لها ولقيت نفسي باتنفض وأقول لباقي العيال إحنا قاعدين هنا بنرسم وجثة سليمان خاطر لسه سخنة».

عندما أفاق من النوم لم يستطع تحديد الوقت وإن لم يخطئ المكان. كانت أطراف حلم بمظاهرة سليمان خاطر لا تزال معلقة في هواء الغرفة. لكنه في الحلم لم يكن طالبا في الثانوي بل كان هو حسام الآن. هل كان أستاذ حامولي في الحلم! نعم كان هناك بالتأكيد. ألم يكن واقفا يتأمل الجمع عن بُعد وفي عينيه تلك النظرة القاسية المخيفة! لم يُظهر حسام أنه قد لمحه، لكن قشعريرة الخوف التي سرت في جسده لم يجد لها تفسيرا. تلمس موقع الشبشب في الظلام وهو يدفع الحامولي بعيدا عن رأسه بزهق في نفس اللحظة التي لمعت في ذهنه لحظة إدراك جلية. تلك كانت لحظة فاصلة لأنها كانت بداية وعي لن يلبث أن يكتمل ليس فقط لموقعة داخل وطن ولكن أيضا لأن..

«حاسيت وأنا باهتف والعيال بترد ورايا إني بني آدم. لما تقدر تنطق الحق في زمن الخرس بيصحى فيك إحساس بآدميتك يفرحك ويعذبك لأنك هتفضل طول عمرك تدوّر علىه».

أضاء نور الأباجورة مبتسما «بس إنت لسه كويس يا واد يا حسام».

«يمكن... بس أنا برضه محبط وفاضي من جوايا».

«إنت لسه بتدور على الإحساس اللي كان مالك وإنت مع سلمى أيام الجامعة!».

«ياااااه... كنت حاسس إني أقوى راجل في الدنيا. إني ملك. بطل. فارس. إني ممكن أغير العالم».

«ودلوقت؟».

«دلوقت... مش متأكد حتى إني عارف أحلم!».

«فاكر يا واد يا حس لما كنت بتحلم في المترو بكاثرين زيتا جونز. قصة غرام مريعة وهي طبعا كانت هتموت علىك. ولما لعبت مع منتخب مصر وطلعت بيه نهائيات كأس العالم ولاّ لما رحت فلسطين وطحنت الإسرائيليين».

«كنت كحيان وحالتي بالبلا. لكن كان عندي ثقة في بكرة مش عارف كنت جايبها منين».

«وهي راحت فين الثقة دي. وانت رحت فين يا حسام؟».

«تصدق إنك راجل رذيل وابن..».

«حسام يا ابني. مالك ياعين أمك».

كانت فاطمة متسمرة على باب الغرفة وقد انعقد حاجباها بقلق شديد وانزلقت الطرحة السوداء من فوق رأسها فانكشف شعرها الفضي الناعم. ترك حسام السرير وبادرها بحضن رفعها من على الأرض فترددت ضحكتها العالية «بس ياواد. إنت... إنت انهبلت!».

«ياللا يا طمطم اعملي لي كباية الشاي المعتبرة».

مصمصت فاطمة شفتيها وهي تترك الغرفة بعد أن أخبرته أن الأطباء قد يعطون أباه إذنا بترك المستشفى خلال يومين على الأكثر «مستنيين نتيجة باقي التحاليل علشان يكتبوا له على العلاج».

خرج إلى شرفة البيت فوجد أخته تهاني وأبناءها الثلاثة في انتظاره. جرى نحوه الصغار بفرحة بينما نظرت تهاني إلىه معاتبة

ومكررة لجمل قديمة قد حفظها حسام عن ظهر قلب «هو إنت يا حسام متفكرش تعدي على أختك في بيتها أبدا. لازم أنا اللي آجي».

«بقول لك إيه يا تهاني.. مش عايزين نفتح الموضوع ده تاني. إنت وجوزك بتجيبوا لي اكتئاب. بقيتم حاجة خنيقة جدا. لا تليفزيون ولا راديو ولا ناس. هو ربنا قال كده برضه. بصي للنقاب اللي مغطي وشك ده. أنا عايز أختي تهاني اللي أعرفها. مش واحدة محرّمة كل حاجة على نفسها وعيالها».

أشاحت بوجهها بعيدا وهي تتمتم «ويهدي الله من يشاء يا حسام».

عاد حسام إلى الأطفال الثلاثة يلاعبهم وفاطمة تخطو إلى الشرفة بالصينية النحاس وفوقها أكواب الخمسينة والبراد الألمونيوم تفوح منه رائحة الشاي بالنعناع. رفعت عينيها إلى ابنتها وهي تداري نصف ابتسامة «ربنا يهدي الجميع يا تهاني».

ما إن خرج حسام بالسيارة إلى الطريق الزراعي حتى استغرب إحساسه بالانتعاش. لا يزال يعشق رائحة الهواء في الغيطان وقت الفجر. مسح بعينيه فوق امتداد الخضرة وسحب نفسا عميقا من الهواء الطازج. شعر كما لو كان يسمع دقات قلبه تأتي من بعيد يصحبها طعم بهجة كان قد نسيه منذ زمن بعيد. كأنه لم يكن في زيارة لأب مريض وإنما في إجازة رائعة مع صاحب قديم. كأن دماء طازجة تجري في عروقه الدابسة. كأنه يريد الحديث مع... سارة. أدار كاسيت السيارة. جاءه صوت سيد مكاوي. أعاد الشريط إلى الوراء قليلا وطلب رقمها وعندما ردت قرب التليفون من سماعة كاسيت السيارة:

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح واختفى

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مت؟.. ولاّ وصلت للفلسفة؟

خفض من صوت مكاوي وقرب الموبايل من أذنه «حاسس بحاجة مختلفة ياست الدكتورة. فرحان مش عارف مالى. مبسوط مش عارف مالى. وباتكلم مع نفسي كتير يا أختي. تفتكري قرَّبت أتجنن».

ضحكت سارة «أفتكر قربت تعقل».

«بصي يا سارة أنا مش مطمّن لك ولا للصحبية دي».

«طيب يا ريت تكتب الحوارات دي يا حسام».

«الله أكبر. أنا قلت إنت اللي هتلبسيني البالطو الأبيض. ده أمي قفشتني وأنا باكلم نفسي. الست كانت هتقع من طولها. أمال بقى لو قلت لها إن واحدة صاحبتي هتعمل جنازة للراجل اللي بتحبه واللي لسه صاحي وزي القرد. تفتكري كان هيجرى إيه للست اللي لا أبويا ولا الزمن عرف يكسرها».

«أنا مبسوطة لك ومتفائلة خالص يا حسام».

علت ضحكته «أنا لأ يا سارة».

(٤)

صرخت «أفروديت» فشق وجعها بطن السماء

فأمطرت ورودًا حمراء...

«أدونيس الرقيق يرقد مجروحا. تنسحب الحياة منه رويدا.

يموت أدونيس...يموت

أي رسالة تبعثين بها أيتها الربة؟

اضربن... اضربن صدوركن الوضاءة أيتها العذراوات النائحات

وبصرخة حزن بري

مزقن أرديتكن السوداء».(٦)

فاجأتني سارة بفكرة الجنازة. نظرت إلـها ضاحكة «إنت بجد هتعملي لنديم جنازة؟».

توقفت أصابعها عن الحركة فوق لوحة مفاتيح الكمبيوتر ورفعت إليّ عينيها بتلك النظرة العسلية المشاغبة «ما إنت عارفاني. هو أنا باهزر؟ في الحاجات دي من إمتى».

فاح في الهواء عطر كزهر الليمون امتزج برائحة الحزن الكثيفة وقد انهمك كل منهم في الإجراءات التحضيرية. كأن غواية اللعبة كانت تصارع حزن القلوب فتدفع إلـهم ببضع ضحكات على جنون سارة واستسلامهم لهذا الجنون. انكبت نورا على تحضير العروسة القماش الممثلة للمرحوم. حضّرت دنيا الكاميرا والأفلام. وقضى حسام بضع ليال يدوِّر على محلات الكاسيت ليستكمل الأغاني المطلوبة ويفكر في الكلمة التي سيلقيها بوصفه الشاهد الأول على مأزق سارة العشقي وبدايات الحكاية. أما صوفي فقد انحصرت مهمتها في تحضير السلاطة وشراء البيرة والبقسماط والجدال مع سارة حول اختيار مكان الطقس «ليه النيل يا سارة.هو إنت عايزة تخلديه!».

خرجت سارة من شرودها فجاء صوتها باهتا خفيضا «لأ طبعا يا صوفي. أنا باحتفي بجزء من تاريخي إتعلمت منه وكبرت بيه. النيل هارمي فيه رماد الحكاية. وهو ها يرمى ميته وطميه في حتة تانية هتطرح زرع. وأنا مش هابطل أكبر وأموت وأتولد من تاني».

علت ضحكة صوفي ووجه إيزابيلا يمرق أمامها مبتسما.

تحركت الفلوكة من كورنيش المعادي قبل المغرب وقد ارتدى الخمسة السواد. وحين ابتعدت عن البنايات أدارت نورا أولى الأغنيات:

طول عمري باقول...

لا أنا قد الشوق... وليالى الشوق...

ولا قلبي قد عذابه... عذابه

وقابلتك إنت..

وانسابت مع دفقات الفرحة في صوت أم كلثوم خفقات البدايات لحكايا لم تكتمل. أو فلنقل لم تكتمل كما أرادوا. وبدأ حسام الحديث بنبرة الجد «إحنا مجتمعين النهارده علشان نودع المرحوم.. مش صدام طبعا».

التفت إلى سارة «إنت صحيح قاصدة تختاري وقت الجنازة مع وقوع تمثال صدام ودخول العلوج العراق؟».

تدخلت دنيا بنبرة المدرسة الحازمة «إيه يا حسام إنت هتقلب لنا الليلة سياسة. خلينا في اللي إحنا فيه».

«خلاص ما تزقِّيش».

ثم عاد إلى نبرة الجد «النهارده مش علشان قلب سارة بس. لكن كل واحد فينا بيودع كل اللي مروا في حياتنا وسابوا لنا المرارة. لكن علشان إحنا بنحترم تاريخنا لإنه حتة من قلبنا ولإنه صادق قررنا ما نحرقش صور أو جوابات إنما مجرد عروسة قماش».

زارته صورة ليلى وهو يتحدث. أدرك كم هو حانق علىها و... مشتاق «لأ أنا مش مشتاق لها. أنا مشتاق للحالة اللي عشتها وأنا معاها. مش عارف....».

ربما كان حنقه سيخف قليلا لو كانت قد أخبرته بنيتها للزواج. لذا كان يفهم تماما ما تمر به سارة. أن يسافر نديم وتتباعد اتصالاته ويصبح علىها أن تطارده من أجل كلمة تنهي ألمها. ليس الأمر سهلا على امرأة مثل سارة.

قالوا لي هان الود علىه

أفاق حسام إلى غياب الشمس وصوت دنيا يشهق: «القمر أهه!»
و ودمعة في عيني سارة حاولت مداراتها.

قالوا لي هان الود علىه

ونسيك وساب قلبك وحداني.. وحداني

رديت وقلت بتشمتوا ليه

هو افتكرني عشان ينساني.. آه عشان.. ينساني

سكنوا جميعا شاخصين إلى السماء التي بدت كرحم كبير مظلم يحوط «سيدة القمر» الشاخصة إلىهم. قطع صوت صوفي الهادئ نسيج الصمت «تعرفي يا سارة كان مفروض تعملي الجنازة والقمر بيروح علشان الحكاية تروح معاه. ترجع للضلمة».

استدارت سارة إلىها «الحكاية كده كده مروَّحة. لكن أنا بافكر نفسي باكتمالى. إني دايما هارجع أنا».

أخرجت نورا العروسة القماش من حقيبتها ونظرت إلى سارة «دلوقت؟»

هزت سارة رأسها موافقة. أخرجت نورا العروسة إلى حافة المركب واقترب حسام وأشعل النار في قدميها. في صمت تابعوا إمساك النار في الجسد الصغير. اشتعلت الأطراف ثم اسودَّ لونها وبدأت تتهاوى تاركة الجسد. تطاير بعض رماد في الهواء ثم هوى إلى سطح الماء وانزلق البعض الآخر سريعا وامتزج بتيار النهر. وذهب عقل سارة إلى الحكاية القديمة التي كانت قد حكتها إيزابيلا للطفلة المندسة في فراش برائحة الورد. تذكرت كيف ركضت «أفروديت» مذعورة نحو «أدونيس» الذي جرحه دب في الغابة أثناء إحدى مطارداته للحيوانات البرية. في ركضها المحموم جرحت ساقها في عود زهرة بيضاء. لم تلبث أن جرت دماؤها في عروق الزهرة الدقيقة فتحول بياضها إلى الأحمر. وعندما أعطته تلك القبلة الأخيرة شعرت بموته يسري في عروقها كسريان دمائها في شرايين الزهرة.

«فهمت يا سارة ليه ورود الحب حمرا!».

جاءها صوت إيزابيلا الناعم العميق جليا كأنه بجانبها في الفلوكة. ارتعشت.. لم تعد تتساءل الآن: إن كان هذا هو صوت إيزابيلا أو كاتي أو صوتي أنا «حتحور» سيدة القمر. لكنها ابتسمت لحكاية كانت قد نستها منذ زمن طويل. خرج الباقون من تأملهم لآخر أجزاء العروسة المتهاوية إلى النيل. التفتوا على صوت سارة المشبع بدموع الشهور الماضية.

«زهور الحب حمرا لأنها شايلة دم تجاربنا. شايلة موتنا. يمكن مينفعش ندوق طعم العشق ونرفض مر الموت».

ألقى الصمت مرة أخرى عباءته الناعمة فوقهم. سارة فقط هي من سمعت الجملة المتبقية لديّ. «لكنه الموت الذي ستبعثين منه ثانية في كامل عذريتك ابنة لأولى الساحرات».

نظرت دنيا إليها ومدت يدها تربت رأسها. من يظن أن تلك امرأة تقترب من حافة الأربعين. تلك العينان العسليتان الحزينتان تعرف دنيا أن وراءهما امرأة حين ترقص يبتسم قلبها. صورة سارة في بيت صاحبهما حين التقتها دنيا للمرة الأولى منذ عامين تأتيها في هذه اللحظة. وعندما عرفت تفاصيل سريعة عنها لم تصدق دنيا أن «الوسط السايب ده لواحدة نص إنجليزية». وهذا الالتياع الذي يفضح عشقا جارفا للحياة وقدرة على الألم، يمنحها أملا أن قلبها، وقد رأت الآن ذلك الشبه مع قلب سارة، لن يموت. تذكرت جهاد، أول رجل أحبت وكانت لا تزال في الجامعة. زارتها ذكرى المحبة ممزوجة باحترام لم تفقده تجاهه. هي التي رفضت الزواج من رجل لن يمنحها مساحاتها. رأت فيه شبها من أمها. لكنه لم يكذب. لم يدار أفكاره وراء قناع من التحضر. وماذا عن أحمد! لا تعرف عن علاقتهما الكثير. بدأت تدرك أن غموضه بات يطبق على مساحات الفرحة معه. أحيانا يتعامل معها برقة حبيب. وفي أحيان أخرى هو مجرد صاحب. وهي ليست متأكدة أيهما أقرب إليها.

زفر حسام أنفاس سيجارته متأملا دنيا. شعر برغبة أن يربت برفق على وجنتيها. وربما يزيح بخفة كتلة الشعر الأسود التي تأبى إلا أن تنزلق وتغطي نصف وجهها. تمنى لو تستدير إليه الآن بتلك الابتسامة التي تنير ملامحها وتؤكد بريق العينين. أفاق على صوت نورا وهي ترفع من صوت الكاسيت «إيه يا إخواننا. إنتم صدقتم إنها جنازة بجد. قومي يا أختي إنت وهي. قطيعة تقطع الرجالة والنكد.. لا مؤاخذه يا حسام باشا!».

«ولا مؤاخذه ليه. إنتم اللي يعرفكم لا يمكن يصدق إن الستات قال إيه... بيعانوا من القهر في مجتمع ذكوري. قال ذكوري قال!».

امتزجت ضحكاتهن مع:

علّي صوتك... بالغنا.. بالغنا..

لسه الأغاني ممكنة...

ولسه ياما.. يا ما ياما ياما.. في عمرنا...

خلع الخمسة السواد في نفس اللحظة فظهرت من تحته ألوان صفراء وبرتقالية ساخنة صحبتهم في رقصهم على قمة المركب الصغير.

ترقص!

فيردون في صوت واحد: «أرقص... غصب عني أرقص... غصب عني أرقص».

ورقصتُ أنا أيضا معهم. ألست «مولاة الأغاني والرقص»! وابتسمت لدهشة المراكبي الذي مر علىه الكثير من البشر فأصبحت دهشته نادرة. وهاهم يعيدونها إلىه وهو يحاول فهم ما يحدث. لكنه ابتسم بامتنان وهو يقبل من حسام زجاجة البيرة المثلجة.

انثنت أجسادنا جميعا على نغمات البهجة «غصب عني أرقص» وتداخلت في معزوفة واحدة تترقب أن تلد «نوت» الشمس من بين فخذيها في صباح آت.

ولا انهزام.. ولا انكسار

ولا خوف ولا...

ولا حلم نابت في الخلا.. في الخلا

رقصت صوفي وهي تضحك «إنتم مجانين. جبتولي فكرة لوحة أول ما نروح يا سارة هاعمل لها سكتش».

ضحكت سارة «أنا لازم آخد عمولة على كل إلهام. يا إما تهديني اللوحة. وأنا عارفة في «سان فرانسيسكو» اللوحات بتتباع بكام. بت يا نورا لازم ترجعي للرسم وصوفي تبيع لوحاتك في الجالدري بتاعها. ساعتها هتقرري ماتعرفيناش».

أمسكت سارة بوسط صوفي والتفتا معا فضحكت صوفي «كان لازم أمي تبقى معانا النهارده. زمانها دلوقتي بتتمشى في شوية الشمس الموجودة في «بادستو» رايحة تقابل صاحباتها. لأ يا سارة افتكرت دلوقت إنها في زيارة ل-«سان ميشيل»».

«تاني «سان ميشيل»! الأجازة الجايه أنا عايزة أروح معاها هناك».

تدخلت نورا «نفسي أقابل الست دي. كنت أتمنى يكون عندي أم أو جدة زيها».

ينشبك حلمك في حلمي

غصب عني.. غصب عني.. غصب عني أرقص

أمسكت صوفي بذراع نورا ورقصت معها «بتموت في الرقص البلدي يا نورا.. وموصياني أجيب لها شريط نانسي عجرم».

ثم ارتفعت ضحكتها «أكيد هيوفر علىها الدروس النظري اللي بتديها لصاحباتها اللي عندهم سبعين سنة.. إنت عارفة بقى مشاكل التهاب المفاصل».

تهاوت سارة على الكنبة الملاصقة لحافة المركب تلتقط أنفاسها. اتسعت ابتسامتها وهي تتأمل صوفي ونورا تدوران معا فوق قمة المركب الصغير. تطاير الهواء بشعورهما فبدتا لها كربات الفنون اللاتي طلب منهن «هوميروس» أن يغنين في دائرة حول «سيلين» ربة القمر:

يتلألأ الهواء المعتم

بنور تاجها الذهبي

ينتشر الضياء في السماء

حينما -ليلة الاكتمال-

تغسل «سيلين» البهية جلدها الوضاء في المحيط..

تحية لك يا سيلين

أيا ملكة السماء يا ذات الذراعين البيضاوين

والشعر المتطاير.

ما إن دخلت إلى البيت مع خالتها حتى تراجعت الضحكات وعاد الفقد يضغط بيد ثقيلة فوق صدرها. اتجهت إلى الكمبيوتر. فتحته وطبعت الرسالة الأخيرة من إيزابيلا وأعطتها لصوفي التي اتخذت موقعها المفضل على الأريكة المواجهة لصفحة النيل. قرأت صوفي الرسالة وابتسامة تتسع فتضيء وجهها.

«هو الخسران مش علشان انت بنتي لكن علشان إنت واحدة ست بجد. ست مش جسم بس، لأ ده إنت عقل وروح قوية يا سارة. وملوك الفراعنة بتوعكم كانوا بيقدروا ده في الستات. كل قصص الحب اللي عاشت، نفرتيتي وإخناتون، الملكة تي ورمسيس الثالث وأنطونيو وكليوباترا طبعا، عاشت ليه! لأن كل ست من دول كانت عقلاً وروحًا جبارة تعرف تبقى صاحب زي ما تعرف تبقى ست. رمسيس التاني رغم كل الستات اللي اتجوزهم والأربعين سنة اللي عاشها بعد نفرتاري عمره ما قدر ينساها أو يحب واحدة قد ما حبها. زي أبوكي وأمك بالظبط».

وضعت صوفي الورقة جانبا ملتفتة إلى سارة «تعالى خدي حضن».

اندست سارة في حضنها وهي تتنفس بعمق. تشعر مع كل زفير بثقل ينزاح عن صدرها فتهمس «Thank u ya Sophie».

مسَّدت صوفي رأسها برفق «إحنا محظوظين يا سارة إن عندنا ست زي ماما في حياتنا. مش عارفة من غيرها كان ممكن أعدي أزمة طلاقي من جوناثان بعد تسع سنين جواز وطفلتين، وبعدين يروح يحب واحدة عندها عشرين سنة ويسيبني. لما بافتكر دلوقت الانهيار اللي جالى وشهور المستشفى بابتسم وكتير باتكلم أنا وهنري على الفترة دي. هو رأيه إنها طلّعت مني فنانة بجد. فعلا لما با أرجع للوحاتي في الفترة اللي قبل الأزمة بلاقي فيها حاجة سطحية شوية. ألوان باردة وخطوط شبه ناس تانية».

رفعت سارة وجهها إلى صوفي فرأت صور تلك الفترة تمر في عينيها الشاردتين متتابعة. صوفي في المستشفى وقد ذهب لونها وتصلبت عيناها على سقف الحجرة الأبيض. الممرضات وهن يرفعنها من السرير من أجل الحمام اليومي. تلال الأدوية التي تجرعتها باستسلام طفلة عاجزة عن الرفض.

تعود إلى سارة زيارتها لصوفي وهي طفلة في تلك الفترة مع كاتي. لم تتعرف على خالتها التي لزمت الصمت التام وفقدت الكثير من وزنها وكل البهجة. كانت تصحب أمها وجدتها كل يوم تقريبا على مدار شهريّ الإجازة. وإيزابيلا تذهب إلى ابنتها كل يوم بزهور جديدة تحضر سارة بعضا منها من جولاتها في غابة «جاف». سوسن أصفر وزهور القطيفة البرتقالية ونرجس بري. هذا غير الأزاليا البنفسجية ذات الوريقات الطويلة كالأصابع المشيرة إلى السماء.

كانت سارة تجلس بجانب تلك المرأة النحيفة ذات الوجه المصفر والملامح المتجمدة فوق الكرسي المتحرك في حديقة المستشفى الشاسعة. تنصت بشغف إلى حكايا أمها المستمرة لأختها وتتغاضى عن بضع دمعات غافلت كاتي وانزلقت سريعا وهي لا تتلقى ردا أو تعلقا. تراقب سارة وجه صوفي الذي لم يشف عن أي تعبير باستثناء تلك النظرة البعيدة إلى الفراغ. وتأتي إيزابيلا كذلك محمَّلة بحفنة حكايا. كانت تقرأ لابنتها من كتاب حكاياتها وهي طفلة، أندرسون وبطته القبيحة والامبراطور يسير عاريا في موكب مهيب.

بالإضافة إلى حكايا الحياة النومية ومقالب طفلتيها ميريت وكيميت. تعود إلى سارة تلك النظرة الغريبة في عيني جدتها. هل كانت أملا أم أسى أم إيماناً ما؟ إلى الآن لا تستطيع فك شفرتها.

«عارفة يا سارة إنها جابت حامل الرسم في الأوضة وكانت بتقعد تحكي لي وهي بترسم. ما كنتش باسمع هي بتقول إيه. لكن ريحة ألوان الزيت كانت واصلاني نفاذة جدا. يمكن الريحة دي هي اللي رجعتني للدنيا. وبعد ما رجعت لنفسي، الحياة ادتني كتير قوي. أو يمكن أنا ابتديت أشوف اللي كانت طول الوقت بتديه ليّ».

استكملت مبتسمة «تتصوري هنري ما كانش مصدق إن جالى انهيار عصبي في يوم من الأيام».

انسلّت سارة من حضنها بعد أن طبعت قبلة على جبينها. توجهت إلى الكمبيوتر ثانية و«صوفي» أنا ها أطبع لك بحث الساحرات اللي اشتغلت فيه الفترة اللي فاتت علشان آخد رأيك. خلص خلاص وبعته للجنة مؤتمر كامبردج. البحث ده أخدني من منطقة ساحرات العصور الوسطى والقهر في أوروبا وقتها لمصر في السنين الأخيرة، وبعدين رجع بيّ لمنطقة الكاهنات في الحضارات القديمة. شيء مذهل إزاي البشر قلبوا صورة الكاهنة -اللي كانت بتعتبر تجسيد بشري لإلهات العالم القديم، وطبعا لكل القيم الأنثوية الأمومية المانحة والحافظة للحياة- للصورة الضد، الساحرة الشريرة».

«الفكرة جميلة يا سارة. واضح من لمعة عنيك وإنت بتتكلمي إنه أكتر من مجرد بحث بالنسبة لك».

أمسكت سارة بالورق الذي خرج متتالنا من الطابعة وقلَّبت فيه وهي تخبر صوفي متفكرة «هو كده فعلا. زي ما أكون في اللحظة اللي باشتغل فيها على الفكرة كان كل كياني متأهب للحظة كشف. لحظة أوصل فيها لإجابات عن أسئلة كانت شاغلاني. كنت فاكرة مثلا إن الكهانة القديمة انتهت. لقيت لأ. كنت فاكراها لا تُورث. وهي كده بمعنى ما. لكن برضه لأ. البذرة بتبقي جوانا والمسألة بتتلخص في إذا كنا قادرين ناخد بالنا منها ونسقيها من مية قلوبنا ولا هنسيبها تموت».

سادت لحظة صمت جذبت عيني سارة إلى السماء خارج نافذتها. رأت القمر هلالا نحيلا كنون لا تزال في بداياتها. نون وليدة بلا نقطة. ه-ي الن-ون الفرع-ونية بعينها. تلك الم-وجات المت-لاصقة المتتالنة التي كان جدها نعمان يرسمها عندما تطلب منه كتابة الأسماء بالهيروغليفية. كانت تحب النون لأنها تشبه البحر. تستدير إلى جدها الذي أجلسها على فخذه أمام مكتبه العتيق وتمنحه قبلة سريعة وهي تضحك «إنت يا جراند با عندك اتنين نون في اسمك. وأنا باحبك قد البحر».

ترتفع ضحكة نعمان «النون فعلا تعني المحيط في المعجم يا سارة. الفراعنة كان عندهم الإلهة «نون» وهي المحيط الأبدي، البيضة الأولى اللي خرج منها العالم للوجود».

كلما اختلت بالمحيط وهي صغيرة تحاول تخيُّل كيف كان الكون كله محيطا مظلما كبيرا. ترسم في خيالها مشهد انفتاح بطن المحيط كي تخرج الأرض والأشجار والبشر، و....

عادت من شرودها على انحناءة شجن في صوت صوفي «ساعات بافكر يا سارة إن الكاهنة جوانا بتيجي مع الأزمات. لازم نعدي بوجع يهز كياننا. يمزعنا. ويتهيأ لنا إننا متنا علشان تصحى الكاهنة وتضخ دم جديد فينا».

ردت سارة بصوت خافت كأنها تحدث نفسها «اللون بيبقى لون بجد لما الكاهنة تشوفه. الوجع بيبقى موت والبهجة بتبقى دموع سخنة وحلوة وحية. تحسي ساعتها إنك رحم. الحياة جواكي بتنبض دم ودموع ومية وزرع. وإنت جوه الحياة زي ما تكوني جوه رحم أكبر بيولدك بدل المرة الواحدة مرات».

«الناس بتفتكر يا سارة إن فكرة الرحم تعني ست بس. لكن هنري مثلا، زي أبوك وأبويا، رحم قادر يبص طول الوقت للدنيا بطيبة. قادر يحوط الناس بقلبه ويدي حتى من جسمه بهجة للي بيحبه. لما اتجوزت هنري اكتشفت إن علاقتي الجسدية بجوناثان كانت ميتة. راجل حاسس بجسمه بس. مش قادر يحس الست اللي معاه. لكن وأنا مع هنري باحس إنه قادر يقرا لغة جسمي. إمتى زعلان وإمتى غضبان أو نايم وتعبان ومش عايز حد يصحيه. ساعات يبص لي ويقول لي شكلك الليلة دي محتاجة مساج بس. ويبقى فعلا مش عايز حاجة غير إنه يدلك لي عضلات جسمي المتشبكة في بعضها. لكن مع الحب اللي بيخرج من إيده لجسمي

وهو بيمر عليه بزيت اللوز ألاقيني عايزة الراجل ده دلوقت. عايزة أقول له إنه أكتر راجل مش أناني شفته في حياتي وإن نفسي أتعلم منه أكتر».

دخلت إلى سريرها فجرا وقد تراجع بعض الأسى. أطفأت النور ووضعت رأسها على المخدة. جاءتها لحظة إظلام الحجرة بتلك الغرفة في الفندق الإيطالى القديم في «بالدرمو». رغم إنهاكها حاولت دفع الصورة بعيدا. لكن المشهد أصر على الحضور بكامل جلائه. نديم يراقصها على أنغام بيانو عتيق في ساحة الفندق المفتوحة على البحر وعلى أعين باقي الزبائن الإيطاليين الذين ابتسموا لهما بسعادة من يتذكر بدايات العشق. كانا قد شربا زجاجة نبيذ إيطالى أحمر معتَّق وضحكا حتى دمعت أعينهما، ثم قررا التجول في حديقة الفندق. مال نديم نحو وجهها فانقضت على شفتيه تقبلهما عندما قاطعها «إنت ما فيش عندك حضن حاف يا سارة. فيه لحظات ممكن تبقى رومانسية من غير أغراض».

انفجرا في نوبة ضحك طويلة وهي ترد من بين ضحكاتها «وهو البوس ضد الرومانسية. إيه المفاهيم المغلوطة دي يا نديم! طب بس تعالى ومش هتندم».

عندما عادا إلى الغرفة ذات الجدران العالية المغطاة بورق حائط كلاسيكي التصميم باهت الزرقة ولوحتين للبحر في أطر مذهبة عتيقة الطراز، شعرت سارة أنهما يخطوان عبر حاجز الزمن إلى قبل مائة عام على الأقل وإلى مكان طيب للغاية. مكان لم يشهد حروبا أو دماء أو قلوبا تئن. خرجت إليه سارة في الشرفة الكبيرة في قميص نوم بنفسجي قصير. جلست على ركبتيه وحوَّطته بذراعيها ليشاهدا عتمة البحر تحتهما. وعندما استدارت إليه نظر طويلا إلى عينيها العسليتين حيث تتابعت موجات الرغبة والحنان. مسح على وجنتيها بأنامله وقبلها.

في الداخل كانت شمعة وحيدة في انتظاره وسرير مغطى بمفرش مذهب وامرأة في قميص بنفسجي تأخذه إليها حسب مشيئة العشق. شهدت الغرفة الزرقاء جسدين ملتحمين كأنهما موجة بحر واحدة. تبدأ الموجة هادئة. ترتفع وتنخفض فيبدو أنها قد ذابت في موجات أخرى لتعود ترتفع من جديد دافعة بقوة كل الموجات أمامها إلى رمال الشاطئ. علّمها نديم كيف تفك قبضة العقل من حول جسدها ليخلق إيقاعاته الخاصة. كم كانت رائعة تلك اللحظات التي تلاشت فيها الأفكار والهواجس ولم تبق إلا رائحة مالحة لجسدين يعلوان ويهبطان في إيقاع متناغم. يتصاعد الإيقاع نحو ذروة تنفجر في سمائها قاتمة الزرقة ملايين النجوم الفضية. ذروة واحدة لاثنين تنطلق منها صرخة سارة وهي تشده إليها محكمة من قبضة جسدها حوله. تعود إليها ضحكة نديم وهو يحذرها «يخرب عقلك الفندق هيطردنا بسبب الدوشة اللي إنت عاملاها».

لكن مع نهاية ضحكته لاحظ دموعها المنهمرة. جلس على السرير وجذبها بين ذراعيه. دسَّت رأسها في صدره. جسدها ينتفض بشهقات مكتومة خرجت من بينها الكلمات مرتعشة «خايفه يا نديم!».

تعود إليها الدموع الآن أكثر سخونة وتتابعًا. منهكة هيّ إلى حد عدم استطاعتها إيقاف السيل الساخن. هل لو تركتها تنهمر ستنهي نفسها فيجف الألم؟ انسحبت إلى عالم العتمة وشفتاها ترتعشان فوق المخدة البيضاء التي احتفظت ببقع مصفرة على أطرافها. لم تر بضع فراشات بنفسجية تلعب وتدور في أركان الحجرة وحول رأسها.

ولم تشعر باقترابي بهدوء نحو سريرها. قبلتها فذقت لذعة الملوحة على وجنتيها. بدأت أهدهدها بأغنية ليلية ستصحو وقد تذكرت بعض كلماتها:

الحب يطلب من كل محب

لحظة صمت محفوف بالسرية

للتأمل في روية.

ماذا ينشد الجميع بكل حمية؟

إنه الحب ما ينشدون.

وعن أي شيء يتهامسون؟

عن الحب همساتهم

والحب في أعمق أعماقهم.

وفي الحب ما عاد هناك «أنت» و«أنا»

فالروح قد عادت للحبيب.

آه لو أنني كشفت النقاب عن وجه المحبة

وفي معبدي القائم في سويداء القلب

عانقت الحبيب.

يا له من حب بلا نظير.

ألا إن من يعرف سر الكونين،

ألا إنه سوف يعرف أن سرهما

في المحبة... كامن.(٧)

(5)

شيء ما فوق الطاقة

كجواد شموس

أو كيان وحشي مباغت

بدأ يضطرب... يدور

يمنة ثم يسرة

كأنما سيمزقها وينبجس منها

تتوقف

علها تتوازن من هذا الدوار.

أغلقت عينيها

كأنما لهب لا يزال معها

حضوره يسري فوق جسدها

لهيب يعدو فوق زيت

شعورها بقربه رغم الغياب

وبحنان صوته رغم البعاد،

شيء تتنفسه

تحت عباءة قربه..

عباءة من حرير.(٨)

في طريق العودة إلى البيت بعد انتهاء الجنازة كان شعور يشبه الخواء يعود ليقترب من نورا ببطء الأفاعي المتسللة في حلكة الليل. كأنها تخطو متثاقلة في قلب غيمة سوداء لا ترى داخلها أبعد من موقع قدميها. أزاحت الغيمة شعورًا يشبه السعادة كان قد غمرها طوال الأسبوع الماضي عندما انهمكت في تحضير العروسة الممثلة لل»مرحوم». انتقاء القماش الرمادي. تحديد مقاس الهيكل والقص ثم «حشيتها شرابات قديمة من عند أمي.. ما يستاهلش أكتر من كده» كما أخبرت صاحبتيها.

كان خالد مصاحبًا إياها طوال ذلك الوقت. لكنها لم تعد تذكر له أشياء جميلة. لا تتذكر إلا أيامهما الأخيرة معا. المشادات. إفشاؤه أسرارا كانت قد منحته إياها بثقة كعطايا للحب. المهانة والتجريح الذي صاحب الطلاق. ما استغربته أنه بعد مرور عام على

انفصالهما بدأ يطلب رقمها ولم تكن ترد. ثم أخذ يلاحقها برسائل محبة على الموبايل فكانت تضحك وتغتاظ. كان يعتذر ويقسم أنه لم يحب امرأة كما أحبها. لكن المسألة لم تعد تنحصر فيما إذا كان صادقا أم لا، ولكن في أنه «مش هيتغير حتى لو رجعت له» كما أخبرت دنيا. وعندما صاحبها في إجراءات الجنازة لم تمانع وجوده كعادتها لأن شعور الارتياح كان أقوى منه وهي ترى أطراف العروسة التي صنعتها تتآكل تحت وطأة اللهب وتتهاوى رمادا إلى سطح النيل ثم إلى القاع.

أدارت كاسيت السيارة فجاءها صوت «شيمن بادي»:

اللي بينّا

ابتدى من إيدينا

كل إيد تلمس التانية بخفة

من هنا اتفقنا على أول وصال بينّا

آدي اللي بينّا... آدي اللي بينّا

استحضر الالتياع في صوت «بادي» ملامح خالد وقد فاجأها بحضن من الخلف وهي تغسل صحون العشاء. أنفاسه الحارة تمر على انحناءة رقبتها برهافة قبل أن يمس جلدها بشفتيه. أصابتها رجفة. دفعت بوجهه بعيدا فجاءتها بعناد ذكرى تلك الليلة التي مارسا فيها الحب فوق رمال صحراء «دهب». وحدهما تماما في عتمة الليل وزجاجة نبيذ تغوص في قطع الثلج المتلألئة تخرج من سيارته مفتوحة الأبواب. أغنية «شيمن بادي» نفسها تأتيهما من كاسيت السيارة وهو يخلع عنها ملابسها «عايز أشوفك زي آدم ما شاف حوا».

انتابتها حالة من الحرية لابد أنها تشبه حالة حواء أو أي امرأة من قبيلة بدائية لم تعرف الجنس إلا في حضن الطبيعة. كان صوت تأوهاتهما مختلفا على خلفية من فراغ شاسع وعتمة تضيئها فضة نجوم لا حصر لها. هل كان الصوت أكثر عمقا! هل كان مصحوبا بترددات صدى الصحراء أم هدير الرغبة وهو يدخلها بهدوء ويرتد قليلا ثم يعود! حتى ملمس الرمال التي علقت بجسديهما كان غريبا ومثيرا. بدا لنورا وقتها كأن حبيبات الرمال قد تواطأت معه على جسدها فأخذت تدغدغه وتلهو بمسامه بنعومة ماكرة. تسمع الآن صوتا بريًا واحدا يخرج من جسدين. وترى نفسها مخطوفة الأنفاس تتهاوى من فوقه إلى الأرض وقد تمدد كلاهما مفرود الذراعين ووجهه يعانق السماء. لم تمر علىها ذروة بهذا العنف. هل كانت تشبه لحظة خروج الروح أم هي لحظة دخولها! انتبهت إلى دمعة كانت قد غافلتها وسقطت إلى طرف فمها. مسحتها سريعا وزفرت وهي تغلق الكاسيت وتدير الراديو. كانت أم كلثوم تتساءل:

أغدًا ألقاك

يا خوف فؤادي من غدي

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد...

مدت يدها لتغلق الراديو، لكنها تراجعت بزهق. يتكثف شعورها الآن برفض العودة إلى البيت حيث تنتظرها تهاني بنظرات لوم على التأخير؛ لن تلبث أن تتحول إلى كلمات تجذب نورا إلى مشارف معركة جديدة. أما أبوها فسيظل في غرفته صامتا بعد أن قام بدوره بإتقان وأشعل فتيل غضب امرأته بتلميحات عما سيقوله الجيران عن تلك المطلقة التي تعود يوميا إلى البيت بعد منتصف الليل. لم ينس أبدا أنه كان ضابط شرطة خرج من الخدمة مرغما ودونما مبرر. كأن الأمر والنهي والثقة التامة في أنه المسيِّر الوحيد لمجريات الأمور قد طُبعت كالوشم فوق عقله. تعرف نورا جيدا أنها هزيمته الكبرى. ربما هي هزيمة أكبر من المعاش المبكر. رغم تمردها على أوامره إلا أنها كثيرا ما تشعر بالشفقة علىه. ودت لو كانت مصدر سعادة له، لكن الثمن باهظ. ثمن.... قطع خيوط أفكارها المتشابكة رنين جرس الموبايل وصوت مدحت «بتعملي إيه يا نورا. ما تيجي أخرجك شوية».

لم تفته في صوتها نبرة سخرية «ومراتك فين يا مدحت؟».

«هو أنا باخد الإذن ولاّ إيه! عايزة تخرجي ولاّ لأ؟».

جلسا في بار الميريديان الصغير خافت الأضواء المطل على النيل. كان المكان هادئا إلا من صوت البيانو وهمهمات زبائن آخر الليل. قبل مرور نصف الساعة كانت قد انتهت من زجاجة البيرة الأولى وطلبت الثانية. رشف مدحت النبيذ الروزيه على مهل وقد سرح بعيدا. استدار إليها وقد شف صوته عن مسحة دفء «وحشتيني».

لم تتركها الابتسامة المتهكمة وهي ترد ببرود «كتر خير حضرتك. ومراتك بقى عارفة إن أنا وحشتك».

حاول أن يكتم انفعاله «مالك يا نورا. إنت بتعاقبيني كإن أنا لوحدي كنت السبب إننا ماتجوزناش!».

لوت شفتيها في حركة تهكم واضح «إلَّا صحيح هو إحنا سبنا بعض ليه!».

«نورا أنا مش باتكلم في مواضيع خلصت. أيوه بتوحشيني. لكن إحنا أصحاب وأنا باحاول أكون جنبك في وقت صعب و...».

قاطعته محتجة وشرارات جمر «سخمت» الأحمر تطقطق من عينيها «أولا أنا مش في وقت صعب. موضوع خالد انتهى من أكتر من سنة. ثانيا أنا مش محتاجة شفقة من حد».

«تصدقي إنك ساعات بتبقي غبية. مين قال إن دي شفقة. إيه اللي يجبرني! ثم مين قال إن الحاجات بتنتهي علشان مر علها سنة أو اتنين. المهم إنها تنتهي جوانا».

علا لهيب «سخمت» فطاول السماء «هو إنت قررت تسيب السياحة وتشتغل طب نفسي! وبعدين ما تقلقش أنا كويسة يا مدحت».

«ولما إنت كويسة مالك منفعلة كده ليه! ده إنت شوية وهاتقومي تضربيني».

لم يكن مخطئا. لو كان بإمكانها أن تقتل فتلك هي اللحظة المناسبة تماما. كانت «سخمت» تتوهج بنيران الغضب تجاه كل الأشياء وكل البشر ، بينما تجز نورا على أسنانها «مدحت ياللا قوم وصلني لعربيتي أنا لسه عندي خناقة قبل النوم مع أمي».

في طريقها إلى المعادي أشعلت نورا سيجارة بانجو كانت قد خبأتها في تابلوه السيارة. مع زفرات الأنفاس الأولى بدأت تشعر ببعض هدوء لم يلبث أن تنامي مع دخولها إلى شوارع المعادي الهادئة التي تشبثت بعناد ببضع أشجار على الجانبين. عندما اشترى والدها تلك الشقة في المعادي الجديدة لم يسلم من استغراب أسرته وأصحابه، إذ إنها كانت أشبه بالسكن في الصحراء. لم يكن يكسر سكون المكان في تلك السنوات إلا صوتها وهي تصرخ وراء الكرة الصغيرة مزاحمة أخيها ناجي وأصحابه. كانوا يلعبون في ذلك المكان الذي احتلته الآن بناية كبيرة تستضيف أسفلها مطاعم الوجبات السريعة والزحام. تعود دوما بجروح وكدمات على ساقيها والركبتين فتستقبلها تهاني بالصراخ المألوف الذي لم يخفها يوما «مش هاتبطلي لعب الأولاد ده. إنت بنت!».

لم تفهم نورا أبدا من أين أتت بهذا القدر من الاستهزاء بوجهة نظر أمها منذ كانت صغيرة. ربما السبب هو جدتها لأبيها التي كانت تحتضنها بحنان وتردد أن تلك الشيطانة الصغيرة ستصبح «أجدع من ميت راجل». وربما لأنها كانت تخرج أخاها دوما من المآزق التي أدمن إيقاع نفسه فيها. تجري وقتها إلى الساحة الشاغرة- «الملعب» كما أسموها- وتتشاجر مع باقي الأولاد. لكن الأمر توقف في ذلك اليوم الصيفي الحار عندما عاد ناجي باكيا بعد إحدى معاركها. من بين نهنهاته أخبر أمهما «نورا بتكسفني والولاد بيقولوا عليّ بنوتة».

أعطتها تهاني موالا عنيفا من التوبيخ. استمعت نورا إلىه صامتة كأنما تطيل حبال صبرها على طفلة غبية وحين انتهت أمها لم ترد إلا ببضع كلمات «الحق عليّ.. خليهم يقطعوه».

ثم التفتت إلى أخيها الباكي «وإنت... إياك تيجي تشتكي لي تاني».

لوت شفتيها فيما يشبه الابتسامة الساخرة وهي تطفئ السيجارة في مطفأة السيارة. لم يعد لديها طاقة للشجار.

«بس على الأقل عندك طاقة ووقت للقراية يا نورا. إنت واخدة بالك إنك بطلت تقري من زمان!».

ابتسمت لكلمات سارة وهي تلتقط دواوين محمود درويش وروبرت فروست التي أعطتهما سارة إياها منذ أيام. في كل مرة تعود إلى البيت تنسى الكتب على الكنبة الخلفية للسيارة. دخلت من باب البناية الحديدي وهي تفكر في سارة التي تعيش عالما وهميا من صنعها وتريد إقناع الجميع أن هذا هو العالم الحقيقي. هي لا تعرف إن كانت تحب القمر أم لا. ربما تحب شكل استدارته عند الاكتمال لكنه يغرقها في حالة من الكآبة تأخذ منها أياما كي تخرج منها. هل يمكن أن تتفرغ له ليلة كاملة بطقوس خاصة مثل سارة «الرايقة» كما وصفتها دوما. تذكرت رسالة سارة إلىها في الرابع عشر من كل شهر «لسه فيه سحر في العالم». ضحكت «هو فين السحر ده! حد يدِّيني أمارة».

حدثت سارة في غيابها وعلا صوت تهكمها على درج البيت الهادئ «لا يا ماما تعالى أورِّي لك العالم اللي بجد. عالم العمولات في السياحة. عالم مديري ابن الكلب اللي ماصص دمنا. عالم الرجالة اللي عايزين الحرق. عالم الكبار اللي سارقنّا».

ما إن دخلت البيت حتى رأت جسد أمها الممتلئ منتصبا بتحفز في الظلام. وقد ركنت يدها اليمنى على وسطها مهددة «الساعة اتنين ونص الصبح يا نورا».

لم ترد. دخلت إلى غرفتها وتأكدت أن أمها قد سمعت صوت المفتاح وهو يدور مغلقا الباب. خلعت ملابسها بينما رأسها يدور خفيفا في فوضى أركان الحجرة. أفسحت لنفسها مكانا على السرير وسط أكوام الملابس التي رفضت الدخول في الدولاب على مدار الأسابيع الماضية. رقدت عارية. أغمضت عينيها لوهلة مستمتعة بالدوخة التي أسقطت الكثير من الغضب. تنفست بعمق وهي تخرج ديوان فروست وتفتحه بشكل عشوائي،

قال المطر للرياح

«ادفعي أنت بينما أوجه صفعاتي»

وكان أن ضرب كلاهما أرض الحديقة

حتى انحنت رقاب الورود.

رقدت حتى لامست وجناتها الأرض

ولم تمت.

أعرف تماما كيف شعرت الورود.

زفرت وهي تغلق الديوان ونور الأباجورة «مش ها أطيّر الدماغ معاك يا فروست».

أخذت تتقلب في السرير. عصاها النوم. وتوالت الصور على رأسها بلا ترتيب. مدحت وهو يوصّلها إلى سيارتها وقد بدا علىه الغضب المكتوم. تحب فيه الطيبة لكنه ضعيف مثل كل الرجال الذين عرفتهم. انفصلا عندما اختلف مع أبيها حول تفاصيل المهر والشبكة وكان لديها استعداد أن تفعل الكثير من أجله. لكنه تراجع وهو يردد أشياء عن كرامته. ولم تكن لتطارده لإقناعه بإتمام

الزيجة. خالد ونذالته التي أفقدتها الشعور أنها مع رجل بإمكانه أن يحميها «لأ ده كمان هو اللي خان الثقة. مافهمش أي حاجة من اللي حاولت أعلمها له». حتى حسام الذي لا يفتأ يدوّر على امرأة يحبها وهو متزوج. هل هكذا الرجال.. يريدون من الدنيا كل الأشياء وليسوا على استعداد لدفع ثمن ما رغبوا!

احتضنت جسدها وانسحبت إلى نوم متقطع يحمل شظايا أحلام. لا تتذكر منها عندما تصحو على فترات إلا حمامات مذبوحة العنق ومكدسة فوق بعضها البعض؛ في كومة كبيرة يلطخ أبيضها الدماء بينما تغوص بيديها في الجيفة بحثا عن إحدى الحمامات الحية ورائحة الموت تصيبها بالغثيان. تتذكر أن وجه خالد بابتسامته الصفراء كان يتابعها من بعيد. تفيق قليلا على يديها وقد التفتا حول جسدها وعلى افتقاد لذراعيّ خالد وقد حوطتا خصرها بعد ليلة من موسيقى ونبيذ وعشق ساخن.

اقتربتُ بهدوء من سريرها. لففت ذراعي حول جسدها وأخذت أربت رأسها لتعود بعد رجفة يقظة إلى النوم.

أعرف أن شبح الوحدة يعود إلىك. ولا تعرفين كيف تختبئين منه مثلما تفعلن مع أشباح أكثر تواجدا داخلك منه. ترفضين الدخول في العتمة. تخافين الأفعى وربما تخمنين ما تحويه أول السراديب. هل يعرف حدسك أنك سترين أباك وأمك هناك! كانا ولا يزالان ضعيفين. بعثرا أموالا كثيرة على مشاريع فاشلة. ذهب معظمها إلى أخيك ومكتب الاستيراد والتصدير الذي لم يستطع إدارته. لم يحققا لك عيشا مريحا بل تحملت أنت كل العبء. لم يعلما أخاك كيف يكون رجلا فرفعته فوق كتفيك حتى بعد أن تزوج وأنجب. لم يريا فيك إلا تلك الشيطانة الصغيرة بحاجة إلى تهذيب. سترينهما الآن بلا انشغال حقيقي يملأ أيامهما ويزيح عنك ثقل الاتكاء على وجودك. سترين ضعفهما وسيؤلمك حبك لهما ورغبتك ألا تخذليهما. يكفيهما خذلان العالم وأخيك. لكنك أيضا لا تحبين الضعفاء. لا تكنين لهم أي احترام. وقد يكون هذا سببا لإنكارك أنك قد تشعرين أحيانا بالهشاشة. كل من حولك يراك قوية، وأنت تحبين تصديق تلك الفكرة. ولهذا لا تزالين تشعرين بالوحدة في كل الأوقات لأنك، مع أصحابك، تأبين البكاء.

هل تعرفين أن ذاك الشبح يرقد في الظلام وراء أول أبواب المعبد. عند اقترابك سيغرز أنيابه فيك. ربما لو استمعت إلى صوتي لأزاح عنك بعض الألم وأبعد عنك «سخمت» المنتقمة التي أراها تقترب منك وأنت لا تلحظين. باستطاعتي أن أمسح الدم عن جروحك وأغسلها في ماء البحيرة المقدسة في قلب المعبد. أجففها وأدهنها بعسل النحل الرائق فتلتئمين. كم أود لو تمدين يديك وتأتين بي من تلك المنطقة المعتمة فيك فأخرج إلى ضوء النهار. ساعتها ستتلاشى «سخمت» كرماد تذروه رياح الطيبة. سيصبح بإمكاننا عندئذ أن ندخل معا إلى سراديب أخرى وقد تشابكت أيدينا وسرى تيار من الدفء بيننا. ستخف حدة الألم على مهل وتنفتح أبواب جديدة ربما تخفي كنوزا تدهشنا معا.

(٦)

جاءت «سيدة الرؤى» عبر القرون تتفقد حال أبنائها

فهالها ما رأت. همست إليهم بحسرة

«كان هناك زمن لم تكونوا فيه عبيدًا. تذكروا.

تذكروا وقت مشيتم وحدكم والضحكات تتدفق منكم

واستحممتم في البحور ببطون عارية.

تقولون إنكم نسيتم هذا الزمان تماما. تذكروا.

وقتها كنتم تجيدون تحاشي دب بريّ في الغابة.

تعرفون خوف الشتاءات عندما تتجمع الذئاب.

وتجلسون بالساعات فوق قمم الأشجار في انتظار الصباح.

الآن

تقولون لا كلمات بإمكانها أن تحكي عن ذاك الزمان.

تقولون إن زمنا كهذا لم يحدث أبدًا.

لكن تذكروا. ابذلوا جهدا للتذكر.

وإن خذلتكم الذكرى

اخترعوا زمنًا كهذا».(٩)

خرجت دنيا من مبنى «ملتقى المرأة» وقد تملكها شعور جارف بالبهجة. حاولت أن تتذكر متى كانت آخر مرة شعرت فيها بمثل تلك الخفة. كأن جسدها هواء. كأن الأرض سحابة رهيفة من ريش العصافير تغوص فيها بقدميها. ربما عاشت ذاك الشعور منذ سنوات عشر عندما أحبت جهاد وهي طالبة فنون جميلة.

تنفست بعمق فخرج الهواء من صدرها سهلا غزيرا. لم يأخذ منها الأمر أكثر من دقائق معدودة قضتها مع بيسان مديرة الملتقى التي لم يبد عليها الاقتناع بكلمات دنيا «مش هاقدر أساعد الفترة الجاية في شغل الملتقى. أنا مشغولة جدا اللومين دول. لأول مرة أنا مشغولة بنفسي. دنيا محتاجة ليّ».

لكنها لم تستكمل «والعصافير محتاجين غذا ومية وهوا..». خوفا على المرأة من احتمالات صدمة عصبية تأتيها وهي ترى الفتاة التي طالما قالت عنها إنها أذكى الناشطات في الملتقى وأكثرهن تحمسا للقضية تقترب من هاوية الجنون. نظرت إليها بيسان بدهشة ممزوجة بالاستنكار وصحبت دنيا حتى باب حجرتها في صمت بعد أن استنفدت محاولات الإقناع.

خرجت دنيا إلى الشارع وهي تتنفس بعمق كأن حجرا كان راقدا فوق صدرها لسنوات طوال قد انزاح فجأة، ولم تكن لتدرك وجوده إلا مع غيابه. تلك هي أولى المرات التي تشعر أثناءها دنيا بعدم الرغبة في تبرير نفسها. ابتسمت وهي تتذوق للمرة الأولى حلاوة الكلمة الجديدة «لأ.. لأ».

كادت أن ترقص على إيقاع الكلمة. وبدأت تدندن لنفسها بصوت خفيض:

عصفور طل من الشباك

قال لي يا نونو خبّيني عندك خبيّني.. داخلك يا نونو

خبيني عندك خبيني.. داخلك يا نونو

نزلت ع خده دمعة وجناحاته متكية

اتهدي بالأرض وقال بدي أمشي وما فيّ

وصاحب الشعور بالبهجة شيء يشبه الاستغراب. غريب أن تستمتع بالقرار وهي التي منذ وعت على العالم، لم تتوقف عن النبش عن أماكن تجمع الفلسطينيين وعن إفساح مساحة لها بينهم. لم تترك فرصة جاءتها إلا واستغلتها. فكانت منذ أيام الجامعة تملأ يومها ما بين ورشة بحثية حول تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي. أنشطة في «اتحاد الكتاب والصحفيين». حتى الدبكة الفلسطينية تعلمتها عندما انضمت لفرقة كانت تدربها فنانة فلسطينية تعيش في القاهرة. وبالطبع العمل في «ملتقى المرأة» ومؤخرا «اللجنة الشعبية للتضامن مع الانتفاضة».

بدي أمشي ومافيّ

ضميته ع قلبي وصار يتوجع ع جروحاته

قبل ما يكسر الحبس.. كسر صوته وجناحاته

لم تشعر برغبة في إيقاف تاكسي أو حتى تحديد وجهتها. ما تعرفه فقط هو أنها ترغب في المشي. ربما في اتجاه النيل. تحب كورنيش الجبلاية رغم الأسوار التي تقف بينها والنهر. كان الجو شتويا ذا برودة خفيفة وعطر يشبه رائحة الأرض يجيئها من المشاتل الراقدة في استكانة على الضفة «يا سلام لو الدنيا تمطر!».

اتسعت ابتسامتها. ثم انحسرت قليلا «بس صعبان عليّ كل السنين اللي قضيتها باشتغل علشان فلسطين وعلشان ستات محو الأمية».

«وهي السنين دي ضاعت؟».

صمتت لوهلة ثم «لأ. أكيد اتعلمت منها وعلّمت فيّ».

«وهو إنت هتقعدي ساكتة. ما انت هتدوَّري على أماكن تانية تشتغلي معاها بس من غير خنقة».

«يظهر إني فعلا لازم أفكر نفسي قد إيه كنت مخنوقة من التضييق عليّ. طول الوقت نفسي أعمل مشاريع والإدارة مش سايبة هامش حركة. لو كنت من «فتح» كانت الأمور بقت أسهل».

«دول بيلعبوا سياسة. واللي كنت بتعمليه ماكانش اسمه سياسة. على الأقل مش بمفهومهم».

«أنا فعلا طول عمري باكره السياسة وألعابها القذرة. أنا ما كنتش عايزة سلطة».

«إنت كنت عايزة تحسي إنك في وسط ناس شبه أبوك. إنك بتعملي حاجة لبلدك».

أفاقت دنيا من انهماكها في الحوار على مصمصة شفاه قربها. التفتت لتجد عجوزا وزوجته الضخمة ذات الأرداف الثقيلة يتعجبان من حال الدنيا وقد وصلتها نهايات جملة المرأة «ياحول الله يارب. شباب زي الفل وشوف جرالهم إيه يا خويا!».

ابتسمت وهي تضرب رقم سارة وتبادرها «حوشي عفاريتك عني يا ولية. بقيت أكلم نفسي في الشارع».

جاءتها ضحكة سارة «لوعايزه تعدي عليّ تعالى نتغدى مع بعض أنا طابخة النهارده».

«عندك أكل بجد؟».

«سلاطة رنجة يا بت».

«لا ده أنت تعبت قوي».

في الطريق إلى سارة لاحظت دنيا ازدياد كثافة الغيمات التي حجبت وجه الشمس وزادت من برودة الهواء. صعد بها المصعد الطوابق الثلاثين وهي لا تزال تدندن بالأغنية:

قلت له لا تخاف اتطلع

شوف الشمس اللي عم تطلع

اتطلع ع الغابة وقال أمواج الحرية بتلمع

وجدت سارة قد تركت لها الباب مفتوحا. دخلت لتجدها واقفة عند نافذة غرفة المعيشة المطلة على النيل وقد مدت جذعها خارج النافذة تتلقى قطرات المطر على وجهها «تعالى يا دنيا خدي شوية بركة. صحيح المطر نازل طينة من السما بس بركة برضه..».

وكان صوت أميمة خليل يتردد بخفوت في أركان الغرفة:

شاف جوانح عم بترفرف من خلف جناح العلة

لما لم ترد دنيا التفتت سارة لتجدها مسمّرة في مكانها. نظرت إليها مستفهمة ودنيا تلملم الكلمات «ده أنا لسه كنت باتمنى شوية مطر... والأغنية دي كانت على لساني دلوقت!!».

ضحكت سارة بسعادة «بتكلمي نفسك في الشارع وبتتمني المطر والأغاني فييجوا. «حتحور» شغالة الله ينور».

ما إن جلست دنيا حتى بدأت الحكي عن بهجتها وعن هذا الشيء الذي يشبه الاستغراب «مشيت يا سارة وسبت ورايا أكتر من عشر سنين حضّرت فيهم لندوات. قريت في التاريخ، كلمت ضيوف وجريت على الجامعة وأنا فرحانة أعلق إعلانات الندوات والسعادة اللي كنت باحسها لما أشوف ناس جديدة أول مرة تحضر. ولاّ الستات في دروس محو الأمية في المرج وإمبابة. مش بس فلسطينيات. لأ ومصريات كمان. يمكن علموني عن الدنيا أكتر ما علمتهم. بس أنا سعيدة جدا ومش فاهمه ليه!».

«حتى بعد الكلام مع «حتحور» برضه مش فاهمة؟».

«إنت خلاص خليتيها «حتحور» اللي كنت باكلمها!». علت ضحكتها.

كان الهواء البارد المندي برائحة المطر يربت وجه دنيا بخفة ويتسلل إلى رأسها بمسحة صفاء. تراجع وشيش أفكارها ليترك مركز الدائرة لفكرة واحدة. أن ما فعلته اليوم كان انتصارًا لها على خوف كان قد ضرب بجذوره في عمقها. خوف رمت أمها بذرته فيها وسقتها على مر السنين بماء خوف جديد. خوف من أعمام قد يأتون ويأخذونها وإخوتها. خوف أن يرفضها البلد الوحيد الذي عرفته ولم تحمل أبدا ورقة تؤكد انتماءها له. وخوف أمها الدائم من الناس لو قالوا «ماعرفتش تربي». لقد كانت تبحث طوال عمرها عن مكان بلا خوف. وفي الملتقي وجدت بدلا عن الخوف قهرا.

خرجت من دنيا زفرة عميقة. الآن تكاد أن ترى أشباح الخوف تتقهقر لتفسح مكانا لا مكان فيه لأن تبرر نفسها. مكانا لن يرفضها لو قالت «لا». حتى يقينها بفرحة أمها القادمة بهذا القرار لا تهم كثيرا. ستسعد سميحة بقرارها ولكن مع التحفظ المعتاد. التفتت إلى سارة التي خطت نحوها بطبق الرنجة والعيش البلدي الساخن «بس أمي طبعا ها تحذرني إياك أطلع في مطلوع جديد زي عادتي».

وارتفع صوتها في نبرة حادة سريعة مقلدة سميحة «أصلك ما تعرفيش تبقي زي البنات العادية».

ضحكت سارة ودنيا تستكمل «مش فاهمة إيه المتعة إني أبقى زي البنات العادية!».

كانت تكتشف أن قرارها ألا تكون مثل باقي البنات ترجع جذوره إلى ما قبل تلك اللحظة بسنوات وحتى قبل معرفتها بسارة. تحديدا عندما عقدت تلك السلسلة من المقابلات مع نساء فلسطينيات هن سجل الحكايا المتبقي من زمن وصراع لم تعشه. عكست عيناها لمعة إدراك وهي تسترجع تلك الفترة «الستات دول يا سارة كانوا نماذج صادمة بالنسبة لي».

كن بالتأكيد النموذج الضد لأمها المؤمنة بقوانين علب السردين. وأول تلك النماذج هو باسمة التي لم تترك مصر إلا بعدما علَّمت دنيا الكثير. كانت شاعرة ومناضلة يسارية واعتقلت في فترة من حياتها وعذبت في السجون الإسرائيلية ولم تفقد حلاوة روحها. كانت تدير العمل البحثي في الملتقى بشكل نشط. هي التي منحت دنيا ثقة العمل في هذا البحث مع أخريات. لن تنسى دنيا أبدا ذلك النموذج الذي أصلح داخلها شروخا قديمة.

«واحدة زي باسمة يا سارة لسه باتعلم منها حتى بعد ما سابت مصر من سنين».

أنصتت سارة لحديث دنيا عن الأخريات اللاتي قابلتهن في إطار ذلك البحث. أول من حضرها كانت تلك التي رأتها وقد تعدت السبعين في بيتها في مصر الجديدة. كانت قد عرفت عنها أنها متقلبة المزاج
و لو لم تحب أحدا من الممكن أن تطرده وتقرر ألا تراه ثانية. اندهشت دنيا وقد ابتسمت المرأة في وجهها بود. وعندما خطت إلى الداخل كان أول ما قابل دنيا في البيت هو تمثال لعبد الناصر وصورة له. عرفت دنيا أنها هي التي صنعتهما كما رسمت تلك الصورة لرجل آخر، حكت لدنيا أنه المصري الذي قبلت الزواج به بعد استقرارها في مصر في الخمسينيات وبعد سنوات من إلحاحه ووقوفه أمام نافذتها تحت المطر. ولم يخفى على دنيا أنها قد وقعت في غرام ذلك الرجل الذي توقفت الأيام بعد وفاته في أواخر الستينيات كما أعلنت النتيجة القديمة على الحائط المصفر ذي القشور المتساقطة إلى بلاط الغرفة.

«خالتو هانية كانت مع منظمة فدائية بتشتغل ضد العصابات الصهيونية قبل٤٨. أول ست لبست بنطلون في يافا واتلثمت وشالت سلاح ومترست خشب حوالدن القرية. كانت بتتكلم يا سارة على العمل الفدائي كأنه حصل إمبارح. كإن اللحظة لسه مستمرة جواها».

ابتسمت سارة بسعادة رغم معرفتها بمدي أهمية ذلك النشاط لدنيا. فها هي تراها تتخذ قرارا نابعا منها. كانت سارة لا تزال على قناعتها التي صرحت بها دوما إن العمل العام، رغم أهميته، لا يجب أن يأتي على حساب أنفسنا واحتياجاتنا الأساسية. ودنيا كما أعلنت لبيسان قبل ساعات : «محتاجة لي».

كانت قطرات المطر الخفيفة قد تحولت إلى زخَّات قوية دخلت باطمئنان إلى الأرض وأطراف الكنبة الملاصقة للنافذة العريضة المفتوحة
و إلى أصص البوتس وشجرة البنجامينا الكبيرة. تابعت سارة مسيرة المطر مبتسمة.

قامت دنيا من مكانها مقتربة من سارة: «هاتي حضن».

فتحت سارة ذراعيها واندست دنيا بجسدها النحيل في حضنها بصمت. تنفست دنيا بهدوء وسارة تلف ذراعيها حولها وتقبل شعرها الأسود الفاحم. ثم بدأت تمسد ظهرها برفق من أعلى إلى أسفل كما كانت إيزابيلا تفعل منذ صغرها. خرج من دنيا زفير طويل أتى بغُصة إلى حلقها ولمعة دموع في عينيها. جاءها صوت سارة الهادئ كأنما من مكان بعيد،

«يمكن السؤال اللي محتاجة تطرحيه على نفسك دلوقت له علاقة بإذا كان بحث دنيا عن أمان يمكن خلاها تنسى بحث أهم، بحثها عن نفسها. نسيتي دنيا الست والإنسانة. بتفتكري الأخيرة لما حد من أصحابك يحتاجلك زي ماكنت معايا في أزمتى. لكن البحث ما ينفعش يبقى بره قبل ما يبقى جوه. في زحمة الاجتماعات والمظاهرات إنت فين !».

«أنا في كل ده يا سارة».

«ده حقيقي. بس مش كل الحقيقة».

«مش عارفة!».

«مش متأكدة يا دنيا حتى شكل علاقتك بأنوثتك إيه. بصي للألوان اللي بتلبسيها. إسود ورمادي ويمكن أزرق. كإنك مش عايزة حد يشوفك».

بنصف ابتسامة تذكرت أحمد وهو يخبرها «باحس بيكِ زي واحد صاحبي».

فكرت أنها عندما تكون معه يصبح للوقت مذاق الشهد. يستمعان إلى فيروز في السيارة. يشاهدان فيلما جديدا أو يذهبان لعرض موسيقي في الأوبرا. لكنه عندما اقترب منها وقبلها تلك القبلة الأولى على شاطئ بحيرة «قارون» ليلا شعرت ارتباكا لم يمر بها من قبل. تذكرت دهشته، «معقولة يا دنيا مع اللسان الطويل ومقاوحتك لي طول الوقت إنت خام بالشكل ده!».

أدركت في تلك اللحظة وحضن سارة يلفها بالدفء وبتلك الرائحة الخفيفة من الليمون أنها قد أغلقت الباب تماما على جسدها حتى تطمئن أمها المتربعة داخلها، وفي يديها تلك السلسلة الطويلة من الممنوعات «غطي رجليك إنت كبرت خلاص». «بطلي لبس شورت بقى عندك ١٢سنة». أو «البلوزة دي ضيقة مبيّنة صدرك». ربما كانت قسوة سميحة علها تشتد علها لرفضها الحجاب، كأنما كانت تعاقبها في كل لحظة على الرفض. ألم يكن دوما تعاملها مع أختها نسمة أكثر رقة لأنها سلمت أمرها وارتدت الحجاب منذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها! لم يتعامل مع أحمد إلا عقلها فقط. أما جسدها فقد تبرأت منه مبكرا. ألقت به في زحام المظاهرات ودروس محو الأمية وصخب الشوارع.

في البيت دخلت إلى حجرتها بإحساس المتعب بعد معركة طويلة والذي يستشعر أن لحظة هدوء باتت وشيكة. وكان الصوت الذي صحبها على مدار اليوم لا يزال يتردد داخلها. «عصفور طل من الشباك.. قال لي يا نونو.. خبيبي عندك خبيني.. داخلك يا نونو». فاحت رائحة البانجو من حجرة محمد الملاصقة وامتزجت بأصوات أصحابه وجلبة موسيقى ال«هيفي ميتال». زفرت وهي تغلق باب حجرتها بحرص حتى لا تسمع أمها صوت المفتاح. خلعت الجينز والبلوفر الأسود وقد اشتاقت لسريرها وحالة من النوم العميق. بإمكانها الآن أن تتنبأ بشكل يكاد أن يكون يقينيا أنها ستنام نوما رائعا هذه الليلة بلا أحلام.

في التفاتها لمحت جسدها في مرآة الدولاب. وقفت مسمّرة. اقتربت من المرآة وأمعنت النظر في الجسد الأسمر كأنه... كأنه لامرأة أخرى. فكرت أنه بالتأكيد جسد رشيق لم ينل منه الإهمال شيئا. أعجبتها لعبة المشاهدة. خلعت ما تبقى من ملابسها ومرت بعينيها فوق التفاصيل ببطء كأنها تتأمل تمثالا إغريقيا لإلهة مجهولة الاسم. بدا خصرها النحيل منحوتا ببراعة في التفافته الأوسع نحو الردفين الصغيرين. جذبت إيشارب نسمة البرتقالى الشفاف بخيوطه الفضية النحيلة من فوق سريرها وألقته فوق كتفها الأيمن فغطي نهدا واحدا وأبى أن يمتد ليخفي الآخر ،الذي كشف وجهه بعناد بدا لها أنه يقترب من حافة الكبرياء. انتصبت الحلمتان بتأثير البرد فمدت يديها وأمسكت بهما كأنها تدفئ عصفورين صغيرين فوقع الإيشارب إلى الأرض وسرت من أسفل بطنها رعشة امتدت في موجة عنيفة حتى أطرافها. اقتربت من المرآة خطوة ونظرت مباشرة إلى عيني تلك المرأة. جذبتها العينان كمغناطيس قوي أخافها للحظة لكنها قررت أن تترك نفسها له. سحبتها عتمة السواد إلى ما يشبه بئرا عميقة تخفي في قلبها وعودا بأشياء لا تعرفها. هل ما تراه في هاتين العينين شيئا يشبه العناد. وهل تشف تلك النظرة عن ابتسامة مشاكسة!

مدت يدها وانتزعت من شعرها الأستيك المطاطي فشعرت بثقل ينزاح مع تدفق خصلاتها السوداء بفوضاها على الكتفين. تسللت ببطء تحت اللحاف. شعرت بغرابة ملمس جلدها في احتكاكه الرقيق مع الملاءة الناعمة. لجلدها أيضا نعومته الخاصة وهي تحتضنه كوليد يضعونه فوق ذراعيها للمرة الأولى. تمر بأصابعها برقة فوق تفاصيله. تهدهده وأناملها ترسم أبجدية تلك التعاريج المنمنمة الدافئة. في إغماضة عينيها تشعر به يفيق مندهشا. يصحو تماما ويسلم نفسه لها تمام التسليم فيعلو ويهبط معها برفق

فوق موجات بحر رائق. تختفي ملامح الغرفة وتفاصيل الوم المتسارعة ولا يتبقى إلا هذا الأفق السحري كأنه بحر شاهق الزرقة. تشعر بارتفاع الموجات ببطء ورهافة تدفع إلها بسخونة تتصاعد. يزداد تسارع الموجات وترتفع بها موجة عالة تدفع بشهقة إلى صدرها على حافة الانفلات و... «إنت نمت يا دنيا. هو إنت دايما تدخلي من غير سلام زي الحرامية!».

انتفضت من السرير على الدقات الخشنة. شدت بيجامتها بسرعة ودخلت فيها.

«إيه ده إنت قافلة الباب بالمفتاح ليه؟».

فتحت الباب لسميحة بعنف. خرجت إلى الطرقة الصغيرة وشرارات الغضب تبرق في عينيها. وجهها يشع سخونة والدماء تندفع بقوة إلى رأسها وقد بدا جسدها أكثر طولا في انتصابه «إيه يا ماما ما سمعتيش عن حاجة اسمها شوية خصوصية. مساحة متر في متر مش ها أقول براح».

«إنت اتجننت يا بنت!!!»

«طيب اتشطري على اللي عامل من البيت غرزة». لكن الجملة تجمدت على طرف لسانها رافضة الخروج وهي تعود بخطوة واحدة حاسمة إلى غرفتها. صفقت الباب وقد تجمعت حفنة دموع في مقلتيها.

قبل أن تغفو عيناك تذكرت يا دنيا الكوابيس التي طاردتك طويلا. عادت إلك تلك الصورة حين كانوا على وشك حرقك. تساءلت عم إذا كان هذا هو ذلك الجزء فيك الذي صدق أنك ساحرة شريرة لابد أن تحرق حتى يخرج الشيطان من جسدها. وأنت مفتوحة العينين يعود إلك الجمع الصاخب وهذان الماردان، فتدركين أنهما لم يكونا إلا أنت. ذلك الجزء الذي طالما استضاف أمك والناس. الآن وقد قررت أن تفسحي ل«دنيا» بعض مكان، أسمعك تتساءلين هل مازالت عصافيرك تقاوم الموت وحدها في الظلام! وهل بالإمكان أن تدخلين إلها بماء وحفنة حبوب!

(٧)

ضوَّع عطر بخور المسك في أرجاء قدس الأقداس

حين خطت الفتاة في اتجاه الكاهن الأكبر

ركعت أمام الشعلة المتقدة وأطرقت رأسها

«جئت أبحث عن دواء للخوف يا أبت».

لمس رأسها بحنان وهو يقول بصوته العميق

«إن كان في قلوبنا خوف فهو خوفنا

وإن كانت هناك هاوية فهي من صنع أيدينا

وإن كان هناك مخاطر فعلينا أن نحبها.

يا ابنتي ربما كل التنانين في حيواتنا لسن إلا أميرات فاتنات

ينتظرن رؤيتنا نقدم على الفعل

ولو لمرة واحدة

بنبل وشجاعة.

ربما كل ما يخيفنا هو في أقصى عمق منا

ليس إلا شيء بلا حول ينتظر محبتنا.(١٠)

شردت عينا سارة خارج النافذة وهي تلتقط سماعة التليفون تطلب رقم دنيا «عايزاك في مهمة صعبة».

بدا لون النيل رماديا كابيا والقرار يتشكل داخلها بعد أن عرفت بذهاب نديم إلى قراءة فؤاد حداد في الهناجر. كان قد أخبرها في مكالمة أخيرة، بعد أن عاد لمهاتفتها وقد هدأت نبرتها، أنه ذاهب إلى العرض وشعرت بتساؤل خفي من جانبه عمَ إذا كانت ستذهب أيضا.

لكنها لم تعرف من أين جاءها يقين أنه ذاهب مع تلك المرأة التي كان يعرفها قبل أن يتقابلا. «البنوتة» كما اعتاد تسميتها. هل لأنها عرفت من أصحاب لهما أن هدى ترافقه إلى أمكنة كثيرة! لكن هذا لم يكن مبررا كافيا لليقين الذي تملكها. جاءها صوت دنيا مأخوذًا «ليه عايزة تروحي للوجع برجليك يا سارة؟».

خرج صوتها هادئا «علشان أخلِّص على شوية المشاعر اللي لسه عندي».

كانت أولى خطوات التحضير لذاك اليوم قد بدأت منذ أيام. فرضت سارة على نفسها قدرا من العزلة كأنها تشحذ طاقتها لآخر المعارك وأشرسها. لم يكن الأمر صعبا مع بدايات مايو التي تمنحها أسبوعين من الراحة بين انتهاء التدريس وبداية الامتحانات. كانت قد عقدت النية على مراجعة ما فات من سنوات قليلة، لم تفتأ تشير إليها بولادتها الحقيقية وتؤرخ لبداياتها بالطلاق من محمود.

أطفأت نور الغرفة وأوقدت شمعتها الزرقاء الصغيرة وعودا من بخور الصندل. أدارت موسيقى «المولاوية» خافتة فبدأت النايات رحلة أنينها المشحون. فتحت ملف مذكراتها على الكمبيوتر وعادت معه إلى تلك اللحظة الفاصلة حين أنصتت لنداء العتمة. قرأت في الصفحات الأولى «أشعر بحالة من الضياع وفقدان الهدف. أعرف لِمَ تركته. لكنني لا أعرف إلى أين أتجه. أستغرب هذا الإحساس وأنا التي رغبت بداية جديدة. لكن... لا... أنا لم أترك محمود من أجل بداية. تركته كي يدخل الهواء إلى صدري دون أن تلوثه شكوى محمود من عدم وجود أطفال. يشكو ويتجاهل دوما أنينها في كل مرة يسقط رحمها جنينا».

قلَّبت سارة الصفحات. قفزت فوق بضعة أشهر فطالعها اشتغالها على الأحلام. ها هو حلمها المتكرر عن البيوت يتنبأ بنقلات في حياتها. تمر بعينيها فوق السطور فيعود إليها ذلك الحلم الأول في تلك السلسلة والذي كان قد جاءها قبل زواجها. دخلت فيه بيتا أنيقا. يكاد أن يكون قصرا قديما. وبينما هي تتجول في أرجائه شعرت أن «الأثاث ده مش ذوقي. هو غالى طبعا. لكن أنا مش باحب المدَّهب». لكنها أيضا كانت فرحة بأول بيت لها. وقد كان أن تزوجت وفرحت ببيت عرفت بعد عشر سنوات أنه لم يكن إلا علبة من علب السردين وكان المطلوب منها أن ترقد في هدوء فوق الآخرين، أو بجانبهم وفوق الجميع تكلست طبقات الملح حتى يحتفظوا بشكلهم رغم الموت.

ومثل قطع الألغاز الملونة التي كانت تحب تشكيلها في صور مكتملة وهي صغيرة، انتقلت إلى ذلك الحلم قبل قليل من نهاية تلك الحياة. حلمت أنها تترك شقة زوجها الصغيرة في المهندسين لتسكن في نفس البناية في الدور الأعلى. كانت الشقة خالية من أي أثاث لكن نور الشمس كان يغمرها فبدت أكثر اتساعا من حجمها «وأنا اللي مليت المكان بحاجات تخصني».

تقافزت سارة فوق صفحات تلك السنوات الزاخرة. استرجعت كيف كان وقت طلاقها منذ أعوام ستة هو لحظة سقوط حائط الأمان الوهمي الذي رغبت أن تصدق وجوده. بيت وزوج. مكان آمن للعيش بعيدا عن قبح العالم حتى لو لم يكن الداخل بالجمال الذي تتمنى. لكن بعد خيار الذهاب وفي ذاك العراء المفتوح على تنانين وأفاعٍ مختبئة، متربصة وعلى أهبة الانقضاض، وبعيدا عن أي حوائط يمكن الاحتماء بها، اتخذت الكتب التي كانت تنقلها لطلابها كمادة جامدة حياة خاصة بها. نبضت داخلها بومضات فهم أضاءت مناطق العتمة وألقت بنور خفيف على دروب القلب.

قرأت ما كتبته منذ سنوات أربع «أن تعرف.. هذا شيء. وأن تفهم لهو شيء مختلف تماما».

في شرودها رفعت رأسها من شاشة الكمبيوتر تتأمل لحظة الإدراك وهي تلمع في رأسها. لقد كانت على مدار تلك السنوات القليلة تخطو بتؤدة في اتجاه الشرق نحو بوابات المعبد. عند وصولها أطرقت رأسها في وجل. ثم رفعت عينيها إلى السماء بأول الأسئلة «أنا مين؟».

تركت سارة الكمبيوتر مفتوحا على الملف بعد أن مسحت العنوان القديم «يوميات» واستبدلته بـ«في اتجاه الشرق» وطلبت حسام. تأمل جزء منها رنين دهشة في صوتها. كأنه يشبه دهشات تلك الصغيرة التي طالما عادت من الغابة إلى إيزابيلا ببضعة أحجار قد رسمتها يد الأم الكبرى واكتشاف جديد.

«تعرف يا حسام إننا لما بنعتقد إننا جينا للدنيا صدفة بنبقى صدفة بالفعل. بنتحول لعبء على الحياة. كائنات لا هتودي ولا هتجيب».

«إنت كويسة يا سارة؟ مالك يا عين أمك على رأي طمطم؟».

تعرف أن حسام لن يفهم منها شيئا الآن. لكن نشوة الاكتشاف كانت أكبر من قدرتها أن تتحملها وحدها «ها أكلمك بعدين يا حسام. مش هاينفع التليفون».

اتجهت إلى المطبخ وقد حملها أنين النايات الممتزج بدقات الطبول البعيدة إلى دروب الفكرة تستكشف أركانها. عادت بمج نسكافيه و فتحت صفحة جديدة في الملف ذاته أرَّختها بتاريخ اليوم ٢٥ مايو ٢٠٠٣. قررت استكمال الفكرة التي خطتها منذ سنوات أربع. كتبت «عندما نظن أننا هنا بمحض الصدفة نتحول إلى حبات مطر تنزلق على سطح رخام أملس. لا تترك وراءها علامة أو تصب في تربة قد تنبت زنبقا ربيعيا أو قمحا للصغار. أما لو فتحنا عين الرؤية، عين «حتحور»، واستبدلنا بها عين النظر، لرأينا ألف معجزة صغيرة تحدث في كل اللحظات. كانت تحدث وكنا عميانا».

وقفت دنيا وسارة في الحديقة الصغيرة المواجهة لمسرح الهناجر. أشعلت سارة سيجارة وقد استسلمت لمداعبات دنيا «يا سكينة...هو الواد عبد العال مش كان تاوي الجثة تحت البلاط!».

وشت ضحكة سارة القصيرة بالتوتر «معلش يا ريا يظهر المخدر ما كانش قوي. لسه صاحي. يادوب فاضل ضربة سكينة واحدة ويتّكل».

تلاشت الضحكة مع نهايات الجملة وهي تلمح نديم يدخل الممر المؤدي للمسرح. لا يمكنها أن تخطئ تلك القامة الفارعة وسط الزحام، ولا تلك الدرجة من لون البشرة الخمري. دق قلبها بعنف وهي تراه يمد الخطو وهدى تلحق به كطفلة تجري وراء أبيها. لمحة واحدة من طرف عين سارة كانت كفيلة بالتوصل إلى قناعة أن تلك المرأة ليست جميلة ولا تمتلك القدر الأدنى من الثقة بنفسها. ابتسم جزء منها متهكما على لحظة غرور مارقة سرعان ما تجاهلتها. دخلتا بعدها بدقائق واختارت سارة الجلوس في مكان خلفي لا يبعد إلا صفين عن مقعد نديم. في ركن المسرح نصف المظلم تشبثت بذراع دنيا وهي تشير «المرحوم هناك أهه». ودنيا التي لم يسبق لها وقابلت نديم تركت مقعدها مع بدايات العرض واقتربت من الممر الملاصق لكرسيهما. مكثت قليلا وعادت تهمس إلى سارة «دي بتستهبل. عاملة نفسها مش فاهمة حاجة وهارياه أسئلة والتاني مصدق وفرحان وبيجاوبها».

في صمتها أخذ عقلها يلف ويدور بعنف المشهد. هل هذا ما ترغبه يا نديم. امرأة طفلة تتعلق برقبتك وتنتظر منك فيض المعرفة والبركة! ألا ترى كيف تنظر إلك هذه ال-«بنوتة». كأنك... كأنك إله إغريقي, أو ربما أنت بالنسبة لها «زيوس» كبير الآلهة، فياض
و جبار ومانح ومانع! الآن بإمكان «ماعت» أن تحضر لتصفعني. تعالى
و أخبريني أيتها الأم الحكيمة التي لم تعرف الكذب. ذكريني أنك لم تحبيه منذ اللحظات الأولى. أخبريني أنني لم أكن لألعب دور امرأة من رعايا «زيوس» لا وقت أحببت ولا الآن لأنني لا أجيد اللعب أسفل جبال الأوليمب ولا أرغبه. لست إلهة. لكنني أعرف أنني كاهنة «البقرة الذهبية». أمنح ما أمنح من عطايا ولا أنظر خلفي. لا أحاسب من تلقي البركة عمَ فعل بها. أنا كاهنة «حتحور» و«عشتار» ومن قبلها «إينانا» وأنا كاهنة «أفروديت». أنثر عطر الليمون على من أحب وأقضي ثلاث ليال كل شهر بصحبة «سيدة القمر»، أسر إلها بما كان وتسر إلىّ بما سوف يكون وأمنح من دم قلبي لورود العالم حمرتها لأنني...

«سارة إنت كويسة؟».

همست دنيا وهي تلمس يدها بخفة فسرت إلها رجفة البرودة. امتدت الرجفة لتشمل جسد سارة وقد لمحته يسترق النظر إلى مكانها. هل يريد التكهن بجدوى انتقامه وقد تمردت على شروط لعبة الصداقة التي أرادها! تشبثت أكثر بيد دنيا كأن دفئها هو ما يبقيها في مكانها. لم يتزحزح نظرها عنهما وقد تحولا إلى العرض الأساسي وتوارى شعر حداد إلى خلفية المشهد. أخذت تتأمل ذلك الجزء منه الذي أحبت تقبيله عند تلاقي جذور الشعر أسفل الرقبة مع سمرة بشرته. شعرت بنعومة شعره تحت يدها وهي تميل على شفتيه تعيد تشكيلهما بقبلة طويلة ناعمة. على أطراف أصابعها ملمس جسده لا يزال ساخنا وهي تنزلق فوقه باحثة عن تلك الحسنة السمراء قرب سرته. لسانها يمتص مذاق العرق المشبع برائحته لتكثفها رحيقا تخبئه في غرفة سرية في معبدها كي تعود إلها وقتما تشاء. لكن الرائحة تعود الآن بلا استئذان.

أطالت النظر إلهما من موقعها في الخلف، بينما تسقط على رقبتها ببطء سكين تلك الهالة التي تلفهما معا، رغم يقينها أنها هالة مصطنعة تماما. لا سحر حقيقي هناك. لا دهشة. ولا قلب في الحكاية. على مدار أكثر من ساعة كانت ابتسامات نديم لتلك المرأة

وهمساته في أذنها تهوي على وجهها كصفعات مؤلمة. وهي ترفع رايات الاستسلام كأنها تتلقى عقابا تستحق أو تتجرع ترياقا مرًا لبقايا سم لا يزال يسري في دمها.

قبل نهاية العرض بدقائق سحبت يد دنيا في صمت وأسرعت بها إلى السيارة وانطلقت في اتجاه نيل الزمالك. كانت الشوارع قد سكنت في هذا الوقت من الليل. أوقفت سارة موتور السيارة في شارع أبوالفدا وانهمرت دموع ساخنة وتلاحقت شهقات.

حلَّ على دنيا صمت ثقيل ولأول مرة تستسلم له دون أن تشعر أن عليها أن تقول شيئا الآن. أمسكت بيد سارة التي شهقت بالكلمات من بين دموعها «موجوعة قوي». شعرت دنيا بشيء كأنه ملامح أمومة تجاه تلك التي يتراجع في وجودها إحساسها الدائم بالتم.

أما أنا- راعية النساء- فانحنيت إلك يا ابنتي.

أعرف أن قلبك في تلك اللحظة لم يكن غبيا. لم تصدقي للحظة واحدة أنه لا يريدك. ربما في البدايات فقط عندما أراد تصديق أنه لايزال حرا. لكنه عندما بدأ يمارس حيله الصبيانية كان واضحا أنه يريد تأكيدا أنك لا تزالين باقية على الحب. إن دموعك لا تزال تشتاقه وروحك تفتقد طعم العرق ورائحة جسده وقت الحب. لكن رفضك جاء جازمًا وقرارك ألا تلعبي لعبته كان بوضوح جرحك وبلون الدم.

في طريقك إلى البيت ليلا بعد أن أوصلت دنيا إلى نهايات شارع فيصل، حدثتني وأنت تقودين السيارة «دلوقت بيتأكد لي إن الإحساس بعدم الأمان لسه له وجود جوايا».

لست بحاجة لإخباري أنه كان قد غافلك أو غفلت أنت عنه فصنع لنفسه في الركن خيوطا عنكبوتية لم تكن لتُرى إلا لو دقَّقت النظر. لو أمسكت بها لعرفت كم هي واهية. ولأنك رأيتها فقد كان قرار تمزيقها جزءًا من لعبة ذلك اليوم المؤلمة. كأنك تؤكدين لنفسك ولي كما أعلنت دوما «مش هافقد إيماني بالحياة».

طقس العبور يا ابنتي ليس واحدًا. كلما مرقت من باب انفتح آخر. وكلما خرجت من سرداب دخلت التالي. شبح هنا وقصة منسية هناك. لكن الرحلة مع الوقت - ورغم الأسى - تصير ممتعة، وعيناك قد اعتادتا العتمة فانتبه قلبك. وأذناك وقد اعتادتا الصمت بإمكانك الآن أن تنصتي إلى أصوات الآلهة.

الجزء الثالث
سراديب الأسود

(١)

عبر الغريب فناء المعبد الصامت إلا من صوت قيثارة بعيدة

يسمع دقات قلبه كطبلة كبيرة يردد صداها سكون الليل البهيم.

سيمر أولا بكبيرة الكاهنات قبل أن يصل إلى تلك الغرفة نصف المعتمة

في قلب المعبد حيث تنتظره الكاهنة.

خلع حذاءه في صمت على عتبة الغرفة ووقف بخشوع أمام الكاهنة الأم.

مسحت رأسه بزيت المسك وهي تتلو وصاياها

"مسها برفق اليمامات. تشمم عطرها قبل أن تمسها.

وقبل أن تتشمم عطرها اقرأ أسفار الحزن القديم في عينيها.

أسبح معها فوق نون الرغبة تعلو حسب مشيئتها

وتهبط بكما في لمحة إلى نقطة السر القديم في منتصف النون.

مسها برفق اليمامات".

خرجت نورا من الكوافير وقد شعرت بقلبها ينبض بخفة في صدرها. ألقت البلوزة البرتقالية الشفافة ضوءًا خفيفا غازل لون شعرها الذي صبغته بالأحمر الباذنجاني منذ لحظات. صحبتها تلك الحالة حتى السيارة. وقبل أن تدير الموتور بحثت في التابلوه عن شريط «إديث بياف»:

مع الشمسانية الحلوة ديّ

مفيش داعي للكلام

مفيش غير رغبة واحدة

إني أشرب كاس الحياة

رشفة رشفة

تحت سما مفرحة...

لم تسمع هذه الأغنية منذ وقت طويل، والآن لا تعرف لمَ يزورها الاشتياق إلى هذا الصوت الناعم الذي يذهب بها إلى براح دافئ داخلها. وقت بدايات العشق ربما! لا.. ليس بالضرورة. ربما أيضا لتلك الأوقات حين كانت ملكة متوجة على قلوب حفنة من شباب الكلية وإلى ذاك الزمن حين لم يكن للهم مكان مقيم.

وعلى طول الشط

تقف الحليوة

تمصمص ورقة شجر

وتبص بزهو المنتصر

ناحية شاب أمرد

دقنه لسه ماخضَّرتش

ممكن تقول إنه طفل

طفل رايدها

تركت نفسها للموجة الناعمة تهدهدها بحنان وهي تعيد الأغنية إلى الوراء وتسمعها منذ بداياتها. لم تشعر بتفاصيل الطريق ولا أزعجها سائقو الميكروباص ـ كعادتهم ـ فأجبروها على اللجوء إلى قاموس شتائمها العامر. لم تكن متأكدة حتى كيف اتخذت السيارة طريقها بهدوء واثق نحو «أندريا» الزمالك. عندما وصلت إلى هناك تركت السيارة للسايس وهي تتهدده مبتسمة «ها أخرب بيتك لو حاجة حصلت للعربية. فاهم!».

ابتسم العجوز فتعمقت تجاعيد الوجه الأسمر وتلاصقت «اطمّني يا هانم...». وأعطاها إيصالا برقم السيارة.

هبطت السلالم القليلة المؤدية إلى المطعم النيلي مبتسمة. كانت الشمس قد تحولت إلى البرتقالى الناعم في اقترابها من صفحة النهر العريضة في تلك المنطقة. لمحت سارة وحسام على المنضدة الملاصقة للسور الحديدي. قبلتهما متسائلة «إيه هي دنيا ما جاتش؟».

رمقتها سارة بنظرة فضول «خير يا نورا شكلك زي القمر وصابغة شعرك أحمر وبتضحكي. مسيو رفاعي مات ولاّ حاجة؟».

طلبت نورا زجاجة بيرة ستلا والتفتت إلى سارة ضاحكة «لأ زي القرد. بس فيه حاجة لطيفة بتحصل النومين دول. قابلت راجل يجنن. نص فرنساوي نص مصري. طويل وأسمر وبيفهم في المزيكا وبيحب الرقص. لأ وإيه... حنين كمان».

وضع حسام كوب البيرة على المنضدة وقد انتابته شرقة بدأ يسعل بعدها ضاحكا وقد رسم على وجهه ملامح الفزع «ربنا يستر على الراجل. بقول لك إيه يا نورا بلاش تعرضي عليه آراءك الفذة في الحياة والرجالة. خافي حتى على سمعة مصر».

ارتفعت ضحكتها فامتزجت بدفقات الهواء المتتابعة على وجوههم «سمعة مصر إيه يا واد. هو يطول!».

ولم تلبث أن تجاهلت تمتمات حسام «ربنا يستر» وبدأت تحكي كيف قابلته في حفل استقبال للسفارة الفرنسية في الرابع عشر من يوليو بمناسبة عيد الاستقلال، وكيف أنها اكتشفت أنه يعمل في بعض الأحيان مع شركة السياحة التي تعمل بها عندما تأتيهم أفواج فرنسية.

«مرشد سياحي ومش متجوز. كان. وخرجنا مع بعض كام مرة. شكلي ممكن أحبه. طول عمري أقول الرجالة المصريين مش نافعين ببصلة. على الأقل مش هيبقى عنده العُقد إياها».

وصلت دنيا فأعادت نورا علىها مختصر الحكاية «بعدين إنت متأخرة ليه؟ أنا مش قلت ده اجتماع عاجل هام حيوي مصيري».

ضحكت دنيا بسعادة وبعض استغراب وهي ترى البهجة تتراقص على وجه نورا وتتقافز بشقاوة طفولية في عينيها «اجتماع للجنة الشعبية. بننظم مظاهرة ضد الاحتلال الأمريكي للعراق».

تدخل حسام «إمتى يا دنيا علشان أبعت حد يغطيها. أنا مش عايز أنضرب. كفاية كلوتي فرقعت من ضرب المظاهرة اللي فاتت».

«خسئت يا حسام يا خرع يا ناقص يا...».

قاطعها ضاحكا «إنت اتعلمت منين قلة الأدب دي! فين القطة المغمضة بتاعة زمان!».

ثم التفت إلى سارة «دي آخرة اللي يعرفك. أنا ها أبلغ الجامعة عنك. ها أقول لهم بتبوَّظ ستات البلد».

لكزته سارة بخفة في ذراعه «يا سلام!! مين قال لك ده تأثيري. هو أنا...».

تدخلت نورا «إيه يا أختي إنت وهو وهي إنتم ها تقلبوها مرة سياسة ومرة علم نفس ونسيتم إنكم النهارده في اجتماع عاجل مهم حيوي مصيري علشاني».

التفت حسام إلىها مبتسما «إنت عايزة إيه في يومك اللي مش فايت ده !».

صمتت نورا ثوانى وأردفت وقد مثلت الجد بملامحها «عايزة أقول لكم إني قلقانة... مش لاقية حاجة غلط في ريمون».

نظر إلىها حسام متأففًا «اسمه ريمون آدي أول حاجة غلط فيه. ارتحت!».

ردت مشاكسة «إزاي عرفت إن اسم ريمون بيئة مع إنك جاهل يا حسام؟».

«إيه ده إيه ده!! إيه الاتهامات العشوائية دي. وبعدين إيه حكاية بيئة دي؟ هما الفرنساويين كمان عندهم أسماء بيئة؟».

«يعني هو اسم دقة قديمة شوية. عفى علىه الزمن يعني».

ما إن خرجوا من المطعم حتى ضربت نورا رقم ريمون. جاءها صوته دافئا «طيب ما دام إنت في الزمالك عدي عليّ اشربي قهوة».

أدارت السيارة بلا تردد وتوجهت إلى بيته. لم تتعد الساعة الثامنة مساء ولن تتساءل تهاني عنها إلا قرب منتصف الليل. في الطريق إلىه لمحت محل حلواني فركنت السيارة صفًا ثانيًا ونزلت. اشترت تورتة آيس كريم صغيرة وصعدت إلىه. فتح لها الباب في «ترينتج سوت» أزرق. شبت على قدميها وقبلته على وجنتيه. شعرت بملمس وجهه ناعما تحت شفتيها. ابتسمت.

تأملت الشقة وهو يحضّر القهوة. صغيرة لكنها أنيقة. بالطبع تنقصها لوحات على الجدران وربما....

«عايزة تسمعي إيه؟». سألها وقد أطل برأسه من باب المطبخ المؤدي إلى حجرة المعيشة.

«إديث بياف». قالتها وقد راهنت نفسها أن لو كان لديه أغنياتها فسوف تحب هذا الرجل.

خرج من المطبخ يحمل فنجانيّ القهوة واتجه إلى علب الـCD المتراصة في كومة كبيرة بجانب جهاز الموسيقى والتليفزيون. دقائق وانساب بعدها الصوت الناعم مرة أخرى.

ممكن تقول إنه طفل

طفل رايدها

خلاص ماعدتش فاضل

غير حركة واحدة منه

وابتسامة منها

بتقول «تعالى»

خلاص ما عاد فاضل كتير

والعصفور يطير

تأملته من موقعها على الأريكة، وقد أعطاها ظهره متربعا على الأرض يبحث عن شريط آخر. انكشف جزء من ظهره فودت لو مدت يدها إلى تلك البقعة تتحسس ملمس جلده وتضاريس الجسد. كتمت ضحكة كادت تفلت منها. لكنها بقيت مكانها على الأريكة الصفراء الصغيرة التي تتسع بالكاد لشخصين وقد أمسكت بفنجان القهوة الساخن.

غير حركة واحدة منه

وابتسامة منها

بتقول...

استدار إليها بعينيه السودايين الواسعتين «حلو بيتي؟».

هزَّت رأسها موافقة «باحب الشقق الصغيرة».

لكنها دفعت بعيدًا إحساسها أن المكان ينقصه بعض دفء. ربما رخام الأرض هو السبب. وربما الأشياء الموضوعة في موقعها تماما بلا أي هامش من فوضى.

مر ما يقرب من الساعتين في الحديث عن الموسيقى والسياحة ولم تشعر بمضي الوقت. وعندما قام ليحضر الثلج والسكوتش من البار القريب سألته «إنت طول عمرك عايش في مصر؟».

«تقدري تقولي تقريبًا. اتولدت في فرنسا وعشت هناك لحد فترة ابتدائي وبعدين أبويا وأمي رجعوا مصر علشان بزنس بابا في السياحة».

«وعمرك ما ندمت إنك ما عشتش في فرنسا؟».

«لأ طبعا».

رفعت حاجبيها بدهشة «إيه الثقة دي. أنا لو ليّ مكان تاني ها أهج من البلد دي».

«أنا ممكن أروح أوروبا أتفسَّح أو أدرس. أنا نسيت أقول لك إني رجعت فرنسا علشان دبلوم في السياحة».

«درست تاريخ مصر في فرنسا...».

«أحسن ناس تدرسي على إيديهم تاريخ مصر. إنت عارفة من دراستك لأدبهم إن عندهم Egyptomania جنون بالحضارة المصرية وعشق لمصر. لكن أنا ما أقدرش أعيش في مكان مافيهوش الدفا الإنساني اللي هنا».

استمعت نورا إليه ولم تبذل جهدا لمداراة استغرابها وشيء يشبه الاستنكار. لكن ابتسامته ذكرتها أن على مدار الأسابيع الماضية كان شعورها بالراحة قربه يتنامى. لم تبد منه أي إشارة أنه في انتظار شيء منها إلا الصحبة. قامت إلى المطبخ وعادت بطبق من الجبن
وكيس من البطاطس المحمرة وهي تدندن بنهايات الأغنية»
و العصفور يطير...و العصفور يطير».

رفع عينين مبتسمتين إليها « شكلك زي ما تكوني كنت طول عمرك في البيت ده يا نورا».

وضعت ما بين يديها على المنضدة ومالت عليه وحوطت رأسه بذراعيها. لف ذراعين حانيتين حول خصرها صامتا وقد أراح رأسه فوق بطنها. تأججت شعلة رغبتها وارتفعت ألسنة اللهب فوق صوت عقلها الذي لم يتوقف عن تذكيرها بسوابق الخذلان. كانت كؤوس السكوتش وضوء الشمعة البيضاء النحيلة وسمرة بشرته قد تكاتفت عليها في مؤامرة تمنت اكتمالها. جذبها إلى الأريكة بجانبه، ومال عليها لامسا شفتيها بنعومة لم تلبث أن تحولت إلى قبلة طويلة. رغم بعض خدر كان قد سري في جسدها إلا أن عقلها لم يتوقف عن دورانه. هذه ليست أجمل قبلة مرت عليها. ما الذي ينقصها! حاولت أن تقود اضطراب قبلاتهما في اتجاه متناغم بعض الشيئ وهي تغالب خجل البدايات؛ رغم سنواتها الثلاثينية وسوابق رجال كانت تزهو بها. أدارت وجهه وبدأت تدغدغ رقبته وراء الأذن تماما.

عندما جذبها من غرفة المعيشة في اتجاه الداخل كانت متأهبة له. لكن «مش هتطفي النور!».

لماذا يجب أن تفكر هي في كل التفاصيل. وكاد التفكير في التفاصيل أن يقودها إلى التفكير في أخيها ناجي الذي طلب منها بالأمس ألفي جنيه وأبيها بنبرته العسكرية و.. صفقت أبواب عقلها فانفتحت نوافذ الرغبة ثانية.

«ثانية واحدة أكلم أمي أقول لها إني هانام عند سارة».

كان قد أطفأ النور وأوقد شمعة لم تلبث أن انطفأت سريعا. أنهت المكالمة واقتربت منه. كان CD «إديث بياف» قد توقف وترك مكانا شاغرا سرعان ما احتله داخلها صوت «ميشيل ساردو» «هحبك...هحبك... هحبك حب ما يقدرش حد يتجرأ ويحبهولك».

مالت نحوه بقبلة طويلة ناعمة استسلم لها منخطفًا. كم تمنت في تلك اللحظة أن يمسك رقبتها وهو يقبلها فيشعرها أنها طيّعة في قبضته. لكنها لم تشعر برغبة أن تمنحه أية إرشادات. تحسست جسده ترسم أبجدية للألفة، وتركت جسدها لذلك الشعور الغامض عند التلامس مع جسد آخر. كان جسده ناعما. ستغفر له تلك الهفوة لأنه يعرف كيف يحتضنها بقوة فتشعر أنها قد تضاءلت بالقرب من قلبه.

وبينما انساب الدفء بين جسديهما لم يتوقف عقلها عن متابعة مرور يديه فوق ظهرها وخصرها وها هو ذا يقترب من نهديها المتنقظين. لا بأس بذلك البطء الذي كانت تسرع من إيقاعه أحيانا بقبلات ساخنة. تساءلت هل كانت تختبر إحساسها به! غضبت من صخب عقلها الذي لا يتركها تستمتع بشيء إلا ونكّد عليها. دفعت بنفسها إلى قلب موجة عالية من الرغبة صاحبت دخوله

إلـها. اختفى داخلها. شهقت وهو يهمهم في أذنيها Dis- moi comment je te fais plaisir (قولي لي إزاي أسعدك).

ارتعشت رقبتها بدغدغة أنفاسه. لم ترد. لكنها جذبته إلـها بقوة وهي تتابع تصاعد ألوان ساخنة على سطح اللوحة البيضاء. وخطوط الأخضر والبرتقالى والأصفر التي بدأت نحيلة لم تلبث أن افترشت مساحة أكبر من الانحناءات اللينة المتداخلة. علت بها موجة الرغبة فطار قلبها. كم هو جميل هذا الانخطاف الذي كان قد بدا لها مستحيلا منذ تركت خالد. «خالد... دلوقت!». أزاحته بسرعة من رأسها. لم يكن الأمر صعبا وجسدها المتوهج يضبط نفسه مع إيقاع ريمون.

شعرت بحركة جسده تهدأ وكان لا يزال يقبلها. بادلته القبلات وهي تداري استفهامها. عندما هدأت حركته تماما ظلت ساكنة لوهلة شعرتها دهرا من السؤال حتى تيَّقنت مما حدث مع صوت تنفسه الآخذ في العلو وثقل جسده فوقها. طالت اللحظات وهي تراقب البرتقالى والأصفر يبهتان وتتحول اللوحة إلى بقع عشوائية من الأبيض والأسود وبعض الظلال الرمادية. ظلت عيناها مفتوحتين على سقف الحجرة المصفر والدهشة. أزاحته بصعوبة من فوقها وطعم مر لزج كالصبار يغرق فمها.

مر الليل ثقيلا خامدا وهي تتقلب في فراش خشن. من هذا الرجل الغريب الذي تعالى صوت شخيره جانبها! أعطته ظهرها وانسحبت إلى الطرف البعيد من السرير. لم يغمض لها جفن إلا لحظات قلقة متقطعة. صباحا شعرت به يحكم الغطاء حولها بحنان ويقبل جبهتها فأغمضت عينيها مدعية النوم. عندما سمعت صوت الباب ينغلق لدى خروجه زفرت بضيق وجرجرت جسدها المثقل بشراب الأمس والخيبة من السرير. وجدته قد علق رداءها على شماعة الغرفة وترك لها أوراقا متناثرة في أرجاء البيت. على مرآة الحمام «BONJOUR PRINCESSE». وفي المطبخ صباحات مماثلة مع إرشادات لأماكن النسكافيه واللبن. ارتدت ملابسها بصعوبة ورأسها يئن تحت وطأة الصداع. لم يفقها الماء البارد الذي ألقته على وجهها ولا كوب النسكافيه الذي لم تكمله.

عندما خرجت من باب البناية تلقفتها شمس الصباح القاسية بصفعة قوية أطاحت بها خارج الحلم. أدارت السيارة. عندما رفعت عينيها قابلتها يافطة الإعلان الكبيرة «مونديال ٢٠١٠ حلم كل مصري».

كادت أن تضحك.

في الطريق إلى وسط البلد تحولت السيارة إلى زنزانة صغيرة مظلمة أطبقت علـها بقبضة حديدية صدئة. فكرت أن تدير الموسيقى و عندما وقعت يدها على شريطين ل-«ميشيل ساردو» و«سيلين ديون» قذفت بهما بعصبية في تابلوه السيارة. لم تر شيئا من الطريق المكدس بعربات متراصة في طوابير تشبه التوابيت. اختنق صدرها بدموع رفضت منحها تصريحا بالخروج. وصلت إلى الشركة في موعدها، ودخلت إلى المكتب دون أن تسمع «صباح الخير» من زميلتها صفاء أو ترى ابتسامة عم عبده. كانت تتحرك في عالم حالك السواد ليس به بشر آخرون. لاحقتها صفاء ضاحكة «مش ها تدي صوتك لمصر يا نورا. بيجمعوا عشرين مليون صوت علشان كاس العالم يقبل تنظيم مصر لمونديال ٢٠١٠».

أدارت رأسها نحوها «والنبي يا صفاء أنا مش ناقصة سيرة ولاد الكلب ولا طالبة معايا تهريج».

ما إن جلست على مكتبها حتى رفعت سماعة تليفون الشركة الداخلي «عم عبده نسكافيه بلاك من فضلك وقزازة ميه كبيرة».

جاءها صوت الرجل متسائلا «إنت كويسة يا أستاذة نورا؟ لما دخلت الشركة سألتك لو أجيب لك النسكافيه ما رديتيش عليّ!».

أغلقت السماعة وقد كادت تضحك على ألاعيب الحياة الخبيثة «يظهر عم عبده حاسس بيّ أكتر من ريمون!».

ولم تكد الجملة تمر على عقلها حتى ضرب الموبايل وجاءها صوته مشرقا «Bonjour bebe نمت كويس؟».

ردت ببرود واقتضاب متعللة بضغوط العمل. وأنهت المكالمة وهي تزفر بعصبية.

هاجمها الاستغراب. عندما تكون الحياة كلها أنصاف أشياء أليس من حقنا أن نسعى إلى شيء واحد مكتمل في دوائرنا القريبة! فكرت في نبرة صوته التي جاءتها عادية تماما بلا اعتذار، وربما بدون إدراك لما بدر منه. هل يعرف ولا يقول! هل يظنها طفلة غبية بلا تجربة! هل لديه مشكلة أم أن الإفراط في الشراب يؤدي به إلى تلك النهايات! تذكرت صديقتها مونيك الفرنسية التي تركت مصر منذ سنوات والتي لم تتوقف شكواها من جاك زوجها «بيحب الخمرة أكتر مني».

كاد رأسها ينفجر من ضغط الصداع والأسئلة. وكان لديها الكثير لتقوله له. ودت لو شرحت له أن ذلك لم يكن إحباط ليلة واحدة و لكنه مؤشر على أنه لا يمتلك أي وسيلة لفك شفرة جسدها. لا تعرف حتى إن كانت ستواجهه أم ستنسحب في صمت. كيف تشرح لآخر أبجدية لا يملكها. كيف تعلمه الإمساك باللون الساخن!

أخذت أرقبها في أسى. رأيت الغيمة السوداء تعود فتحجب شموس البهجة التي أغرقت الأسابيع القليلة الماضية، فكادت الأرض أن تنبت زهورا دقيقة تشق بسيقانها وجه الطمي الكثيف. وها هي التربة تجف وتتشقق ثانية. تتحول الأرض إلى قبر لأجنّة لم تأت بعد. وددت لو قلت لها إنني أعرف تماما قدر مرارتها. أعرف أيضا أن تلك ليست المرارة الأولى ولا الوحيدة، وأن أبسط الحلول وأقربها لمثل تلك المآزق هو أن تتركوها خلفكم وتمضوا. لكن إن فعلتم هكذا لما كان هناك من غد لكل تلك البذور التي يذروها الهواء فتطير عالما ثم تهبط رويدا لتمتزج بطمي أرواحكم. وتمكث هناك في صبر تنتظر دورتها حتى يحين وقت الإنبات في ربيع آت.

وددت لو قلت. لكن... لو حدثتها هل ستسمعني!

(٢)

أخذ مري أتون حبيبته في حضن دافئ

قد مزج رائحتهما معا في ليلة شتوية مقمرة.

جاءتها كلماته ممتزجة بدقات قلبه الملاصق لأذنيها.

قال: «الآن فقط فهمت ما قاله لي أبي في تلك الليلة

عندما اقترب مني في هدوء واتخذ موقعه بجانبي على المصطبة الخشبية

على باب بيتنا القديم المفتوح على حقل القمح. قال:

لا أتمنى لك يا بني أن تقابل جسدك للمرة الأولى

مع امرأة لا تعرف منك إلا الجسد.

لا أريد لك معرفة لا تتعدى التعرف على الحيوان فيك.

عندما تعشق امرأة واحدة من دون كل النساء

خذها إليك ودعها تأخذك إلى نفسك.

و«تأمل عندئذ تلك اللحظة السماوية

عندما يتوحد كل جنس مع الآخر

يمنح أحدهما ويتعلق الآخر بشغف.

وفي لحظة اختلاط الطبيعتين

تكتسب الأنثى قوة الذكر

ويسترخي الذكر في حضن الأنثى»(١٠)

«مبروك يا حسام يا قمر». شبَّت دنيا على قدميها وقبّلته.

واستكملت نورا «عقبال ما أشوفك رئيس الإنترنت مش بس رئيس قسم الأخبار في الموقع».

ارتفعت ضحكة حسام إلى قهقهة «حلوة رئيس الإنترنت دي».

ثم عدل من ياقة القميص بحركة توحي بالأهمية واستكمل «طبعا ما أنتم عارفيني born leader زي ما أنا born driver.

بالفطرة كده قائد».

رفعت سارة وجهها إلـه وقد تركت إيقاد الشموع «يا مصيبتي لو مواهبك في الإدارة زي موهبتك الفذة في السواقة قول على الموقع السلام».

رسم حسام على وجهه معالم الحزم وهو يرفع إصبعه محذرا «مش عايز أي تلميحات هدامة».

ثم استكمل وقد بدا كأنه اكتشف شيئا كان غائبا عنه فرفع حاجبيه في دهشة «أيوه إنتم القلة الهدامة اللي السادات كان بيحذرنا منها. حزب أعداء النجاح».

دفعته دنيا بضربة على ظهره «يا عم روح. إنت صدَّقت نفسك».

تكوم حسام على الأرض في حركة تمثيلية «إيه يابت الإيد المرزبة دي. إنت خريجة مصارعة حرة!».

ثم اعتدل في جلسته على الأرض «أنا بس كان ليّ طلب مع الترقية بس مكسوف أقوله لأستاذ حامولي. الراجل ما بيطيقنيش خلقة».

تساءلت نورا «طلب إيه؟».

«كنت عايز أطلب تغيير مكان التليفزيون في أوضة الأخبار».

نظروا ثلاثتهم إلـه باستفهام فاستكمل «فاكرين ٩ إبريل اللي فات الله لا يرجعه. داخل الشغل الصبح وكلي حماسة. مشحون بقى لحد مناخيري كرامة ووطنية من كلام الصحاف الكام أسبوع اللي قبل اليوم الاسود ده. وبافتح التليفزيون المتشعلق فوق مكتبي مستنِّي الدبابات الأمريكاني تنزل محروقة على المكتب. قوم إيه..! ألاقي اللي بيقع فوق المكتب هو تمثال صدام. تقدروا تقولوا جات لي عقدة نفسية».

ضحكت سارة «والنبي إيه! طب ما تروح تتعالج».

«هو إنت عايزة جنازة وتشبعي فيها لطم على رأي أمي. أي حد يقول لك حاجة تقولي له اتعالج. أدخل سراديبك. واجه أشباحك. اطلعي من نافوخي. المسألة بسيطة. يشيلوا الزفت التليفزيون ويحطوه فوق دماغ أي صحفي تاني».

التفوا جميعا على الأرض حول المنضدة التي وضعت سارة علـها السلاطة الخضراء وسلاطة الزبادي وطبقا من الجبن. وجرت بينهم الضحكات وكؤوس النبيذ الروزية. ولم تلبث دنيا أن أخرجت الهدية التي اشتركن في شرائها. فتح حسام ورق الهدية الأزرق بعد أن أزاح بحرص النجوم الفضية من فوقها. أشرق وجهه بالسعادة. «كتب... ربنا يخليكوا. محمود درويش. ده إنت يا بت يا دنيا. يونج وأدلر ده سارة طبعا. إيه ده وإنت يا نورا ما اختارتيش كتاب ليه عن الجنس والسعادة الزوجية!».

«لا ما إنت مافيكش أمل في المنطقة دي. أنا عندي شك أصلا إنك بتشتغل بحق ربنا. قلنا نثقفك في مناطق ممكن تستوعبها بدل ما إنت....».

«مش عايز أي تجاوزات. اسكتي شوية وخليها بجميلة».

صمت حسام وهلة قصيرة وأردف بعدها «أنا دلوقت بس حسيت إني فرحان. عارفين منى لما عرفت كان إيه رد فعلها! طلبت زيادة مصروف البيت وتغيير قماش الصالون وسيراميك الحمام وكان فاضل تقولي نقدم لمحمد اللي عنده ٣ سنين في الجامعة الأمريكية بالمرة».

ارتفع صوت نورا بعصبية «مش كفاية الست مستحملاك يا أخي. هو إنتم ما بتحمدوش ربنا أبدا. أنا زهقت من الغباوة».

ران الصمت للحظة قصيرة فيما نظرت دنيا وسارة إلـها بدهشة. ولم تلبث أن قررت دنيا كسر جدار الصمت «بالراحة علـه شوية يا نورا. حسام مش مفتري. أنا عمري ما شفت راجل متجوز بقى له ست سبع سنين ولسه بيفتكر يجيب لمراته ورد وهو راجع مطحون من الشغل. قول لأختك كام مرة ورد في الشهر يا واد».

لم يبد على حسام أنه قادر على استكمال الضحك. ولم تكن لديه كذلك كلمات تناسب نورا في تلك اللحظة. انحسرت ضحكته في حركة جزر مفاجئة وقد ضغطت كلماتها بقسوة على ذلك الجرح المفتوح الذي يجيد إخفاءه جيدا عن نفسه. عادت إلـه كل محاولاته أن يشد منى لعالمه. الكتب التي أحضرها لها. أحاديثه معها عن الحياة وعما نريد منها. لم يكن يريدها محللة سياسية أو حتى مهتمة بالسياسة من بعيد. ربما رغب فقط فيمن يستطيع الحديث معه عن تلك الهوَّة المظلمة داخله التي لم يقترب منها للحظة حتى يمارس التراجع لساعات. كم تمنى لو تشعر به في لحظات وجعه مثلما يشعر بتعبها من طفل صغير ومسؤوليات البيت، فيأخذها لنزهة أو يحمل عنها محمد ليلا كي تنام. لكن منى كانت مصممة على الاهتمام بنفسها فقط. بما تريد منه في لحظة بعينها. وهل بإمكانه أن يلومها وهو المسئول الوحيد عن زيجة بلا حب. وعن ارتباط كان رد فعل لانتهاء علاقته بسلمى بعد الجامعة! زفر وقد بدأ يشعر بالهواء الداخل إلى صدره يتناقص.

نظرت نورا إلى حسام وقد شرد بعيدا واكتسى وجهه بشيء من الأسى فشعرت بالضيق من نفسها «حسام إنت عرفت اللي حصل لريمون؟».

رفع حسام عينيه إلـها متسائلا وقد قرر ألا يفسد الليلة «موتي الراجل؟ يا نورا يا بنتي أنا مش وصيتك على سمعة مصر».

حكت نورا باختصار ما حدث وختمت كلماتها بلا مبالاة لم تخفى المرارة «راح مع اللي راحوا في٦٧».

تدخلت دنيا «أنا في اعتقادي إن الاحتاج في الفترة الأخيرة بيتزايد لمقبرة جماعية».

تلفت حسام حول نفسه ثم انتفض واقفا بعد أن ترك كأس النبيذ من يده «أنا مروح لأتقتل الليلة دي. ما إنتم ما حيلتكمش راجل تتشطروا علـه إلا أنا».

سارعت نورا بالرد «هنعالجك يا حسام من مسألة راجل دي».

وأكملت دنيا «هو إحنا ما قلنالكش إننا التلات ساحرات اللي طلعوا لماكبث في الغابة».

وبحركة عفوية أمسكت كل منهن شمعة وألقت على رأسها ما وقع تحت يدها من قماش. فوضعت سارة كوفية حسام فوق رأسها فلم يظهر إلا عيناها. واختفى رأس دنيا تحت جاكيتتها. أما نورا فقد شدت مفرش المائدة الصغيرة عن يمينها ووقفن جميعا حوله.

رفعت نورا يدها بالشمعة «أي حسام مولاي أمير المنصورة».

واقتربت دنيا بشمعتها من وجهه «أي حسام سيدي الموقر أمير الوجه البحري».

وتقدمت سارة وقد كشفت عن أسنانها في ابتسامة صفراء «أي حسام سيدي المبجل موحد القطرين».

ثم أطلقن قهقهات شيطانية جرى على إثرها حسام إلى المطبخ وضجوا جميعا بالضحك وهن يجرين وراءه بينما يردد من بين ضحكاته «لأ ده منى أرحم منكم».

وعندما هدأت ضحكاتهم وعادوا إلى مكانهم حول المنضدة كانت عينا حسام لا تزالان تدمعان من أثر الضحك «عايز أقول لكم إن أنا ما ضحكتش كده من سنين».

ثم نظر إلى نورا بحنان «ما تزعلش يا حبيبتي».

أوجعته ابتسامتها المتهكمة وشعر بالشفقة عليها. لم يفهم لمَ مرقت في ذهنه تلك الحكاية البعيدة. لمعت عيناه وهو يسألها «أنا عمري حكيت لكم عن الهاجس اللي فِضل مصاحبني سنين؟ إني مش ها أعرف أعمل حاجة مع أي ست؟».

الْتفتْن إليه وقد بدأ يحكي عن ذلك الخوف من الانكسار الذي لازمه منذ كان على أعتاب الرجولة. في المدرسة كان يستمع إلى مغامرات الصبيان مع النساء ويرى الكذب يكاد أن يقفز من أعينهم. كان يستمتع بسؤالهم عن تفاصيل صغيرة لن تلبث أن تكشف أن مغامراتهم مع النساء لم تتعد جدران خيالهم الأربعة. وعندما يعود إلى وحدته في بيت فاطمة، كان الشبح ينفرد به ويتلذذ بتعذيبه مؤكدا له طوال الوقت أنه سيصبح أضحوكة مع أول امرأة يقترب منها. في البداية احتمى بنشأته الريفية وبيئة مغلقة لم يكن متاحا فيها أكثر من مداعبات متناثرة تنتهي به وقد انتصب جسده دون متنفس إلا وكان وحيدا ومفتقدا لسخونة الآخر. لاحقا مع سنواته الجامعية عندما أحب سلمى كان بديهيًا ألا «يلوث» الحب الذي جمعهما. وقد أمهلته تلك القناعة بضع سنوات دفع أثناءها الشبح بعيدا بدل المرة مرات.

ومع بدايات استقرار الأحوال كانت سلمى قد ذهبت وتركته يخوض أول تجاربه مع زميلة في العمل لم يكن يحبها. لكن استعدادها للتجربة كان واضحا. وجه الحديث إليهن وشريط الذكرى يمر أمام عينيه بكل التفاصيل الصغيرة لذاك اليوم،

«عديّت شارع خلوصي وأنا مرعوب وباتلفت حواليّ كإن كل الناس عارفة أنا رايح أعمل إيه مع واحدة متجوزة وأم وأكبر مني بكبشة سنين. ما كنتش خايف أتقفش بس وفي منطقة نص شعبية. لأ أنا كنت مرعوب من نفسي، على نفسي لأطلع فشنك. وبعد مغامرات الطريق، وطبعا كل واحد مننا طلع لوحده، والست يا عيني طالعة لي في قميص نوم أحمر إنما إيه. اشمعنى أحمر يعني! ما علينا.. مش فاهم إيه اللي حصل وقتها، حسام مشي ولقيت أستاذ ربيع (ده كان الناظر العرّة بتاعي في إعدادي) جه وبدأ يدي الست الغلبانة محاضرة في الأدب واحترام الزوج (مهما كانت عيوبه) والأولاد. الخلاصة.. إديتها محاضرة متنقية وهي يا عيني فاتحة بقها مانطقتش بكلمة».

علقت سارة «في الأغلب إنها لسه فاتحاه لحد النهارده».

ارتفعت ضحكاتهن. واقترحت دنيا «دي لازم نسميها حكاية «ذات القميص الأحمر»».

علقت سارة من بين ضحكاتها «أعتقد إنها لم تجرؤ على الفهم. أو خلينا نقول عجزت عنه. إنت هتفضل بالنسبة لها راجل مجنون ووقح وهتفضل تضحك كل ما تفتكرك».

واستكملت نورا وهي تمصمص شفتيها بطريقة أمها «على الأقل محاضرة في الأخلاق أرحم من إنه كان يطب ساكت وهو في حضنها».

أما دنيا فقد اكتسى وجهها بالحمرة «إنتم عيال مجرمة. أنا مش عارفة صاحبتكم إزاي».

التفتت نورا إليها وهي تستكمل مصمصة شفتيها بتأسٍ «اتعلمي لك حاجة تنفعك بدل الخيبة اللي إنت فيها. إنت يا بت يا دنيا لو كنت عايشة في أوروبا كانوا عملوا لك تمثال وسموه «عذراء في الثلاثين». والناس تروح تتفرج علىكِ في متحف التاريخ الطبيعي جنب الديناصورات المنقرضة».

في طريق العودة إلى البيت كان شعور بالبهجة يقترب من حسام كريشات عصافير تداعب وجهه وتتركه مبتسما. بحث في تابلوه السيارة عن جاهين. يحب الرباعيات التي غناها الحجار، لأن صوت جاهين يتخللها. أعاد الشريط إلى رباعية بعينها

يا عندليب ما تخافش من غنوتك

قول شكوتك واحكي على بلوتك

الغنوة مش ح تموتك إنما

كتم الغنا هو اللي ح يموتك

ابتسم إذ أدرك أن تلك هي المرة الأولى التي يتعرى فيها أمام آخر وبهذا القدر من العفوية. من دون خجل أو ادعاء مثلما يحدث في بعض لقاءاته مع باقي أصحابه. لا يتذكر لتلك المرة سابقة. تساءل إن كان لتلك الراحة من تفسير؟

«يمكن علشان هما ستات!».

«لأ. يمكن علشان شفتهم كتير بيتكلموا عن انكسارهم من غير تمثيل للبطولة».

«وإنت خلاص مش عايز تبقى بطل؟!».

صمت للحظة وقد صدمته الفكرة «تصوَّر فعلا إن ده كان في بالى من غير ما أدري. دايما عايز أبقى الواد الجامد مع الستات وراجل البيت مع أمي وأحسن صحفي في الموقع».

«وهو ده شيء وحش؟».

«في حد ذاته لأ. لكن بيتهيأ لي لازم يبقى جنبه حاجات تانية حقيقية بتحصل. أسئلة تطلع من جواك وتلاقي لها شوية إجابات».

«قصدك الهوة الضلمة اللي بتحسها كتير ومش فاهم مصدرها؟».

«تصدق إن كل مرة أتكلم معاك تخلص بإني مش عايز أعرفك تاني. بس أرجع وأسمع لك. ياللا إمشي غور في داهية».

لكن حسام في الحقيقة لم يكن غاضبا ولا حتى متضايقا منِّي. رأيت الأسئلة تتقدم بصفوف منتظمة إلى مقدمة رأسه. ولم أر أحصنة أو سيوفا ومحاربين مستعدين للذود عن حصن الجمود الذي بدأ في نصف العتمة يتبين موقعه القديم. ابتسمتُ وأنا أمنحه قبلة خاطفة.

مرقت نسمة هواء خفيفة من نافذة السيارة ومست وجهه برفق. ارتعش قلبه.

(٣)

هنا تحت شجرة الأم الأولى سأجلس.

سأجلس حتى يبلى جسدي ويجف جلدي إلى أن أصل إلى بوابات المعرفة.

هذا ما قاله بوذا وهو يأخذ مكانه تحت شجرة النور العليّ.

واهتزت الأرض ست مرات حين شعر كبير الأبالسة

أن سلطانه في العالم سوف يتقوَّض

لو فاضت روح بوذا بالاستنارة وسطعت جنباته بضياء الحقيقة.

فجاء بكل مغريات الدنيا وعرضها أمامه.

بقي قلب بوذا ساكنا كهيئته.

ساكنًا كبرعم لوتس فوق بحيرة صافية

راسخًا كجبل عتيق الجذور.

ولم يلبث رئيس الأبالسة أن أطلق تنانين مرعبة ملتهمة

أحاطت بشجرة المعرفة وراحت تضيّق الخناق.

لكنها ارتدت خائبة. تحولت أسلحتها إلى زهور تعلقت في الهواء فوق رأسه.

وما إن حل المساء حتى بدأ قلب بوذا يضيء بالنور الكامل

كزهرة كونية تتفتح(٢).

خرجت سارة من المحاضرة ووقفت في الطرقة المكدسة بالطلاب تستكمل حديثا مع منال، التي أنصتت إلى تعلقات سارة على بحثها، وأخذت تدوّن الملحوظات في كشكولها «المقدمة طويلة جدا. لازم تختصر. الفكرة كويسة بس محتاجة تدعميها بمراجع أكتر».

عندما انتهت سارة من ملحوظاتها تأملت الفتاة بابتسامة دافئة «إنت كويسة؟».

شفَّ وجه منال عن ملامح توتر مكتوم «الحقيقة لأ. نادر عامل لي رعب. بيتجسس عليّ. بيمشي ورايا في كل حتة، وساعات ألاقيه على باب بيتنا. عارفة حضرتك لو طلع لأهلي...».

«هو مش كان سكت وبعِد عنك؟».

«كام شهر وظهر تاني. هو دايما بيفكَّر يضايقني لما يشوفني كويسة».

«طيب ما فيش راجل من أهلك يتدخل؟».

«مش ممكن يا دكتورة. أنا مش عايزة أهلي يعرفوا. أمي ممكن يجرى لها حاجة وأبويا هيعمل فيّ إيه!».

تركت سارة طرقة الدور وقد أطبق علىها إحساس بالعجز. اتجهت إلى سيارتها في الفناء الخلفي للكلية والشفقة على الفتاة تتجاذبها مع العجب من أب وأم مسافرين طول الوقت، ويعطيان أنفسهما الحق لجلد ابنتهما عند الخطأ. ابتسمت للشباب الذين جعلوا من السيارة مجلسا لهم ورفا لكتبهم ولعلب الكوكاكولا. قاموا معتذرين «معلش يا دكتورة».

لم تذهب ابتسامتها وهي تغلق باب السيارة وتخرج الموبايل لتفتح الصوت.

في طريقها للخروج كان علىها أن تلتف حول مظاهرة ضد الحرب الأمريكية في العراق والوحشية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين العزَّل. لفت نظرها تواجد طالبات غير محجبات في صفوفها. كما لمحت بعض الوجوه التي لم تستر الملابس المدنية هويتهم

كمخبرين فقد كانوا أكبر من الطلبة سنا ولم يشاركوا بقدر ما بدا من ملامحهم أنهم يرصدون ما يحدث. عند وصولها للبوابة الرئيسية وجدتها مغلقة وأشار لها الضابط بالالتفاف من إحدى البوابات الخلفية. تكدس بضعة آلاف من جنود الأمن المركزي حول البوابات رافعين الهراوات والدروع السوداء وأوجها سمراء متشابهة الملامح.

في طريقها إلى البيت شعرت بموجة أسي تقترب ووجه منال المنكسر يقف في ركن منزويا على نفسه، بينما عدة آلاف من الجنود يرفعون الجماجم على أسنة هراواتهم التي بدت لسارة ملطخة بالدماء. «لو الحكومة بتصرف عيش للناس قد عساكر الأمن المركزي كانت اتحلت الأزمة الاقتصادية اللي فلقوا دماغنا بيها!».

ابتسمت بمرارة وهي تبحث في الشرائط أمامها. فتشت عن موسيقى قادرة على صفق الأبواب في وجه الأشباح الآخذة في الاقتراب.

كلموني تاني عنك.. فكروني.. فكروني

صحوا نار الشوق في قلبي وف عيوني

مع بدايات الأغنية أتاها عمرو بوجهه الضاحك وتلك العينين الصغيرتين اللتين يتقافز منهما ذلك المزيج من الطفولة والطيبة. لم يسمعا الأغنية معا لكنها تذكرها دوما به. حتى في وقت حبها لنديم كان عمرو يزورها مع..

رجعوا لي الماضي بنعيمه وبغلاوته

وبحلاوته وبعذابه وبقساوته

وافتكرت فرحت وياك قد إيه

وافتكرت كمان يا روحي بعدنا ليه

تنفست بعمق عدة مرات فبدأت تشعر بشيء من الهدوء يقترب. وبدأ الثقل الحجري الرازح فوق صدرها يخف رويدا. فكَّرت أنها في هذه الأيام قد بدأت تشعر بقدر من براح داخلها يتنامى بعد انحسار حكاية نديم. لم تعد الشوارع والأغنيات مثقلة بالوجع. عاد الهواء لدوراته اللعوب يدخل إلى صدرها بسهولة، واسترجعت الموسيقى قدرتها على العلو بها إلى فوق التل الأخضر في «بادستو» والنوارس تحلق فوقه وتهبط سريعا إلى سطح الماء لالتقاط سمكة شاردة. انزاح الحزن من فوق وجه القمر. عاد رائعا بفضته واستدارة ملامحه على خلفية من سواد.

«نفسي حد يقول لي ليه القمر في اللغات اللاتينية أنثى والشمس ذكر وفي لغتنا العكس؟ مع إن القمر في الأساطير والحواديت وفي علم النفس هو فعلا أنثى؟!».

علا صوتها فتداخل مع الأغنية:

بعد ما صدقت إني قدرت أنسى

بعد ما قلبي قدر يسلاك ويقسى

جم بهمسة وغيروني

كانوا ليه..ليه.. ليه.. ليه بيفكروني

ابتسمت. وعندما توقفت السيارة في إحدى الإشارات في شارع البحر الأعظم، نظرت إلى مرآة السيارة فقابلتها عينان مشاغبتان

فيهما طيف بهجة لم تعرف لها سببا محددا. ابتسمت «خير يا حاجة «حتحور»؟».

قطع رنين الموبايل سؤالها. التقطته ونظرت بذهول إلى الاسم على الشاشة. ردت بصوت مرتجف «آلـو».

جاءتها لحظة صمت ثم صوته مشحونا بالتوتر «آلو سارة أنا عمرو. نسيتِ صوتي؟».

تزايد عنف دقات قلبها «يا سلام يا عمرو أنسى صوتك إزاي! إزيك».

«أنا كويس، أمي هي اللي تعبانة. حسيت... إني محتاج أسمع صوتك».

استكملت الطريق إلى المعادي وشيء يشبه بهجة مرتبكة يتلاعب بها. وموجة من الاشتياق تغمرها.

ساعات تفصلها عن موعد لقائه في نفس اليوم. دخلت سارة إلى البيت وأغلقت الترباس. ألقت بالكتب والأوراق على المكتب ومدت خطوتها إلى الحمام. نزلت برأسها تحت تيار الماء الساخن وصوت أم كلثوم يجيئها من غرفة المعيشة:

بعد ما اتعودت بعدك غضب عني.. غصب عني

بعد ما نسيت الأماني والتمني

كلمتين اتقالوا.. اتقالوا

شالوا الصبر مني

صحوا فـ عنيا حنينهم لابتسامة

لفت البشكير الأزرق حول جسدها، والتقطت زجاجة الكريم السائل بعطر الليمون وهي تنظر لوجهها في المرآة. كانت بشرتها رائقة وفوق سطح عينيها طفا بريق قديم وسؤال.

«أيوه فرحانة!».

دخلت إلى المطبخ لتعد طبقا من السلاطة الخضراء بعد أن وضعت بيضتين في الماء وأوقدت البوتاجاز. أخذت وجبتها ودخلت إلى غرفتها. كانت الساعة الرابعة بعد الظهر وباب الشرفة يغرق الحجرة في ضياء الشمس. شدت الستارة فأظلمت الغرفة تماما. أوقدت الأباجورة وفتحت التليفزيون على الـCNN التي كانت تبث خطاب بول بريمر للشعب العراقي :

«اليوم يراوغ الشرير مطارديه، لكنه يعرف أن ليس بإمكانه العودة.... إن طغيان صدام قد انتهى. ولن يحكم مهد الحضارات مرة أخرى. لن يتلاعب بالقانون في المكان الذي شهد مولد قانون حمورابي... وبينما يقترب رمضان، شهر المغفرة والرحمة، فإنني أشجع كل من يتذكر منكم هذا الشهر قبل مقدم صدام أن يفعل. فليتذكر مذاق هذا الشهر الذي تتأكد فيه الروابط العائلية. ثم ينتظر رمضان جديدا وقريبا حيث تستمتع عراق حرة ومستقلة بالهدوء والسلام مع جيرانها. رمضان هذا العام سيكون حرا فقد تغيرت أشياء عديدة في الأشهر الأخيرة. ورغم أننا نعلم جميعا أن الأمور لا تزال بحاجة للمزيد من الإصلاح. لكن علكم ألا تفقدوا الأمل. خاصة في شهر رمضان علكم ألا تفقدوا الأمل».

صفقت سارة وضحكتها تتردد بغيظ في أرجاء الغرفة «الله ينوِّر ياشيخ بريمر. اللهم زد من إيمانك يا راجل!».

عندما خطت إلى الطاولات الملاصقة لنيل المعادي في «جراند كافيه» كان الظلام قد حل وكثف من أضواء المكان على صفحة

النهر العريضة. بدت في البذلة البنفسجية كإحدى فراشاتها التي تلعب على التل المجاور لبيت إيزابيلا في أوقات الصيف. وقف عمرو عندما رآها. تقدمت إليه بابتسامة وطبعت على وجنتيه قبلاتها. لم يتغير عمرو في السنتين اللتين غاب عنها. لا يزال يمتلك تلك النظرة الطفولية المبتسمة حتى في أوقات حزنه. تابعته وهو ينظر إليها محاولا مداراة ارتباكه «عاملة إيه يا سارة؟».

أخذت نفسا عميقا وهي تفكر من أين تبدأ «خلصت الفترة الأخيرة بحث مهم لازم أحكي لك عنه بعدين. ومهتمة بشغل حركة مارس لاستقلال الجامعة. يعني كفاية كده على تدخلات الأمن في شئون الجامعة. متحكمين في انتخابات اتحاد الطلبة وفي التعيينات من أول المعيدين لحد القيادات وطبعا القيادات المعينة بتعمل لهم ألف حساب».

«أنا فعلا متابع أخبار ٩مارس. وفرحت إن فيه أمل الجامعة ترجع منارة زي زمان. عقبال مصر».

«ها يحصل يا عمرو. اللي بيحصل في العراق وفلسطين مش قليل. الناس ابتدت ترجع تنفعل وتقلق وتتحرك».

«وأخبار جوانياتك إيه. لسه بتتابعي كل المعارك الداخلية؟».

ضحكت وقد تراجع توتر بدايات اللقاء «هو أنا بازهق برضه. بس الغريب إن عمري ما كنت كويسة زي الأيام دي، رغم إني عديت بوقت صعب السنة اللي فاتت».

لمحت النظرة المشاغبة في عينيه «إنتم سبتم بعض؟».

ضحكت «هو اللي سابني».

«ليه؟».

«صدقني لو قلت لك مش متأكدة! بس هو عنده نمط في علاقاته. متعوِّد يختفي ويرجع ويختفي تاني. ممكن يكون كان مستني مني نفس نمط العلاقة ويمكن كنت مسكن فاشل لعلاقة أساسية في حياته».

حل عليهما الصمت والجرسون يضع أكواب الشاي والكيك ويتركهما. رفع عمرو عينيه إليها « اللي خلاني أكلمك هو تعب أمي. حسيت إني محتاج لك وواحشاني. قلت ها أبقى صادق مع نفسي وأكلمها».

«مالها ماما؟».

«مشاكل السن يا سارة. دخلت العناية المركزة من أسبوعين وشكلها مش بتتحسن».

«ربنا ها يعمل اللي فيه الخير يا عمرو. وإنت؟».

«الشغل ماشي أحسن. بافتكر إني عرفتك في أصعب أوقات حياتي. كنت لسه باعافر علشان أتحقق ومكتب الديكور لسه ما اشتغلش. لما باتأمل علاقتنا وباقرأ جواباتك الأخيرة ليّ، باعرف إن أنا كمان كنت مسئول عن اللي حصل. ما خدتش بالى إنك مخنوقة من الوقت القليل اللي بنقضيه سوا. كنت باتعامل معاك على إنك حتة مني مش ممكن ها تمشي لإنك هتستحملني زي ما ممكن أبقى مش طايق نفسي بس هاستحملنى».

«أنا كمان يا عمرو فهمت إني كنت مستعجلة. صبري نافد وعايزة أعوَّض السنين اللي كنت مدفونة فيها في عيشة شبه الموت. طماعة. عايزة من الدنيا حاجات كتير كأنها مفروض تعتذر لي عن أخطاء أنا ارتكبتها!».

«أنا مش باعاتبك يا سارة. بس الوقت بيثبت لي إني مش عارف أحب ست تانية. غصب عني هاسامحك».

انزلقت قطرات من عينيها ساخنة وسهلة وهي تنظر إليه. هل هذه دموع محبة أم امتنان! لم يكن لديها رغبة أن تتبين إجابة. رفع

عمرو يده إلى وجهها والتقط خيط الدموع من آخره بالقرب من شفتيها. مسحه مبتسما «ما اتغيرتيش يا سارة».

مسحت بيدها ما تبقى من خيوط الماء على وجنتيها؛ بينما القطرات تواصل تتابعها «بس كبرت شوية. فهمت إن ما فيش ألم بيعدي علنا إلا وله هدف. ناس كتير بياخدها الوجع فيعدي الدرس قدام عنيها ويفوتها. وناس تانية في قلب الوجع تبقى عارفة إن دي ولادة جديدة».

شردت للحظة ثم عادت تنظر لعمق عينيه وهي تهمس بالكلمات كأنها تفشي سرا «عمرو أنا ساعات باخاف».

«من إيه يا سارة؟».

«باخاف إن بالمعني ده الدنيا طيبة قوي معانا. طول الوقت بتبعت لنا هدايا كتيرة والشوية الصغيرين اللي بنلمحهم مش حاجة قليلة أبدا. النوع ده من السعادة بيخوف. كإن لحظة اكتمالك هي لحظة موتك برضه. طيب ها تعيش ليه بقى إن كنت فاهم قوي وراضي جدا كده!».

«بس برضه يا سارة إنت فاهمة إن دي بتفضل مجرد لحظات. ومضات وبتعدي ونرجع بشر نتألم ونبقى مش فاهمين ليه الدنيا بتعاملنا بقسوة».

«عندك حق. وساعات نبقى فاهمين ونعمل نفسنا مش فاهمين علشان نطمّن نفسنا إن لسه عندنا مساحة للدهشة».

شفَّ صوته عن مسحة مرارة «أنا مش زيك يا سارة. أنا سايب نفسي لدوشة العالم. ستات كتير حواليّ. باحتاج يفكروني إني لسه مرغوب. شغل عيال يعني. ودوشة شغل ومواعيد وخروج وسهر. مش عارف إن كنت هاقدر في يوم أقعد مع عمرو لوحدنا. ويا ترى ها ألاقي جوه حاجة ولاّ الدنيا فاضية».

في الطريق إلى البيت هدهدت سارة حالة من الهدوء كأنها تسير فوق سحابة ناعمة يغمرها السكون. كانت قد بدأت تغوص بقدميها في تلك السحابة أثناء الحديث مع عمرو، ولم تلبث أن دخلت في عمقها عندما أوصلها إلى سيارتها فأخذته في حضن طويل تركه وقد لمعت عيناه بغشاوة دموع. عندما أدارت السيارة وانطلقت على كورنيش المعادي تنفست بعمق لم تشعره منذ وقت بعيد. وأفسحت تلك الحالة من الهدوء مساحة لقرار بالدخول إلى نفسها في هذه الليلة.

في البيت كان أول ما فعلت هو أن فتحت حقيبة أوراقها. أخرجت أبحاث الطلبة وانتهت منها قبل مرور الساعة. كان قلبها يخفق كأنه على موعد ساخن. تدفع الوقت أن يمر حتى يأتيها بالحبيب. أعدت النسكافيه وفتحت الكمبيوتر على ملف رحلتها «في اتجاه الشرق» بعد أن أدارت C D «أغنيات بوذا المقدسة» الذي يأتيها بتلك الهمهمات الهندية التي لا تعرف معناها وإن كانت لم تتركها مرة إلا وقد هدأت وتبينت ملامح بوابات المعبد.

تذكرت السيجارة التي كان قد أعطاها لها أباها منذ أيام. أشعلتها وهي تفكر أن قرار الدخول لم يأت فقط بإيعاز من لقائها بعمرو. كانت الرغبة قد تفتحت داخلها وهي تستمع لحسام منذ أيام في ذلك الحديث الضاحك عن «ذات القميص الأحمر» كما أسمتها دنيا. فبينما كان حسام يستدعي التجربة وجميعهم يضحكون، كانت دهشتها تتنامى، إذ تدرك للمرة الأولى بهذا القدر من الجلاء أن الرجال قد يكون لديهم أيضا علاقات معقدة مع أجسادهم. استغربت سذاجتها إذ لم تطرأ على بالها الفكرة من قبل وبهذا الوضوح. كتبت الجملة الأولى «يبدو أن استغراقنا في ألمنا الخاص يعمي أعيننا عن أن الآخرين قد يعانون ألما مشابها. أي سذاجة تجعلنا لا نرى!».

تكاثفت رائحة الحشيش المنبعثة من السيجارة وهدوء ليل القاهرة المفتوح أمام نافذة الشرفة مع همهمات بوذا المصحوبة بنايات أسى وحنين ناعم أخذ يجذبها برفق إلى العتمة. رفعت يديها من فوق لوحة الحروف وسرحت مع إحساس غامر بصفاء ذهنها. كأنه بلورة من الكريستال الشفاف ترى في عمقها تفاصيل عدة. لم يكن عقلها غائصا فقط في عمق الأشياء ولكنه كان محلقا

خارجها أيضا. كأنها ترى إيزابيلا الآن نائمة في فراش بملاءات زرقاء. رأسها يرقد بهدوء فوق المخدة الناعمة وصوت الأمواج يهدهد حلمها. كانت تحلم بكاتي. تقابلها في الطريق مصادفة فتجري نحوها لتحتضنها والدموع تتسارع على تجعيدات وجهها الخمري النحيل. ستصحو إيزابيلا لتجفف وجهها وهي تسترجع وجه كاتي في الحلم. كأنها تري نورا تدور بسيارتها وحيدة في ليل القاهرة. سارحة مع صوت ميشيل ساردو الذي يأتيها دوما بخالد: «هحبك حب ما يقدرش حد يتجرأ ويحبهولك». ارتعشت.

أغمضت عينيها وتنفست بعمق. سحبت شهيقا طويلا. حبست الهواء في صدرها لوهلة ثم أخرجت زفيرا رأته يسحب معه موجات غضب كانت قد ترسبت بلونها الأسود على قاع محيطها. سكن الليل تماما وهي تسير في طريق حجري نحيل يصعد بها تلاً. في تقدمها البطيء تستطيع أن ترى بجلاء بلاطات حجرية غير مستوية. كل منها قد نحت الزمن أطرافها بيد مبدعة. صعد الطريق بها. لم يزرها سؤال عن وجهتها. وعندما لمحت ذلك الباب الخشبي العتيق المتشقق وقفت أمامه. اقتربت بوجهها من زهور برية دقيقة الحجم بيضاء وصفراء قد نمت من بين الشقوق.

تلمست خشونة الخشب الباهت بينما رائحة الرطوبة المنبعثة منه تشدها في دوامات متتابعة. أدركت بدهشة أن عينيها تريان في الظلام. دفعت الباب برفق فانفتح رغم ثقله. تقدمت بخطوة وجلة إلى الداخل. تعرف أن بإمكانها أن ترى كأنما من وراء نافذة زجاجية. وأن أحدًا لن يراها. بالرغم من ذلك تسارعت دقات قلبها بوجل عندما قابلتها ملامح وجه محمود الجامدة. تلفتت في العتمة تتبين التفاصيل فرأت سارة كما بدت منذ سنوات تسع، بملامح طفولة مهزومة، بظهر محني يئن تحت ثقل حجري وعيون تفضح الأسى والأسئلة. يعلو صوت محمود في انفعال،

«يا سارة أب وأم مثقفين إيه دول اللي سابوكي لجدتك تعمل فيك كده. ده مالوش غير اسم واحد. إهمال وقلة اهتمام. طبعا كل واحد منهم ما كانش فاضي لك. مش كان كفاية إن جسمك بيسقَّط كل جنين والدكاتره مش عارفين يعملوا لنا حاجة. كمان مكتوب عليّ أعيش مع ست باردة».

تزايدت حمرة وجهها من الانفعال وحرارة شهر أغسطس وهي تصرخ فيه للمرة الأولى «طيب لما أنا مش ست ولا أم خلاص بقى نتطلق».

فضح صوته قدر الشفقة «إذا كنت مستحمل وراضي ده علشانك. مش سهل تلاقي راجل يستحمل واحدة عنيها بتلمع ووشها بيحمر وهي بتتكلم على كتاب أكتر ما بتظهر نفس الحماسة في السرير مع جوزها».

جف حلقها وتيبَّست أطرافها وهي تتابع في ذهول ملامح محمود في تحولها البطيء. تضاءل حجمه واتخذ جسده شكل سمكة فضية نحيلة وهو يعود إلى علبة صفيح صدئة ملقاة على الأرض بجانب الجدار الحجري السميك ويرقد داخلها. جرجرت سارة جسدها المتشنج ببطء. التفتت تتأمل العينين الجاحظتين المصوبتين نحوها فانتابها شعور بالغثيان جعلها تمسك بطنها بعنف كأنها تثبتها في مكانها. في إمساكها ببطنها المتشنج هبط علمها يقين. لقد لفظ جسدها كل طفل من هذا الرجل عامدا. ألم يقل الأطباء إن لا علاج لديهم لحالتها لأنهم لم يمسكوا بمشكلة لديها. هل اتخذ جسدها القرار منفردا وقام بتنفيذه دون استشارتها! وهل لو استشارها الآن هل ستوافق على طفل من محمود! رجعت بخطوتها إلى الوراء فارتطم جسدها بباب أصغر على يمين الغرفة. دفعت الباب بظهرها وهي تتراجع. حاولت أن تتنفس بعمق لكن إحساسا بالثقل كان قد أطبق على صدرها بعنف حائلا بينها وبين نسمة هواء.

تلفتت في عتمة الحجرة الصغيرة التي دخلتها، فرأت سارة ذات السنوات السبع في بيت أبيها وأمها في المعادي. تلك ليلة السبت لا شك، لأن كاتي توقد الشموع على مائدة غرفة المعيشة فيتلألأ النبيذ الأحمر مع انعكاس اللهب الصغير علمه. تلمع الأوراق الصغيرة الكثيفة لشجرة البنجامينا في ركن الغرفة والتي كانت كاتي قد رشتها منذ قليل ببخَّات الماء الممزوج بمادة ملمعة للوريقات. دقائق ويبدأ الطقس الأسبوعي لمشاهدة «نادي السينما». أيمن وسارة يساعدان كاتي في إعداد المائدة. سارة تقترب لتحمل الأطباق من أمها فتهب علمها رائحة الليمون التي كانت تندس في حضنها من أجلها. تلتفت كاتي فتجدها واقفة على باب المطبخ فتقترب منها وترفعها إلى حضنها.

«إيه يا قطة خلصت الواجب؟».

تقبلها وراء أذنها فتضحك سارة وقد غمرها ذلك المزيج من العرق البريء ورائحة زهر الليمون. يأتيهم صوت بهاء من غرفة

المعيشة مبتهجا مع بداية البرنامج «كاتي. سارة.. النهارده «هاملت».

تعود سارة بالأطباق من المطبخ فيشير بهاء إلـها وإلى أيمن بالجلوس بجانبه «عارفين يعني إيه ال-coining words؟».

رفعت سارة عينيها إلـه باهتمام بينما صمت أيمن محاولا إظهار التركيز.

«يعني نحت لغة جديدة. ده واحد من أسباب عظمة شكسبير».

ابتسمت سارة وقد تلاشت صورة محمود وأذهب عطر الليمون شعورها بالغثيان. اقتربت. مدت يدها بعفوية لتلمس وجه كاتي الخمري الناعم وتلكما الشفتين المنفرجتين عن أسنان بيضاء صغيرة متساوية كأسنان الأطفال. كم تشتاق يدها ملمس ذاك الشعر البني القصير وتلكما العينين القادرتين على الاحتضان! مع أولى خطواتها حل صمت مفاجئ وتلاشت الصورة. ابتلعت لزاجة صبار على شفتيها.

التفتت حولها تبحث عن الباب واتجهت إلـه. لم يكن ذلك هو الباب الصغير الذي دلفت منه إلى الحجرة، بل كان بابا على الطرف الآخر للمكان. حجرة أخرى داخل الحجرة. دفعت الباب الخشبي برفق. كان ثقيلا فلم يتزحزح من مكانه. دفعته مرة أخرى بكتفها فبدأ يصدر أزيزا في تحركه البطيء. اتَّسخت يداها من طبقات الغبار المتراكمة وخيوط العنكبوت المستقرة فوق سطحه.

عندما خطت إلى داخل الغرفة شهقت بفزع. لم تكن لتخطئ ملامح تلك الغرفة الريفية في قرية جدتها لأبيها. السرير الخشبي القديم هاهو وكذلك الأرض المكسوة ببلاطات باهتة الحمرة ذات بقع مقيمة
و النافذة الطويلة المغلقة بقضبان حديدية طولية. حاولت أن تتراجع إلى الوراء وهي ترى أولاد عمومتها يبتسمون بخبث ويتغامزون. لقدميها ثقل الحديد الآن. كأنهما قد تبرأتا منها ورفضتا أي أمر بالهروب. ها هي المرأة في الرداء الأسود تقترب منها وسارة بجسدها الصغير تنظر إلى القامة الطويلة بتساؤل يشوبه خوف. رجعت سارة خطوة للوراء بعد أن زحزحت قدميها المتحجرين فالتصق ظهرها بالحائط. تعرف سارة الصغيرة أن شيئا لن يحبه أبواها سيحدث، فقد سمعت إحدى النساء السمينات تهمس لأخرى «أبوها ممكن يودينا السجن».

رائحة الحريق التي غمرت ذلك اليوم لا تزال في المكان. وإحساس سارة بالغثيان يعود إلـها. لكنها لا تستطيع دفعه هذه المرة مهما حاولت اعتصار بطنها. ها هي المرأة البدينة في لباسها الأسود تقبض علـها من الوراء وتقعدها أرضا. فتبدو سارة لنفسها كأنها معلقة على صليب خشبي بلا قدرة على الحراك. والأخرى، وجه الميدوسا الذي لم يفتأ يتردد على أحلامها لسنين طوال، تجلس في مواجهتها على أرض الغرفة. كان معنى القدر الذي لا مفر منه يتجسد أمام سنواتها التسع وهي ترى نصل السكين يهوي على جسدها الصغير. تصرخ سارة فتبكي سارة وهي تدفع الجدار السميك بجسدها فلا يتحرك إلا ألم عظامها. انقبضت معدتها في متتالية حجبت عنها هواء الحجرة الضنين وتقيأت معدتها الخاوية سائلا مرا. رفعت وجهها فرأت الوجه الأسود للمرأة والثعابين الملتفة حول بعضها تتراقص فوقه والعينين اللتين ما إن نظرت سارة إلـهما حتى تجمدت الصرخة على شفتيها وتحول جسدها حجرا. تكلست ملامح وجهها إلا من العينين اللتين نظرتا إلى جدتها بتساؤل لم يمر على الشفتين الميتتين «هل توافقين!» ولم تقرأ في العينين الطيبتين إلا التردد وبعض الخوف.

انهارت قواها فجلست على الأرض تنشج. آهات متقطعة تخرج من جوفها وقد أغمضت عينيها ووضعت رأسها بين ذراعيها. تقلصت ضلوعها من عنف الشهقات المتتالية التي حجبت الهواء عن صدرها. رفعت وجهها فشعرت بدوار وإظلام في رأسها لكنها أدركت أن المكان الآن قد سكن تماما. ذهبت أصوات النساء في الملابس السوداء وضحكات الصغار. تراجع الدوار فرأت الغرفة مظلمة وخاوية. قامت من جلستها على الأرض وقد شعرت بضعف شديد وترك العطش فمها جافا ومرا. سارت ببطء وهي تستند مع كل خطوة إلى الحائط حتى وصلت إلى باب الغرفة الذي توقعت أن يقودها إلى باب آخر. دفعته بآخر ما تبقى في جسدها من قوة فانفتح بسهولة طارحا إياها إلى الأرض. لامس وجهها أرضا مغطاة بطحالب لزجة قاتمة الخضرة واستقبلتها دفقات هواء طازج يحمل طعم برودة المحيط في «بادستو» وأغشت عينيها بعد الظلمة شمس برتقالية على وشك الرحيل. أين المحيط إذن!

انهارت إلى الأرض فاقدة الوعي.

فتحت عينيها على ظلام غرفتها، وضوء الشمعة الوردية الآخذ في التلاشي وشاشة الكمبيوتر المضيئة. كان جسدها يئن من الوجع. معدتها متقلصة وقدماها ثقيلتان ووجهها مبلل ببقايا دموع، وفي فمها مرارة. ألقت نظرة على الكمبيوتر لتقرأ آخر السطور «قطع اللغز الملونة تتساقط في أماكنها بسرعة وبساطة. يتكشف معنى الألم وذلك الهدف الذي لم أكن لأدركه والأحداث تمر على كصفعات لا معنى لها. يربط كل منها نفسه بالآخر ويشير إلى قطعة بعيدة عندما أمد يدي إليها وألتقطها تسقط هي الأخرى في مكانها الصحيح. وتشكل القطع كلها دائرة مكتملة من المعنى».

جرجرت جسدها وهي تستند مع كل خطوة إلى جدران طرقة بيتها البيضاء. تتلمسها بتؤدة كأنها تتأكد من مكانها. الصداع يعصر رأسها وهي تتأمل وجهها الشاحب في مرآة الحمام وعينيها المحمرتين. ألقت على وجهها ورقبتها دفقات من الماء البارد فشعرت براحة وبدأ الهدوء يعود بطيئا. في المطبخ ألقت نظرة على ساعة الحائط. الخامسة فجرا. أعدت كوبا من الشاي الأخضر وألقت فيه بعود نعناع أخضر وأخذت تفاحة وعادت إلى غرفتها بينما تردد حيطان البيت صدى همسها «كان لازم أعترف لنفسي طول السنين دي إني ما سامحتش أبويا وأمي. أنا ما قدرتش ألومهم وأنا صغيرة علشان كنت فاهمة إن ما كانش قصدهم يتخلوا عني. لكن على الأقل كانوا اتكلموا معايا. أخدوني لدكتور أتكلم معاه!».

تلك هي اللحظة التي فاجأت نفسها فيها أن براءة كاتي كانت مصدر إزعاج لها.

«لأ دي ما كانتش براءة. دي اسمها سذاجة».

«بس إنت كنت بتشوفي في عنيها لمحات تشبه الاعتذار أنها سابتك تسافري لوحدك».

«كنت باحس كأن الأزمة أكبر منها وهي حاسة بالعجز».

«ويمكن هيّ وبهاء قرروا مايتكلموش في الموضوع علشان يعدي».

«لكن ولا واحد منهم حس بألمي أنا. بأسئلتي. بإحساسي بالجرح والإهانة والعجز والخوف و...».

«إنت كمان سكتِ. ماتكلمتش عن الألم!».

«كنت خجلانة. وكنت منتظرة منها تفهم لوحدها. لكنها عجزت عن التماهي رغم حبها ليّ».

«بس مش دي برضه قدرات. يعني حد يقدر يتماهى وحد ما يقدرش».

«ما أنا طول عمري ساكتة ومسامحة.. بس يظهر ضغطت على نفسي زيادة..لازم أحيانا نلاقي حد نصرخ فيه، نلومه».

«وبعد ما تصرخي؟».

صمتت لوهلة وهي ترشف الشاي الأخضر «ها أقعد مع نفسي أشوف اتعلمت إيه».

لم تكن رؤية ذلك الدوم بالشيء العابر. كانت تلك هي اللحظة التي أمسكت فيها موطن الألم بيديها تتحسس مكان الخوف القديم و ترسم ملامحه. لا يزال رحيل أمها المبكر يؤلمها. أخذ منها الأمر سنينا من الخوف قبل أن تترك محمود لتبدأ من جديد. ولم تكن لتتمنى أن يتركها نديم بتلك الطريقة المفاجئة كما سيتركها أبوها يوما ما، وأيضا بدون توقع. فلحظة التخلي تلك لم ترتبط في ذهنها إلا بلحظة الوقوع في أيدي غرباء ينفذون فيها مشيئتهم. يذبحونها أو يحرقونها بينما تحركهم النيات الطيبة أن يخرجوا منها تلك الساحرة القديمة.

أخذت سارة كوب الشاي وشمعة واتجهت إلى الحمام. أغلقت صرف البانيو وفتحت الماء الساخن بعد أن وضعت الشامبو برائحة الصندل. عندما قارب على الامتلاء أغلقت النور بعد أن أوقدت الشمعة الصغيرة ووضعتها على الحافة. تركت ملابسها تنزلق إلى الأرض ونزلت إلى الماء الذي غمرها حتى رقبتها. خرجت منها «آه» قوية مسموعة. وتدافعت حفنة أشباح إلى الخارج.

ابتسمتُ لها فبادلتني ابتسامة متعبة قبل أن تغمض عينيها.

(٤)

جلست السمراء القرفصاء وقد نامت ورقة البردي على حجرها

كعصفور رقيق.

غمست ريشتها في حبر أحمر قد سال ساخنًا من قلبها وكتبت

«الليلة يا قلبي سننساه

أنت وأنا سننسى

ستنسى أنت الدفء

وأنا... سأنسى الضياء.

عندما تنتهي من النسيان أخبرني.

أما أنا فسأطفئ أنوار فكري.

أسرع. فيا خوفي بينما تتلكؤ أنت

أتذكره».(٣)

خطفت دنيا حقيبتها ومدت الخطو في طرقات المدرسة الطويلة نصف المعتمة تبحث عن نادية. الوحيدة بين المدرسين التي بإمكانها أن تسألها طلبا سخيفا كهذا. وصلت إلى فصل «تالتة أول». نقرت الباب وأشارت إلى نادية أن تخرج إليها «نادية أنا تعبانة جدا ولازم أروح. ممكن تشيلي حصتي. أنا قلت لسيستر تيريز».

دقَّقت نادية النظر فلاحظت شحوبها واضطرابا لم تعهده في دنيا التي لم تطلب منها طلبا مماثلا من قبل. وافقت نادية على الفور وقبل أن تكمل جملتها كانت دنيا قد مدت الخطو عبر طرقة المدرسة الرخامية واختفت من البوابة.

سارت دون أن تحدد وجهتها. لكن خطوتها، واسعة وعنيفة، ظلت تدب الأرض كأنما تركلها. وطوال الوقت عقلها يدور في دوامات بقدر عنف مشاعرها في هذه اللحظة. هل ما تشعر به هو غضب أم مرارة أم مجرد صدمة سببت لها ذهولا جعل من عقلها ساحة لعب عشوائية لأطفال عدوانيين!

لم تر دنيا إلا قدميها تدبان بعنف على الطريق الأسفلتي المظلل بالأشجار في أحد شوارع الزمالك الداخلية. لم تلحظ الأشجار التي تحولت إلى مصفاة ناعمة تتخللها بقع الشمس الصباحية بهدوء؛ ولا ابتسامة «عم سيد» صاحب فرشة الجرائد على إحدى نواصي شارع ٢٦ يوليو والذي اعتادت المرور عليه لتشتري الجرائد والمجلات الأسبوعية. كانت خطوتها سريعة كأنها تركض بعيدا عن شبح لا تراه، لكنها تستشعر وجوده مثلما تعرف أن اسمها دنيا وأنها هنا.. الآن... تسير في الزمالك. ذهنها يدور في دوائر تلف وتعود بها إلى أحمد الذي كان قد اختفى منذ شهرين ولم يتصل. فكرت أكثر من مرة أن تهاتفه لكنها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة. وها هي تعرف مصادفة عن زواجه الذي تم من شهر بأكمله: «ولا أنا هنا!». حدثت نفسها بذهول وقد شعرت أنها تجر جسدها الثقيل جرا.

«ياه يا أحمد. قدِّ كده إنت شايفني ولا حاجة».

«يا الله ومش دي نجلاء اللي حكيت لي عنها وقلت هبلة وعبيطة وما بتعرفش تتكلم جملتين على بعض لهم معنى».

«وجواز خبط لزق كده. طيب ليه هيّ!».

«علشان بتحبك؟ بس... عمرك ما قلت لي إنك بتحبها».

«ولاّ على رأي أمي خد اللي تحبك ولا تاخدش اللي بتحبها!».

ظلت تحدث نفسها وهي تمد الخطو في شوارع لم تتبين شكلها وكبارٍ لم تعد تذكر لها أسماء، وصدى بعيد لفيروز يصاحبها «حبيتك تانسيت النوم يا خوفي تنساني.. أنا حبيتك.. حبيتك».ولأول مرة تزعجها أغنية فيروزية. حاولت دفع الأغنية خارج رأسها. «يا خوفي تنساني». أفاقت على صرير حاد لفرملة تاكسي وصياح سائقه «الله يخرب بيوتكم. مش تفتحي يا حمارة».

ألقت نظرة على السائق بملامحه المتقلصة رعبا داخل السيارة. لم تبد اعتذارًا وهي تكمل طريقها وحديثا لم ينقطع «أيوه أنا حمارة. مين قال لك!».

ضاعفت الفكرة من ألمها وأوجعتها اللفظة ففتحت بوابات كانت تحجز وراءها الدموع. أخرجت نظارتها من الحقيبة وارتدتها لتخفي عينيها وإن كان سيل الماء قد غطى وجهها وبلل صدر ال-«تي شيرت» الأبيض.

أنا حبيتك حبيتك

عندما ضرب جرس الموبايل أخرجته من الحقيبة وألقت نظرة على الاسم. فكرت ألا ترد على حسام. لكنها فتحت الخط فجاءها صوته مبتهجا «إزيك يا حلوة. آلو... دنيا سامعاني».

سمع الرد لكنه لم يتبين كلمة واحدة من بين نهنهاتها «إيه يا دنيا فيه إيه؟ أنزل من الشغل أجيلك؟».

لم يميز إلا اسم سارة فعرف أنها متجهة إليها. كانت دنيا بالفعل قد وجدت نفسها أمام الجامعة. حاولت الدخول. لكنها رأت الأبواب المغلقة وعربات الأمن المركزي المكتظة بالجنود المرتدين السواد المتأهبين للانقضاض. لاحظت خروج الطلبة من باب السيارات بشكل فردي. ومن وراء السور الحديدي شاهدت دنيا العدد الأكبر من الطلاب وقد تكتلوا يشاهدون أساتذتهم فوق الدرج المؤدي إلى مبنى القبة الجامعية، رافعين لافتات «لا للتدخل الأمني في شئون الجامعة». «نطالب بالمساواة مع القضاة». «لا لقتل الحريات الأكاديمية». «المنصب بالانتخاب وليس بالتعيين».

طلبت موبايل سارة. لم ترد.

سارة إما في محاضرة الآن أو في هذا الاعتصام. جلست على الرصيف المواجه للبوابات. يصلها ضوضاء الطلبة وصرير فرامل أتوبيسات النقل العام والميكروباصات ورائحة العادم الكثيفة فلا تهتز. كان سيل الدموع قد توقف وتركها في حالة تيبُّس. كأن عقلها قد تحول إلى حجر مثل جسدها. وفي أرجاء عقلها المرتبك لم يتبقى إلا صوت فيروز يتردد بنعومة وعناد «يا خوفي تنساني».

أخرجها رنين الموبايل من دوران عقلها في دوائر شاغرة رمادية بلا ملامح. تنفست عندما أتاها صوت سارة «أنا هاخرج لك حالا بالعربية. تعالى نقعد في أي مكان. بس استنيني هالف من الباب اللي ورا».

«مالك يا دنيا. فيه إيه؟».

دق قلب سارة متوجسا وهي تتأمل شحوب دنيا وملامحها الذاهلة وهي تتخذ موقعها في السيارة.

خرج صوت دنيا باردا خالـا من أى إنفعال «عرفت دلوقت وأنا في المدرسة إن أحمد اتجوز.... اتجوز البنت اللي كان بيحكي لي عنها. فاكراها! اللي كانت بتحبه وكان دايما يقول علـها هبلة وسطحية».

صمتت سارة وهْلة بدت طويلة وهي تحاول العثور على كلمات خانتها وتلاشت. مدت يدها الـمنى وأمسكت بيد دنيا وضغطت علـها برفق «عايزة نقعد فين؟».

«ما تفرقش».

اتجهت سارة إلى «سويس شالـه». أول مكان طرأ على ذهنها والأقرب إلى الجامعة. دخلتا إلى طاولة ملاصقة للنيل الذي لم تبن ملامحه بسبب أسوار النوادي المقابلة. أصرت سارة أن تطلب دنيا شيئا تأكله. لكن دنيا هزت رأسها رفضا بعناد. رقت نبرة سارة وهي تمازحها «طيب بلاش غدا. كلي جاتوه. شكلك زي أطفال المجاعات».

ابتسمت دنيا للمرة الأولى هذا الـوم وظلت على صمتها وعندما جاءتهما أكواب الكابوتشينو والجاتوه سألت سارة عن التفاصيل. تنهدت دنيا «مفيش تفاصيل يا سارة. كل اللي عرفته من بنت زميلتي في المدرسة تعرفه إنه اتجوز ومن شهر كامل. وأنا اللي من هبلي كنت كل كام يوم أبقى عايزة أكلمه وأتراجع. ده ربنا ستر. تفتكري منظري كان هيبقى عامل إزاي!».

«ظ في منظرك دلوقت».

«عندك حق.. المهم أنا. صدقيني يا سارة أنا ما فكرتش أتجوزه. ولو كان عرض عليّ يمكن كنت أرفض. طول الوقت وأنا باحس إنه زي الزيبق. أنا بس مخضوضة. مش فاهمة. طيب اللي كان بينّا، اسمه إيه! وحتى لو كان صداقة بس، وهو ما كانش كده، طيب يقول لي. ليه أعرف من بره!».

ابتسمت سارة بأسى «أنا طول عمري بأشوف أحمد ده من حكاياتك عنه زي المرحوم بتاعي. حد عايز الناس كلها تفكّره طول الوقت قد إيه هو حد رائع وماحصلش. معاكي المسائل كانت راس براس وحجة بحجة. دول عايزين جارية تهوّي لهم على الأنا بتاعتهم طول الوقت. إنت مش شفتي البنت اللي رجع لها نديم بعد ما سابني. نفس الفصيلة. وإحنا ستات بنخنق النوع ده من الرجالة».

سرحت دنيا في بُعد الشهور الأخيرة. تذكرت أن كثيرا ما كان يحدث اختفاء من جانبه ويعود ليخبرها إما عن ضغوط عمل أو أنه كان «زعلان منك شوية». كانت في الفترة الأخيرة قد تأكدت أن العلاقة لا ملامح لها. كانا صديقين وتشاركا في الكثير. هو الذي فتح لها نوافذ على الفن التشكيلي وكان يتابعها دوما بمعارض التصوير الفوتوغرافي تحديدا ليس فقط في الجالري الذي يديره ولكن في أرجاء القاهرة. كانت تشعر معه بالسعادة بالرغم من أنهما لم يتحدثا في زواج. ولم يقل لها بوضوح إنه يحبها. لكن الحب كان واضحا في ضحكاتهما معا وقدر الأمان الذي كان يغمرها في وجوده. في سؤاله الدائم عنها واهتمام حقيقي بما تفعل في أيامها. في نظرة أو لمسة يد. فكرت أنها حتى لو أخطأت تفسير العلاقة فماذا عن قبلاتهما! لكن غموضه الذي لم ينحسر أبدا بات يطبق علـها. لم تتخيل للحظة واحدة أن تسأله «أنا إيه بالنسبة لك». لكن أن يصل الأمر إلى زواج دون أن يُعني بإبلاغها و«من مين!».

أفاقت على يد سارة تمتد إلى وجنتها تلمسها برفق. وصوتها يأتيها هادئا «وبعدين يا دنيا إنت عندك الكتالوج. يعني شفتي حكاية نديم عدت إزاي. ما فيش حد يا حبيبتي بيموت من قلب مكسور».

ابتسمت دنيا رغم سخونة الأسئلة في رأسها «طيب ليه بس ما قالش. يعني أنا كنت ها أعلق له مشنقة!».

اكتست ابتسامة سارة بشيء من المرارة «النوع ده من الرجالة يا دنيا ما يعرفش يواجه. وأنا باشوف ده منتهى الضعف. هو أنا إيه أكتر حاجة جرحتني وأنا باسيب نديم، أو بالأدق وهو بيسيبني، إنه ماكانش صادق. سألته مرات خلاص؟ يقول لي توترات جامعة وطليقته والأولاد. كذاب. وهو أكتر واحد كان بيطق حنك على الحرية. يعني إيه حرية من غير صدق! دول محتاجين ألف باء معرفة بذاتهم علشان يبطلوا يلطشوا في الناس من غير ما يقصدوا».

سرحت عينا دنيا بعيدا. عادت إلى تلك المرة الأخيرة التي رأته فيها منذ شهرين. ذهبا إلى معرض تصوير في معهد «جوته» وتعشيا معا. كان الصمت هو بطل تلك الليلة. على الأقل من ناحيتها. كأن قرارا غائما يتشكل داخلها بالبعد. سئمت تلك الحالة من اللافهم. ولم تكن متأكدة كيف ستبدو الحياة بدونه. أما هو فظل يتحدث عن تفاصيل العمل و«أبويا يا دنيا قلقان عليه في الفترة الأخيرة و....».

لم تركز ليلتها في التفاصيل ولم تنفعل بها كعادتها. كانت تتأمله وهو يتحدث كأنها داخل بلّورة من زجاج ترى الأشياء فقط ولا تسمعها. تتفرج بدون تدخل في الحدث. كأنه لم يكن إلا صورة فوتوغرافية رديئة لا توحي بفكرة أو إحساس.

تذكرت أنها تركته ذلك اليوم الشتوي البارد وقد شعرت بوداع يلوح في الأفق حتى دون تصريح. والآن وهي تعيد شريط الذاكرة إلى الوراء تفكر باستغراب أي عشق هذا الذي لا يمتلك مفتاحا واحدا لشفرة إحساسها فيفوته تباعدها في تلك الليلة. أم أنه كان يشعر ويراوغ الاعتراف. تلتف حولها دوائر السؤال وتتداخل كشبكة عنكبوت قد اصطادتها بلا عناء. فتعود إلى نقطة البدايات ويطفو السؤال من جديد. «ليه دي بالذات!». كان حديثه عنها ساخرا ومستخفا. كيف يختار الزواج من امرأة لا يحترمها! تتسارع الأسئلة وعقلها كسيح عاجز عن الإمساك بإجابة واحدة. تحاول أن تكثف الشعور بالطعنة سريعا كأنها تختصر مسافات الألم. لكنها تشعر الآن بارتباك طفلة أصغر من أن تجد إجابات عن أسئلة كبيرة.

اقتحم صوت سارة الدوائر العنكبوتية فتهتكت خيوطها الشفافة «وبعدين يا بت يا دنيا ده حتى ماكانش وسيم ولا حاجة. إنت نسيتي صاحبتك الفلسطينية اللي كان عندها فوق الميت سنة بشوية وكانت دايما تنصحك تتجوزي راجل حلو علشان لما تصحي الصبح....».

استكملت دنيا مبتسمة «تلاقي واحد زي القمر جنبك على المخدة فتقولي الله يعطيه العافية أبوي اللي عطاني واحد زي القمر. مش تلاقي قرد قاعد جنبك».

انفجرتا في الضحك وقد عادت لدنيا ذكرى تلك القصة مع «خالتو زهرة» التي راحت تقابلها أيام تسجيل حكايا النساء الفلسطينيات. كانت على حافة المائة وأصغر أولادها «آخر العنقود»، الذي أدخلها على دنيا وهو يسنّدها، كان في الخمسين. وسرعان ما اكتشفت دنيا أن خالتو زهرة لم يكن لها علاقة تذكر بالعمل الفدائي.

«يظهر وهي في شبابها كانت مُزّة».

هكذا ختمت دنيا الحكاية عندما حكتها لأصحابها للمرة الأولى.

وعندما استأذنت دنيا في الرحيل لم تتركها زهرة تذهب إلا بعد أن سألتها «إيه خالتو إنت متزوجة؟».

«لأ».

«طيب مخطوبة؟».

«لأ خالتو..».

وهنا أعطتها تلك النصيحة بمنتهى الجدية «لازم تتجوزي راجل حلو علشان..».

وكانت دنيا وسارة ونورا كثيرا ما يتذكرن مقولتها وهن يضحكن على أنفسهن و«الأشكال الغلط اللي بنحبها». ولكن وسط الضحكة الطويلة على ذكرى «خالتو زهرة» هربت من عينيها دمعة. أمسكت سارة بيديها.

«قلبي بيتعصر يا سارة».

انطقي الألم يا ابنتي. لا تنكريه. لا تدفعيه بعيدا. اصرخي بعلو صوتك. ابك. أقيمي له أيضا جنازة مهيبة لو أحببت. ارث قلبك

المذبوح وطهِّريه بآخر قطرة دموع بإمكانك أن تسكبيها عليه. فترة الحداد، لا تضعي لها ميقاتا. دعيها تنهي نفسها. ستهاجمك الأسئلة. افسحي لها مطرحا. ربما تفهمين بعض أشياء بينما تعصاك أشياء أخرى. سيتراجع الوجع رويدا. وفي لحظة مفاجئة سيعود شبحه مع ذكرى مكان ذهبتما إليه معا، شاطئ دهب أو قلعة صلاح الدين والموسيقى تعزف في ساحتها أو أغنية فيروزية أو ربما لا شيء محدد. دعي سارة تذكرك أن «زهور الحب حمرا يا دنيا لأن دمنا بيجري في عروقها». ذكِّري نفسك كم أحببت سارة وهي تتألم. وكم سعدت بألق البهجة وهو يعود على مهل إلى عينيها. وكيف تأكدت يوم جنازة نديم أنك قد اخترت طريق القلب بكامل إرادتك.

ما إن دخلتا السيارة حتى التفتت دنيا إلى سارة أعطتها قبلة مفاجئة «سارة أنا أحسن بعد ما اتكلمت. ما تقلقيش عليّ».

ابتسمت سارة وهي تحتضنها «أنا مش قلقانة عليك. بالعكس. عندي ثقة فيك وأنا شايفة قد إيه كل يوم بيمر بيقربك من روحك».

«أنا كمان حاسة حاجة شبه كده. بس.. إنك تقربي من روحك دي مسألة صعبة. زي ما يكون الوجع وقتها بتحسِّيه أكتر. كإنك شايفة مشاعرك بعدسة مكبرة».

«ومين يقدر يقول إنها حاجة سهلة. دي ساعات بتبقى موت».

كانت سارة قد وصلت بدنيا إلى بيتها قرب نهايات شارع فيصل عندما التفتت دنيا إليها «عارفة باحلم بإيه في الفترة الأخيرة. باشوف نفسي في حمام ناس ماعرفهومش. البلاعة طفحت اللي فيها والحنفية اتكسرت في إيدي. باحاول أنضف المكان وأنا باعيَّط من الريحة والموقف وخوفي إن أصحاب البيت ياخدوا بالهم».

«وإنت فاهمة الحلم؟».

«تفتكري يعني إيه؟».

«خلينا نتكلم بعدين. بس ده حلم بيتكرر عند ناس كتير».

لمعت عينا دنيا «ما تيجي يا سارة نقعد إحنا الأربعة مع بعض مرة كل أسبوع أو حتى مرة في الشهر ونعمل group therapy. إحنا محتاجين نتابع نفسنا بإيه اللي بيحصل جوانا».

شاهدتك يا دنيا تصعدين درج البيت والألم يعصرك بيده الحديدية فينكمش جسدك. دخلت إلى سريرك والتففت حول نفسك. لم يزرك نوم ولا حلم. وانهمرت الدموع فبللت صدرك. تغمضين عينيك فيتردد صوت الأغنية بداخلك «جرب إني أنسى... تسرق النسيان». ولا تبذلين جهدا لدفعها بعيدا. لن تشعري بربتة يدي عليك الآن. ستفهمين وقت الجزر أن ذاك الوجع لم يكن إلا ضربات الطلق تتسارع في رحمك. وستعرفين أن الولادة لم تكن لتأتي إلا بعد أن نظفت أعماقك من نفايات الآخرين التي طالما استضفتها ولم تتبرَّمي.

الآن المعبد لك وحدك. وها أنت ترقدين على ظهرك وصرختك تتردد في أرجائه مع احتداد مطارق الألم. أقف بجانب سريرك في حال الابتهال. معي سارة تمسك بيدك فيمر منك إليها بعض الوجع. وها هو حسام يساعد في إحضار الماء المقدس لغسل الوليد. ستتلقفه نورا وتمنحه لبن الحنان. كل منا هو إحدى الحتحورات تحيط بسرير الولادة. هكذا كان الأمر قديما. وهكذا هو الآن. نلتف حولك في دائرة مكتملة. نردد جميعا «لا خلاص ما لم نولد من جديد».

(٥)

خطت الكاهنة حاملة شعلة سيدة الأسرار إلى ساحة المعبد.

كان النحاتون والنحاتات يضربون الجرانيت بأزاميلهم

فيشف وجه الحجر عن ملامح بشر.

وفي الركن البعيد كانت عازفات القيثار يضربن على أوتار الحزن المعتَّق

وحاملات المينات تشخشخن بضحكات قادمة على أجنحة الغد

بينما الراقصات في أثواب شفافة بلون جلدهن الوضَّاء

يتمايلن على الإيقاع كفراشات شاردات عن أي قطيع.

التفت الجميع على صوت «مولاة الفنون»

«الفن هو نسيج خيوطه ريشات

قد انتزعت من صدورنا.

لا أحد يرى ما حدث. ما يرون فقط هو ضربات البرق في اللوحة.

ما لن يعرفوه أبدا هو أن ذاك الخيط الأحمر المارق في قلب اللوحة

ليس إلا دمنا».(٤)

اندفعت نورا خارجة من مكتب مسيو رفاعي وقد احمر وجهها بغضب مكتوم ولمعت حبات العرق على جبهتها. كان غيظها من نفسها أكبر من ثورتها عليه. لم تستطع الرد بالطريقة الوحيدة اللائقة على كلماته. الاستقالة. اندفعت إلى مكتبها وجلست أمام الكمبيوتر وهي تسب وتلعن اليوم الذي اختارت فيه العمل مع شركات سياحة. نظرت إليها صفاء في المكتب المقابل متسائلة عمَ حدث. خرجت كلمات نورا كفوْرة بركان يغلي «ابن الكلب بيأنبني إن عندي تأخير في الحضور الكام يوم اللي فاتم. بينسى إني المفروض أمشي الساعة خمسة ومفيش يوم بامشي فيه قبل سابعة وتمانية بالليل».

قامت صفاء من وراء مكتبها متجهة إليها «اهدي بس يا نورا. ما إنت لو قلت له أي حاجة ها يقول لك غيرك مش لاقي وظيفة زي دي والباب يفوت جمل».

جاء صوت نورا مشروخا «السبب الوحيد اللي مخليني مش قادرة أمشي هو أمي وأبويا. أنا اللي فاتحة البيت. والمرتب مش مقضي أكل وشرب ودكاترة وسلف أخويا. صدقيني أنا مش عارفة أقل من ألفين جنيه مكفيين الدنيا دي كلها إزاي!».

ربتت صفاء كتفها بحنان فانكمشت نورا بعيدا وهي تعض شفتيها. ندمت أن تلك الكلمات قد خرجت منها. شعرت بنفسها عارية وسط ميدان عام والكل يتفحصها. أرادت أن تصرخ في صفاء «مش عايزة شفقة من حد» لكنها تراجعت حتى لا تزيد موقفها سوءًا. انسحبت صفاء بهدوء إلى مكتبها وعادت إلى الملفات المفتوحة على الكمبيوتر أمامها. شعرت نورا بجسدها يسخن وضربات قلبها تتسارع مقاومة رغبة في البكاء. أشعلت سيجارة وزفرت بصوت مسموع.

شاهدتُ دخان السيجارة لهبا أحمر يتسارع من فم «سخمت». رأيتُ ملامح نورا تشبهها. الجبهة مقطبة والعينان تتوهجان جمرا. كأن «العين الشاردة» قد ضربت بجذورها داخلها فأصبحت نورا تتحدث بصوتها وترى العالم بعينيها الحمراوتين، وعندما تتحرك

بخفة وسرعة أرى ذيلها يثير زوابع رمال الصحراء فتغطي وجه الشمس.

ضرب تليفون المكتب فرفعته نورا بغيظ «أيوه».

جاءها صوت دنيا مندهشا «يالهوي فيه إيه يا بنتي مالك؟».

«أهلا يا دنيا. لأ ما فيش حاجة».

«طيب كنت باكلمك علشان النهاردة آخر يوم في معرض حسن سليمان وكلنا كنا عايزين نروح».

كان الرفض جاهزا بالطبع. لكن الكلمة تجمدت على شفتيها وهي تنظر إلى الرجل الذي دخل المكتب بابتسامة مترددة واقترب منها.

«خالد!».

ردت دنيا «ماله المخفي على عينه؟».

جاءها صوت نورا خافتا «دنيا هاكلمك بعدين».

وضعت سماعة التليفون ولم تلحظ خروج صفاء من الغرفة لدى رؤيتها للضيف الذي تعرفه جيدا.

«ممكن أقعد؟».

«وهو إنت كنت مستني عزومة علشان تيجي المكتب أصلا. ما إنت فاكره بيتك».

جلس على الكرسي المواجه لمكتبها محاولا ألا تذهب الابتسامة من فوق وجهه «أعمل إيه يا نورا. ما إنت مش بتردي على مكالماتي ولا رسايلي. ما كانش قدامي غير إنِّي آجي أطلب منك ميعاد نتقابل».

«ما فيش كلام بيننا يا خالد».

«حتى لو اعتذار؟».

«ها تعتذر عن إيه بس. إنك خنت ثقتي فيك. إنك حسستني إني قضيت سنين من عمري مع راجل عرص».

تلاشت ابتسامته وحلت محلها تقطيبة وتحول وجهه إلى لون يقارب الأزرق «أنا جاي لحد عندك يا نورا علشان تقلي أدبك عليّ. هي وصلت...».

«ياه هو إنت فاكر دي قلة أدب. مش إنت اللي مشيت بطول البلد وعرضها، شوية عند أخويا وشوية عند أصحابي، تقول لهم إني نمت مع رجالة قبلك. إني شرموطة يعني. وما دام أنا كده يبقى إنت راجل عرص إنك اتجوزتني».

«كانت لحظة انفعال وهافضل أعتذر عنها».

«واعتذارك ده معناه إنك لمَّا تنفعل مش ها تعمل نفس الشيء؟».

«أكيد اتعلمت».

«إنت ليه مش عايز تفهم يا خالد إني فقدت معاك الأمان. أنا ممكن أعيش من غير حب. لكن بدون أمان استحالة».

«ها أصبر عليكِ لما تهدي. واللي هايصبرني إني عارف إنك ما حبتيش راجل تاني. أنا مش هايأس يا نورا».

ابتسمت بتهكم وهي تدير مقعدها لتواجه شاشة الكمبيوتر.

لم تعرف نورا كيف مرت عليها الساعتان المتبقيتان في المكتب. لا تتذكر إن كانت قد أنجزت بعض الأوراق المتراكمة أمامها أم أنها ظلت مبحلقة في الفراغ. في طريقها إلى البيت لم تر الشوارع أو البشر. تحولت السيارة إلى جُحر صغير يطبق عليها بجدرانه السميكة فيحول بين الهواء وصدرها. لم تدر موسيقي وعندما ضرب جرس الموبايل أكثر من مرة سمعت الصوت يأتيها كأنما من نفق طويل مظلم. لم تهتم حتى بمعرفة من المتصل.

دخلت إلى البيت فوجدته صامتا على غير العادة. لم تأت من المطبخ أصوات حلل تهاني، وطرقعات تحمير الفراخ ولم يكن التليفزيون المفتوح على مدار الساعة يطن بأخبار العراق وفلسطين. وقفت لوهلة في منتصف غرفة المعيشة تتأمل البيت الهادئ الذي حجبت ستائره ضوء النهار فاستبقى قدرا من البرودة. انهارت على كنبة الغرفة وهي تحاول أن تمسك بعقلها الشارد منها تسأله عن مكان أبويها. خبطت رأسها «ياه دول سافروا المنيا علشان عزاء جوز عمتى!».

انتفضت من جلستها وخلعت ملابسها وسط الغرفة وألقت بها أرضا. وقفت عارية وخرجت منها «آآآآآآه» طويلة. علا صوتها بصرخة آه أخرى. صرخة كأنما كانت محبوسة في صدرها لسنوات طوال. وها هي تخرج الآن بعنف الاحتباس الطويل.

في تتابع صراخها شاهدت وجهها يتحول ببطء، فتجحظ العينان ويتقد فيهما لون «سخمت» الأحمر ويتكثف الشعر على حاجبيها ويبرز فمها إلى الأمام وهو ينفتح على أسنان حادة للبؤة شرسة. ونورا متكومة على نفسها تخبط الأرض بقبضتيها بعنف. لم ألبث أن تراجعت إلى الوراء وأنا أرى «اللبؤة المنتقمة» تحتل الجسد الأسمر الفارع وتنظر إليّ منتصرة «لا مكان لك هنا». استمر تقهقري إلى الخلف وأنا أرقب آهات نورا المتصاعدة تفتح البوابات المغلقة فينهمر سيل الدموع ويعلو نشيج الغضب في البيت الصامت.

لم تدر كم من الوقت مر عليها وهي تبكي بتلك الحرقة. بكت كما لم تبك منذ كانت طفلة. أخذت تلتقط أنفاسها بصعوبة وقد شعرت بقلبها ينتفض بقوة كأنما سينخلع من صدرها وضلوعها تئن من ألم الشهقات المتدفقة كالسيل الذي لا رادع له. ظلت على هذه الحال حتى هدّها التعب. سقطت نائمة في مكانها على سجادة الغرفة.

فتحت عينيها بصعوبة. ظلت متبلّسة في مكانها بعض الوقت تحاول تذكر كيف خلعت ملابسها، ولمَ نامت على الأرض. رفعت جسدها بصعوبة متجهة إلى الحمام وقد شعرت بألم حاد يعتصر عضلات صدرها. تحت ماء الدش الساخن تجمدت ملامحها كأنها تحولت إلى تمثال من رخام. جففت جسدها وهي تتحاشى النظر في مرآة الحمام. ارتدت البيجامة واتجهت إلى غرفتها. فتحت الدولاب تبحث عن زجاجة الويسكي التي خبأتها جيدا من تهاني تحت تل من الملابس في قاع دولابها.

نظرتُ إليها فلمحت شبح ابتسامة حجرية يتردد في الظهور على شفتيها. صبت كأسا كبيرا وأضافت ثلجا وكوكاكولا وعادت إلى غرفة المعيشة. عندما أدارت التليفزيون أتتها «الجزيرة» التي لا يحيد أبوها عنها إلا من أجل «العربية».

كانت القناة تبث تحقيقا مصورا عن نهب المتحف الوطني في العراق. زفرت نورا «يلعن أبو السياسة». لكن قبل أن تدير الريموت كنترول بحثا عن محطة أخرى، كانت يدها قد تجمدت أمام الصور المتتابعة. حراس المتحف الذين حاولوا الاستنجاد بالقوات الأمريكية ولم يسعفهم أحد. مشهد الفترينات وقد تهشم زجاجها وافترش أرض الصالة الفسيحة. وفوقه تناثرت بعض القطع الحجرية التي لم تهم السارقين في شيء.

«لقد حذر باحثون أمريكيون من المركز الأمريكي للسياسة الثقافية كلا من وزارة الدفاع الأمريكية والحكومة البريطانية في الأشهر التي سبقت الغزو الأمريكي للعراق، حذروا من احتمال عمليات نهب للمتحف إثر الغزو. لم تصدر أي وعود من الحكومتن

رغما عن تجنبهما ضرب مكان المتحف بالقنابل».

د.إيرفنج فينكل من المتحف البريطاني يصرح أن عملية النهب «كانت متوقعة تماما ومن الممكن التصدي لها».

استقالة كل من مارتن سوليفان، رئيس اللجنة الاستشارية للرئيس الأمريكي الخاصة بالممتلكات الثقافية والمستشار الثقافي لوزارة الخارجية الأمريكية اعتراضا على ما حدث.

مشهد للجنود الأمريكيين يلتفون في صفوف منظمة حول مبنى وزارة البترول العراقية وأحد القصور الحكومية.

د.دوني جورج، المدير العام لمركز أبحاث مجلس الآثار في العراق يقول «إنها جريمة القرن لأنها تمس تراث الإنسانية كلها».

تنقَّلت الكاميرا بين صور للمتحف قبل عملية النهب، حيث ترقد الأساور الذهبية والقلادات في فتارينها في هدوء لا يتوقع مصيرا مؤلما
وصور حديثة للمكان حيث تتناثر بضعة أشياء من بين ال١٧٠ألف قطعة التي لا يمكن الآن حصر المفقود منها. متخصص في الحضارة البابلية يتحدث عن قيثارة مسروقة عمرها يقدر بأربعة آلاف عام من مدينة «أور» والكاميرا تستكمل دورتها في أرجاء خرابة خاوية مهدمة.

كانت نورا قد انتهت من كأس السكوتش وذهبت إلى المطبخ لتحضر مزيدا من الثلج. علا صوتها في البيت الشاغر «يعني اتنفَّضوا يوم ما كان الأفغان بيكسروا تماثيل بوذا. قعدوا يصرخوا ويقولوا تراث الإنسانية! المسلمين الهمج! دلوقت عادي المتحف يتسرق وهمه ملخومين في حاجات تانية!».

وقفت للحظة في منتصف الغرفة كأن فكرة ما قد برقت في ذهنها. اتجهت إلى غرفتها وإلى ذلك الركن الصغير حيث يقف حامل اللوحات في الشق الرفيع بين الدولاب والحائط. سحبت الحامل المترب وأخرجته إلى غرفة المعيشة. نظفته وعادت إلى غرفتها تبحث عن قطع التوال التي لم تعد تذكر مكانها. عثرت علىها أسفل سريرها مع بعض الإطارات الخشبية متعددة الأحجام. اختارت منها إطارا ٤٠×٤٠ وخرجت إلى الحامل. وضعت فوقه الإطار وفردت علىه التوال ودبست الأطراف. ثم أدارت سي دي «ليون فريه» وهي ترشف الويسكي المثلج.

«والواحد يستغرب ليه. همه مش عملوا في مدينة بابل بجلالة قدرها قاعدة عسكرية في نفس شهر الغزو. علىنا العوض».

انسابت الأغنية بنعومة في أركان البيت الساكن، ونورا تحاول تذكر متى كانت المرة الأخيرة التي لمست خشونة التوال أو داعبت أنفها رائحة الزيت:

مع مرور الزمن.. ماشي

كله ماشي

الملامح راح تتنسي

والصوت مسيره يتنسي

وانضم صوتها إلى صوت «فريه»:

ولما القلب يبطل رفرفة

ما تتعبش نفسك

وتدوَّر بعيد

سيب كل شيئ في طريقه ماشي

كالمنوَّمة بدأت تخط بالقلم الفحم وجه امرأة. أشارت الخطوط الأولى إلى عينين سوداوين واسعتين وإلى عظمتن بارزتين للوجنتين. انساب القلم كأنما من تلقاء نفسه يحدد موجات متتابعة لشعر طويل أسود ذي مسحة غجرية. فكرت أن عند الانتهاء من الخطوط الأولى ستعطي لهذا الوجه خلفية حمراء داكنة. مر الوقت بطيئا هادئا وقد انفصلت عن كل التفاصيل إلا ملامح الوجه الخمري الذي سرقها من المكان. لم تعرف من أين أتاها هذا الوجه وإن كان قد بدا مألوفا. تراجعت الغرفة التي طالما احتوت شكوى أمها من الحياة ونظرات أبيها اللائمة. نسيت كأس السكوتش وخالد وتأنيب مديرها. تبخرت أصوات الخارج كالدخان وطفا على السطح سكون البيت وصمتها كأنها في حال الصلاة العميقة.

واللي تعشقه وتدور علىه تحت المطر

وتظن إنك هتلاقيه

بلفتة من عنيك

فـ قلب الكلام

أو بين السطور

ماشي متلفعً بعباية الوعود المسرفة

رايح يمضي سهرته

كله ماشي.. ومع مرور الزمن كل شيء هيختفي..

وقفتُ أتابع وجهها وهو يستعيد ليونته. أخذ فم اللبؤة المفتوح على براكين الغضب المتأججة في التراجع، وبدأ الجحوظ في عينيها يتوارى. وقفت أتابع «سخمت»، سيدة الأحمر، وهي تنهار إلى أرض الغرفة رمادا أسود متفحما لم تره نورا، ولم تلحظ كذلك كيف تابع وجهها تحوله فظهر الفرق في منتصف شعرها الذي تراجع خلف أذنيها الصغيرتين. أما العينان فقد اتخذتا استدارة عيني «حتحور» اللتين يعلوهما حاجبان رفيعان. وبدأ الفم المكتنز يشف عن ابتسامة هادئة تشبه ابتسامتى التي التقط النحات القديم بعضا منها على جدران «دندرة».

اقتربت وهمست إلىها والأمل يرفرف في قلبي كيمامة بيضاء صغيرة تتلمس مكان جناحيها متأهبة للتحليق. ستسمعينني الآن. أليس كذلك!

أعرف تماما يا نورا ما يمر على قلبك. هل تلحظين تراجع ألمك أمام ألم آخر! هل ترين اتساع القلب إذ ينسى للحظة أوجاعه الصغيرة أمام ذلك الأسى الذي يداهمنا لدى رؤيتنا قطع الحقيقة مبعثرة ومهانة!

تلك الأحجار والأساور والتماثيل هي بقايا البقايا لأولى حضارات الأرض التي ألهبت خيال المصريين قديما في اتجاهات مماثلة وبعيدة. أتعرفين... ربما كانت إحدى تلك الأساور التي هشموا الزجاج من أجلها لأميرة بابلية. لا، بل هي لإحدى كاهنات «عشتار». كانت ترتديها وهي على وشك استقبال الغريب.

بإمكاني أن أرى الكاهنة كأنها معنا الآن في هذه الغرفة. أترين هذه الإسورة من اللازورد ذي الزرقة القاتمة تحيط بمعصمها الخمري، وهذه العظام كأنها منحوتة على أيدي أعظم نحاتي مصر القديمة. يكاد الجلد الرقيق يشف عن عظمة تبرز من جانبه الأيمن وتقود يد الغريب إلى أصابع طويلة منسابة. ثناياها الدقيقة تحمل تاريخا من العشق فوق انحناءاتها. وحول الرقبة الطويلة

الحافظة لارتعاشات الرغبة تستلقي قلادة من نفس الحجر الأزرق. أترين مثلي ذلك الوجه دقيق الملامح. يبدو سواد العينين بلون النون، ذلك المحيط الأزلي الأول الذي انبثق منه الكون. وتلك التموجات الخشنة تحيط بوجهها مثل ليل يحوط القمر وقت اكتماله. والثوب البرتقالى الشفاف. هل تلحظين انحناءات الجسد اللين وتلك الأطراف المنتصبة كعناقيد عنب أحمر صلبة قد اقترب وقت قطافها.

ها هي توقد قنديلا وتشير إلى الغريب بالدخول. تخلع عنه ملابسه فتنخطف أنفاسه. تقوده إلى المغطس كي تحميه في الماء المعطر بزيت الياسمين. يستسلم لها كطفل بين يدي أمه. عندما يغوص الجسد الأسمر في الماء الدافئ تبدأ تدليكه على مهل، ونغمات قيثارة من «أور» يأتيه من ركن بعيد في المعبد. مسحور بفتنتها التي يؤكدها الضوء الخافت. يحاول أن يداري ارتباك دقات قلبه بينما الجسد المتعب يفيق على أيدي هذا الجمال الفادح. يشعر بدماء جديدة تجري في عروقه ودقات قلبه قد بدأت تتخذ منحنى الهبوط.

تمد إلـه يدها تخرجه من المغطس. يرتجف جسده لدى التقائه برعشة الهواء البارد لكنها تمر على جسده الآن بمنشفة من الكتان المعطر بالمسك. تدور بيديها فوق تعاريج جسده في دوائر بطيئة فتعود للجسد سخونته. يقترب. تتركه يتلمس ثناياها لكنها تبطئ من اندفاعاته. الرقبة فقط هي قارة مجهولة في انتظاره. انحناءة الظهر نهر بعيد. تدويرة نهديها تلان من حشائش خضراء يتطاير فوقهما زغب عصافير مرتحلة مع بدايات الشتاء. وأصابع قدميها، كل منها فرع صغير في شجرة وارفة. يدس رأسه في صدرها فيغمره أريج بلاد «بونت» ورائحة كأنها لعشب مبلل بندى صباحي. وكلما ضمه الجسد الدافئ إلـه كلما ازدادت كثافة العطر.

أنظري إلى فتنتها. ألا تبدو كزهرة لوتس بيضاء في تفتحها لضوء النهار!

ها هو يدخلها ببطء فتغمره دوامات السحر. يرتعش. تضمه إلى قلبها ليسكن قليلا ثم يبدأ اعتلاء موجاتها المتتالية. نون وراء نون وراء نون. في غوصه داخلها يعلو إلى حافة نون؛ سرعان ما تتركه ينزلق مع انحناءتها إلى العمق. يغوص ويعلو في دوائر تنسيه تفاصيل عالمه المعتاد فلا يتنفس إلا هذا الوهج. في كل غوص يشعر بنفسه يقترب خطوة من تلك النقطة العميقة في قلب الدائرة حيث تبزغ الحياة، وحيث يجيء العشب والمطر والأشجار. ينتفض داخلها. يقذف بمائه إلى عمق تربتها المظلمة وينهمر ماء عينيه دافئا فوق وجهها المتقلص. تفتح عينيها على ابتسامة له. تمد كفها تلتقط القطرات المتساقطة.

يتساءل: هل يبكي الزمن الذي انفلت في غفوة منه قبل اللقاء أم هي رجفة لقائه بـ«إلهة الخصب» التي لاقته بنفسه؟ الإلهة ذاتها تعيد إلـه حياة منسية. تزيح عنه أسي العمر الفائت وتعده ببهجة سيحملها في قلبه وشمًا لن يزول. بهجة سيعرف كيف يمنحها على مهل لامرأته المتعبة من يوم عمل طويل وضجيج الأولاد بعد أن يدلك جسدها ببطء بزيت المسك فيهدأ عقلها وينتبه الجسد. يدخلها بخشوع الدخول على «عشتار» ذاتها. يغوص في عتمة رحمها ويصعد بها رويدا في دوائر إلى تلك السماء الحريرية التي أسرت إلـه «سيدة السماء» يوما بموقعها. وعندما يهويان معا من ذاك الأفق الأزرق لا يفك تطويق ذراعيه لها. ولا يعطيها ظهره لينام.

إسورة وقلادة لا تزالان تحملان طاقة العشق المقدس رغم القرون وامتهان الأيدي الجاهلة إلا بقيمة الذهب. لكن الذهب الحقيقي قد تراجع إلى أعماق بعيدة متواريا في رحم الأرض، ولن يقدر على استعادته إلا السائرون على الطريق.

ارسمي يا ابنتي. قلبي يدق أسى مع كل ضربة لفرشاتك الغاضبة. ارسمي وسط الأحمر قلادة زرقاء كانت تحوط عنقا ما.

(٦)

شعرك الذي كان ينبض على وسادتي

كشلال من العصافير

يلهو على وسادات غريبة

يخونني يا ليلى

فلن أشتري له الأمشاط المذهَّبة بعد الآن

سامحيني أنا فقير يا جميلة

حياتي حبر ومغلفات وليل بلا نجوم

شبابي بارد كالوحل

عتيق كالطفولة

طفولتي يا ليلى.. ألا تذكرينها.(٥)

«خلي بالك يا حسام. دي ممكن تكون بدايات اكتئاب».

نظر إلى سارة بعينين تطفو فوق سطحهما غيمات حزن وابتسامة متكسرة.

يا ملونين البيض في شم النسيم

لون الحنين والشوق وخمر النديم

ماتعرفوش سايق علكو النبي

تلونوا الأيام بلون النعيم؟

ابتسمت سارة فغيّر من نبرته متخذا نبرة تميل إلى الهزل «دي ممكن تكون بدايات اكتئاب! بدايات يا ست الدكتورة! إنت متأكدة إن شغلانتك علم نفس؟ ده اكتئاب حاد متأصل ومتجذر يا أختي».

ولم تلبث أن عادت إلى صوته نبرة الحزن. زفر بضيق «الفراغ والوحدة هيقتلوني يا سارة. باشتغل زي الحمار علشان أنسي إن حياتي فاضية».

اتجهت سارة إلى المطبخ وتبعها حسام متجهما. كان قد ترك العمل مبكرا ولم يرغب العودة إلى البيت في تلك الساعات المتبقية قبل لقائه بصاحباته ليلا فقرر تمضية ذلك الوقت مع سارة. استلم منها صينية القهوة التي وضعت فوقها الفنجانين والسبرتاية بينما رفعت عينيها تتأمله «يمكن محتاج تغيير يا حسام. إجازة مثلا. أنا عارفة قد إيه كل الحاجات كئيبة. كفاية إننا نفتح التليفزيون نلاقي

منظر صدام لما قبضوا عليه».

أوقد حسام السبرتاية بعد أن جلس أمامها على سجادة غرفة المعيشة. وتربعت سارة على الكنبة المجاورة للنافذة العريضة تترقب الغروب. راقب حسام القهوة بفورانها البطيء وهو يرد عليها مطرقا «النهاردة كتبت خبرًا عن تقرير «جو وايلدنج»، مراقب حقوق الإنسان في العراق. بيرصد رد فعل الشعب بعد القبض على صدام. شاب بيرد على «جو» لما قال له مش مصدق إن الراجل المبهدل المنكوش الوسخ ده يبقى صدام. قال له هو طبعا، ده بقى له على شاشة التليفزيون اتناشر ساعة في اليوم لمدة خمس وثلاثين سنة. هو ده صدام. وست شحَّاتة ومعاها بنتها ست سنين حضنت «جو» وقالت له «صدام كلابش» ورصاص بينضرب في الهوا وستات بترقص ورجاله بتزغرد. بيقول «جو» إنه ماراحش معاقل المقاومة لكن ما قابلش حد في الشارع مش فرحان».

عندما رفع عينيه بعد صب القهوة في الفنجانين قابلته نظرة سارة التي ذكرته بفاطمة عندما تزم شفتيها وترمقه بنظرتها النارية في صمت وهو يكذب عليها.

«أيوه أكيد ده سبب الحالة اللي أنا فيها. ما فيش أمل في تغيير أو عدل أو حلم ببكره أجمل. اللي قالقني وممكن يخليني أصدق إني مكتئب هو إن منى ما عادتش بتنرفزني. تتصوري آخر خناقة كانت على إيه! إنها زعلانة من الفلوس اللي بابعتها لأمي في البلد. في ظروف تانية كان ممكن أكسر البيت على دماغها. لكن لقيتني باسيب البيت وأنزل».

صمتت سارة للحظة وهي تتأمله ثم... «عايز رأيي بصراحة يا حسام؟».

تقلَّصت عضلات وجهه بشيء من التوتر «طبعا».

«حسام إنت بعيد عن روحك جدا. خليني أسألك بتقعد قد إيه مع حسام. بتتكلم معاه في إيه. بتسمع صوته وهو بيقول لك محتاج حاجات غير الشغل والفلوس لأهلك. بتكتب لنفسك شوية. بتحلم بإيه!».

«إيه يا سارة بالراحة عليّ شوية».

توقفت للحظة «أنا آسفة يا حسام ساعات باتوقع من الناس اللي باحبهم حاجات مش بالضرورة هم عايزينها».

«لا يا سارة ما تفهمنيش غلط. عندك حق. الفترة الأخيرة بدأت أفهم إن من يوم ما اتخرجت وأنا باجري وأشتغل وأتجوز كإني باعمل كل ده علشان حد تاني. لما باسأل نفسي حسام عايز إيه مش بلاقي إجابة».

«أنا عايزة أقول لك حاجة وإنت بتدور على إجابة. في فترة منتصف العمر بيتفتح عند البشر مراكز وعي جديدة بتاخدهم من دوامات الشغل والتحقق على المستوي العملي لدهالزهم الداخلية. ويبتدوا يطرحوا على نفسهم أسئلة من نوع مختلف».

قطع الحديث جرس الباب الذي أتى بدنيا ونورا معا. دخلتا ومعهما علبة مغلفة بالأصفر ونجمة ذهبية. فتحت سارة العلبة وضحكت وهي تخرج الشمعة الزرقاء. ابتسمت لوجه إيزابيلا الذي صاحب هفيف عطر الصندل مع خروج الشمعة من ورق السيلوفان.

ألقت دنيا بحقيبتها على الكنبة ووقفت في منتصف الغرفة وقد أشرق وجهها «في اليوم المفترج ده عايزة أقول لكم إن أنا هاحضر ورشة تصوير فوتوغرافي مع أستاذ ألماني جاي مصر لمدة شهر».

اتسعت ابتسامة سارة وقبلتها نورا وربت حسام كتفها «شاطرة يا بت. كان لازم تعملي كده من زمان».

تساءلت نورا وقد جلست وبدأت تخرج عدة اللف من حقيبتها «يعني مش فرحانة كمان بقانون الجنسية لأولاد المصريات!».

نظرت دنيا إليها ضاحكة «إلا اللي من أب فلسطيني يا فالحة. المنحوس منحوس».

استكملت نورا «طب عندي فكرة هايلة. علك والألماني بتاع التصوير. تتجوزيه وتاخدي الجنسية الألمانية حتة واحدة. بلاها

الجنسية المصرية اللي مالهاش لازمة».

قاطعها حسام «والنبي شكله هيطلع عنده تسعين سنة.أو مالوش. أنا عارف بخت البت دي».

في صخب الضحكات دق جرس موبايل حسام. رأي اسم ليلى على الشاشة فعلا صوت قلبه على أصواتهن. رنة واحدة أزاحت كل الأصوات بعيدا وجرجرت معها سيلا من الذكرى لعام من الغرام. لحظات اللهفة وتيار الكهرباء يسري في جسده عند ملامسة يدها وأحيانا دون ملامسة ولمجرد جلوسها أمامه في مقهى المهندسين المعتاد. لحظات الهروب الصغيرة واختلاسات المشاعر وفتات القبل، ولقاءات معدودة في منزل صديق له حين ذاق للمرة الأولى طعم الجنس المغموس بالحب. لا يزال جسده يرتعش والدماء تتدفق في شراينه عندما يسمع صوتها. وتلك المرة التي غفا فيها ووجهه ملاصق لبطنها اللدنة
و صحا من غفوة قصيرة لم يذق شيئا يشبهها من قبل. كل هذا
و أكثر عبر ذهن حسام وهو يرى الاسم على شاشة الموبايل. رأى الشريط كاملا بعد أن حذف منه بمقص مونتير ماهر مشهد رؤيتها مع الآخر وتصوراته عن يوم زفافها. أجاب على الموبايل وقد قرر استخدام نبرة عادية. لكنه ما إن سمع بحَّة الصوت الأنثوي المألوف «وحشتني» حتى اندفعت الإجابة قبل أن يلحق بها «مش أكتر مني».

خرج حسام من المطبخ وقد احمرّ وجهه وهو يضحك في وجه صاحباته «يخرب بيوتكم وشكم حلو عليّ. ليلى كلمتني».

رفعن وجوههن إليه في دهشة وغابت الغرفة في لحظة صمت قطعتها نورا بتساؤل «وحضرتك مستني منها إيه بالظبط؟».

وقف بقامته الطويلة ينظر إليها ولم تذهب ابتسامته «بصي بقى مش عايزين شغل الحقد ده. ولو كنت غيرانة عليّ قولي وأنا أشوف أقدر أعمل إيه في الموضوع ده».

مصمصت نورا شفتيها وأدارت وجهها عنه «بلا خيبة. آخرة صبري إنت!».

ولاحقته دنيا بخبطة على ظهره «حوش حوش الواد فتك ومقطع الدنيا. اللي ما يعرفش يقول عدس. صحيح إننا بنعاني من القشف العاطفي وما عندناش أي مانع نحقد. بس مش لما نلاقي حاجة نحقد عليها».

رغم اشتراكه معهن في أطراف حديث وبعض قفشات إلا أن حسام قضى باقي الليلة محاولا إخفاء شروده حتى لا يتحول إلى مادة الفكاهة لديهن. أنصت لنهايات حديث عن لقاء منتظم يتابعون فيه بعضهم البعض بتحولاتهم الداخلية. هز رأسه موافقا بينما روحه تلهو فوق سحابة ناعمة وبعيدة. تبخرت الحالة التي عانى منها الشهور الماضية والتي تحدث مع سارة عنها منذ ساعة ليس أكثر. تلاشت كدخان. وأفسحت مكانا لتدفق فيض الذكرى والاشتياق إلى إحساس كان قد غاب عنه طويلا. وعندما أفاق في لحظة من شروده قابلت عيناه عيني سارة المبتسمتن. ابتسم.

وقف أمام مكتبة مدبولي وقد انعزل في بلّورة زجاجية من الترقب الممزوج بوعد فرحة غائمة. لم يسمع ضجيج الميدان؛ إذ كانت دقات قلبه ترج العالم. كانت حالة السحر التي غمرته اليومين السابقين على اللقاء لا تزال تهدهده. تجذبه برفق إلى تلك المنطقة الزلقة التي يحبها حين يفقد الغضب تجاه أخبار الكوارث في العالم. يعرف أن تلك الأخبار لن يتوقف لها هدير. أما فرحته فهي نادرة. كان اليومان قد مرا ببطء. لكنه ذلك البطء الجميل حين يكون القلب عصفورا صغيرا فلا ترون إلا السماء. حين...

تجمدت الابتسامة فوق شفتيه وأخذ الأمر منه بضع ثوان كي يصدق. هل تلك التي تخطو ناحيته وابتسامتها تتسع هي... ليلى! كانت ملامحها قد اختفت تحت كتل لحم كأنها لشخص آخر. بلع ريقه واغتصب ابتسامة وهو يسلم عليها «ليلى أخبارك إيه؟».

بدت مرتبكة «كويسة يا حسام. وإنت؟».

«الحمد لله. كله تمام».

«وابنك؟».

حاول مداراة ارتباكه وعدم الفهم وهما يسيران شارع قصر النيل في اتجاه سيارته.

«تحبي نقعد فين؟».

على غير توقعاته أن تطلب الذهاب إلى مقهاهم المعتاد في المهندسين حيث الكابتشينو والتشيس كيك والذكريات، سألته ليلى عدم الذهاب إلى مكان عام حتى لا يراها أحد معه. فكر أن ينكر حيازته لمفتاح شقة صاحبه «سيد» لكن شيئا أوقفه. هل كان قدرًا من الشفقة أم الفضول!

قاد السيارة متجها إلى شارع الهرم في صمت كان يقطعه أحيانا بتعلقات على سوء المرور في القاهرة والزحام وكيف أنه على يقين أنها مؤامرة متعمدة لاستهلاك أعصاب المصريين حتى لا تسنح لهم فرصة التفكير في قضايا أهم من رغيف العيش وأزمة المرور. استمعت ليلى وهي تهز رأسها موافقة وإن كان حسام قد شعر أن عقلها غائب في مكان يخصه، مكان مغلق في وجهه.

ما إن أغلق باب الشقة علىهما حتى داهمته رغبة في الهروب من حيز ضيق يتناقص فيه الهواء بسرعة. تساءل إن كان سبب إحباطه هو أنها قد أصبحت «درفيل يا ربي!». لم يتردد كثيرا. كان واضحا له أنه يفتقد ذاك الألق الغامض الذي طالما توهجت به روحها وأشعلته معها. ذهب الوهج وترك بلادة في العينين وامرأة لم يعد يعرفها.

«هي دي ليلى!».

حتى الكلمات لم تعد تجري بينهما متدفقة كسابق عهدها. يبحث جاهدا عن كلمة يقولها وعندما ينجح في الإمساك بواحدة تنحشر في حنجرته رافضة الخروج. ويظل يشدها فتأتي باردة بلا قلب.

«إيه أخبارك إنت يا ليلى؟».

«مدرْبكة يا حسام. تامر- ابني- شاغل كل وقتي ولسه مش عارفة أرجع الشغل وجوزي ولا هوّ هنا. كإن البيت والبيبي مسؤوليتي لوحدي».

غافلته نبرة سخرية «معلهش لازم تحاولي معاه. في إيدك حاجة غير المحاولة؟».

كان قد جلس جانبها على الكنبة وأخذ يتأملها عن قرب. في توهته لا يزال ينقب عن ليلى أخرى. ويعلو هدر السؤال مرة أخرى فوق صوتها «هي دي ليلي!».

قام فجأة لإعداد أكواب الشاي. مكث في المطبخ لحظات شعر بها دهرًا وهو يحدث نفسه في صمت كاد أن يتحول إلى ضحكة مسموعة «يا سلام لو فيه شباك الواحد ينط منه!».

وضع أكواب الشاي على الصينية، فداهمته تلك المرات القليلة التي عرف فيها معنى الجنس ـ مع امرأة ـ يحب. كيف اكتشف معنى أن يحب كل جزء من جسمها حتى لو لم يكن رائعا. عشقه لتلك الدرجة من لون الجلد الأسمر ورائحته عند الاحتضان. رائحة كتلك التي تنبعث من عجين أمه المختمر فوق الفرن وقد غطته بقماشة بيضاء ناعمة ومنداة بماء خفيف. ارتكان رأسه فوق بطنها وإغماضة عينيه وإحساس بالسلام بعيدا عن صخب العالم لم يعشه إلا في هذه اللحظات. صوتها فقط وقت الحب وبعيدا عنه كان يدخله إلى عالم آخر لم يعرف له شبيها. الرعشة التي سرت في جسده في كل مرة أخذها إلى ذروة بعيدة فأطبقت ارتعاشاتها حوله وأخذته معها في انحسار الموجات. كانت تلك هي التجربة الوحيدة التي أفهمته معنى تلك الدائرة المفتوحة من الكهرباء بين جسدين، لتمر منها كل الخفقات الصغيرة والارتعاشات الأكبر. وأن تلك اللحظات كانت ذروة له أيضا. أن يشعر كل تلك البهجة لأنه قد منحها تلك اللحظة السحرية التي لن تتذوق لذعتها المتفردة مع آخر.

كان قد عرف وقتها لماذا يغلق الأنوار وهو مع منى في سريرهما. كان يريد لخياله أن يسكن أماكن أخرى. هناك حيث تضحك سلمى في فناء الكلية أو في ذاك المكان المعتم حين يعصر جسد ليلى كعصفور صغير في حضنه. في الظلمة مع منى ليس هناك

مجال لعيون تلتقي وهما متداخلان مثلما كان الأمر مع ليلى. كانت عيونهما تمارس عناقات موازية لحركة جسديهما ويمتد بينهما حديث من لغة لا يشوبها عجز الكلمات. كان يقرأ فيهما اشتياقها وذلك الألم الرهيف أو القاسي المصاحب للحب. كم من المرات أخذته تلك العينان إلى انفجارة دموع مصاحبة لارتعاشة أخيرة.

يبرق في ذهنه إدراك أن منطقة السحر مع ليلى كانت عيناها. تتملكه الآن تلك النظرة العميقة إلى عينيها وهو يعلوها ويعلو بها. يتوارى فعل الحب لحظتها. يتحول إلى مجرد خلفية مصاحبة لهذا الشعور الغامض بالغوص داخلها والرغبة في البقاء هناك طويلا. البوابة دوما عيناها، خاصة في أوقات الحب حين تبرقان بمعان تفلت منه في كل الأوقات الأخرى. من أجل تلك العينين كان يطيل أوقات الحب بشكل لم يعهده من قبل. بقدر ما كان يشتاق ذروته معها، كان أيضا يكرهها لأنها تقذف به خارج بئر تلك العينين. ألهذا انهمرت دموعه معها! هل كانت دموع عشق أم رجاء بالبقاء أو ربما هي دموع مصاحبة لذلك الشعور الذي إن حاول وصفه لن يعرف. ولو تحدث فيه مع إنسان لاتهمه بالجنون. كأنها حالة من التوحد المطلق ليس فقط مع امرأة يحبها، ولكن مع ذاته ومع روح الكون الذي بقي معناه غامضا حتى تلك اللحظات.

خبط رأسه بعنف كي يفيق. عليه أن يخرج من دوامات الذكرى سريعا وإلا أماته ألم الحقيقة الجالسة في غرفة المعيشة. أحضر الأكواب الساخنة وهو يفكر في مبرر للمغادرة بعد أن أطبقت عليه الوحدة تماما ورغب البقاء وحده بعيدا عن التركيز في وجود آخر. هي ذات الحالة التي تنتابه أحيانا مع منى ولم يعرف أبدا كيف يجعلها تصدق أن ذلك ليس رفضا لها «أنا بس عايز أبقى لوحدي. لوحدي، فيه ناس بتبقى سعيدة وهي لوحدها».

لكن احتياجه للوحدة الآن يبدو أكثر عنفا. أفاق على يد ليلى «المربربة» تمتد إلى الكوب وترشف وهي لا تزال تتحدث عن أشياء لم يسمع شيئا منها. «خايفه لما أقرر أرجع الشغل ما لاقيش. إنت عارف أحوال الشغل في البلد دلوقت وكمان...».

تظاهر بالإنصات وهو يقع ببطء في هوة بين لحظتين وامرأتين. يتأملها الآن فتجيئه الأخرى وهي مستسلمة تحت جسده وعيناها مغناطيس لا يرغب الإفلات من قبضته. يرفع عينيه إليها الآن فيرى كتلة من البلادة والعبثية. «ليه يا حبيبتي ما بيننا دايما بحور، أعدي بحر...».

«ليه كلمتني يا ليلى؟».

ارتبكت. بعد لحظة صمت خرجت منها الكلمات متعثرة وخفيضة «يمكن محتاجة حد أعرف أتكلم معاه يا حسام. حد عارف وعايز يسمع».

داهمته في لحظة ضعفها رغبة في الانتقام. هذا هو التوقيت المناسب كي يخبرها كم جرحته واستهانت به. كيف غررت به وفي غفلة تسليمه لها ألقت به في جب معتم من الألم وعدم التصديق. سيخبرها بنبرة باردة تماما وعينين متحجرتين أنه يعرف أنها ستظل تدفع ثمن الخطأ طويلا، وأن ما هي فيه ليس إلا البدايات. إنه ليس من حقها أن تزيحه من طريقها وقتما تشاء وتعود به من «غرفة الخزين» وقتما تقرر. وأن...

«الساعة بقت ١١! هتتأخري».

ما إن أنزلها من السيارة قرب بيتها حتى خرجت منه آه قوية وهو يتأمل تلك المرأة الغريبة عنه تختفي عن نظره. تنفس بعمق كأنه يزيح من فوق صدره ثقل ساعات اللقاء.

خرجت منه آه أخرى وهو يقود السيارة فوق كوبري أكتوبر وتردد صوته في فضاء الليل «نورا سألتك سؤال وما كانش عندك إجابة. إنت كنت متوقع إيه؟».

صمت لوهلة ثم زفر متململا «مش عارف!».

انتابته رغبة قوية في البكاء. لم يقدر. حجر ثقيل يرقد فوق صدره ولا يملك إزاحته من أجل نسمة هواء. شعر نفسه محتاجا وغبيا

ولم يسعده ذلك بالمرة.

رفع الموبايل بآلية وطلب سارة. هي أول من يخطر بباله في تلك اللحظات. يعرف أنها ستفهم أنصاف جمله وانكسار المشاعر.

«مالك يا حسام صوتك مكتوم كده ليه؟».

«مش عارف مالي. شفت ليلى النهاردة. حاجة كده...بقت حد تاني.
و أنا حمار مش فاهم كنت منتظر إيه. يمكن رعشة كانت بتحسسني إني عايش! لهفة كانت بتنسيني البيت مع منى أو بتخليني أستحمل صور صدام وهم بيقلبوا فيه زي البهيمة! إنت فاهمة إني عمري ما حبيت الراجل. قهرتي مش عليه. بس زي ما أكون أنا وإنت وأمي اللي كنا في إيديهم. وبريمر وهو طالع بعد مالطع الصحفيين أكتر من ساعة وبيعلن بطريقة الأفلام الأمريكاني. Ladies & Gentlemen we ve got him... قبضوا عليه يا أستاذة. سارة أنا شفت اللقطة دي ميت مرة الأسبوع ده وما قدرتش. دخلت الحمام في الشغل ودموعي نزلت».

(٧)

يا فطرة سمحة ونفوس رقيقة

أنا لما جيت أخدم الطريقة

شيخنا اللي عارف سر الحقيقة

بسط يمينه وقال يا مريدي

عينك في عيني وإيدك في إيدي

كل الخلايق اخوات شقيقة

أحلف بنون والمؤمنون

قلب الليلة دي أخضر حنون.(٦)

«النهارده إحنا مجتمعين بناء على اقتراح من دنيا بعقد جلسة شهرية لمتابعة نشرة أخبارنا الداخلية. وكمان الليلة مفترجة علشان النهارده ١٤في الشهر العربي».

هكذا أعلنت سارة في بدايات الليلة بعد أن اتخذ كل منهم موقعه في حجرة المعيشة. تربع حسام على الأرض كعادته وجاورته دنيا بينما جلست سارة ونورا كل على أريكة. فاحت الشمعة الزرقاء برائحة الصندل في أرجاء الغرفة وقد جاورت لهب شمعتين صفراوتين على المنضدة. ولم تترك سارة غير أباجورة صغيرة مضاءة في الركن.

قام حسام من جلسته واتجه إلى الكمبيوتر «عايزين تسمعوا إيه؟».

قبل أن تبادره إحداهن بالرد كانت أركان الغرفة تردد:

أغدا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غدي

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد

لم تكد الجملة الأولى تكتمل حتى انتبهت نورا فنظرت إليه، وقد رفعت حاجبها بتعجب من فوق الطبق الذي انكبت عليه تلف سيجارة «يا سلام على المفهومية. يا ابني شغّل لنا حاجة مناسبة للي إحنا فيه».

ابتسم حسام ممازحا وهو ينتقل إلى «لسه فاكر». «إيه رأيك آدي أغنية كلها غل وتشفِّي في الراجل الغلبان علشان ترتاحي».

مصمصت نورا شفتيها «غلبان!».

ولم تلبث أن تدخلت سارة «يالا يا حسام تعالى. إحنا هنقضّي الليلة تهريج ولاّ إيه!».

عاد حسام مسرعا إلى موقعه على الأرض «لا مؤاخذه يا ست الدكتورة. هي اللي بتجر شكلي».

لسه فاكر قلبي يدي لك أمان

ولاّ فاكر كلمة هتعيد اللي كان

ولاّ نظرة توصل الشوق والحنان

دارت سارة بعينيها بينهم مستفهمة عمن سيبدأ. فات نورا السؤال لانهماكها في لصق طرف سيجارتها. اعتدلت دنيا في جلستها «أنا أكيد أحسن بكتير بعد ما مرت شهور على موضوع أحمد
و شكله بيخلص من جوايا. بس الومين دول عندي حالة غريبة شوية مضايقاني. فاكراه كتير!».

تساءلت نورا «مشتاقة له ولاّ للحالة اللي عشتيها معاه؟».

أطرقت دنيا «مش متأكدة».

«أنا باسألك لإني ساعات باشتاق لخالد. بس بأبقى عارفة إن الشوق مش له هو؛ لكن لحالة عشناها مع بعض وما لقيتهاش مع راجل تاني».

أيد حسام كلمات نورا «أنا فهمت اللي نورا بتقول علىه بعد ما قابلت ليلى. أنا كنت مستني حالة الطيران اللي عشتها معاها. واللي أكيد مش هترجع تاني. اللي صدمني لما قابلتها ما كانش إنها اتغيرت. هو التغيير بس خبطني على دماغي وفوَّقني. لكن اكتشفت إني مكلبش زي العيل في لحظة عدِّت ومش عايز أسيبها».

كانت الأيام في قلبي دموع بتجري

وإنت تحلي لك دموعي وهي عمري

ظهر صوت أم كلثوم جليا في لحظة الصمت القصيرة.

لمعت عينا دنيا ببريق طفولي وهي تخرج مجموعة صور من حقيبتها وترفع إحداها تتأملها. اقترب الثلاثة من الصورة «بس الحاجة الرائعة الومين دول هو التصوير. طول عمري باحبه. بس حاجة تانية لما الواحد يعرف يحس الزاوية اللي يلقط منها الصورة ويتخيل الضل والنور ها يطلعوا إزاي على وش بنت سمرا لابسة جلابية قديمة معفرة وقاعدة جنب أبوها على باب بيتهم في صفط اللبن. عايزة أقول لكم لما حمضت الصورة دي شفت في وش البنت خلطة براءة وحزن وتأمل. عنيها غريبة».

التفوا حولها على أرض الغرفة وقد خطفتهم ملامح الصغيرة. لا تتعدى السنوات الخمس. شعرها المهوش يبدو ناعما شديد السواد رغم اتساخه. وجنتاها الطفلتان تحملان براءة عمرها، لكن العينين تفضحان طبقات من الحزن المتكلس والأسئلة. وظهر وجه الأب قاتمًا غائم الملامح عن يمينها. رفعت سارة وجهها من الصورة إلى دنيا. بدا لها وجه دنيا كأنه يقشر عنه قناعا قديما ليظهر وجهًا آخر. ابتسمت «ياه يا دنيا أول مرة أشوف وشك منوَّر كده!».

رفع حسام وجهه نحوها فعاد إلىه حديثه مع سارة عن دنيا منذ أيام عندما هدَّأت من قلقه علىها مشيرة إلى استشعارها خطو دنيا فوق عتبة جديدة هذه الأيام. رأى لدنيا وجها مختلفا في تلك اللحظة. رآها امرأة ذات ملامح تبعد عن صورة البنت الصغيرة الخائفة من الحياة التي رسخت داخله. بدا وجهها الأسمر أكثر جمالا بتلك العينين السوداوين اللتين تحملان شبها لعيني البنت في الصورة.

النهاردة الحب والشوق والحنان

لما تسألني أقول لك كان زمان

لسه فاكر.. كان زمان.. كان زمان

أمسكت نورا بالصورة في يدها وهي تفكر أن ذلك الوجه يصلح موديلا للوحة زيتية رائعة لو عرف الفنان كيف يلتقط تلك النظرة. جاءها سؤال دنيا كأنه استكمال لحوار صامت «أخبار اللوحة اللي بدأتيها إيه يا نورا؟».

لوت شفتيها في ابتسامة متهكّمة «لوحة إيه يا بنتي والتتار رجعوا. دلوقت أنا بافكر أهرب من البيت أكبر وقت ممكن».

خرجت كلمات سارة فاضحة دهشتها «إنت مش كنت بدأت لوحة وكنت متحمسة وسعيدة؟».

زفرت نورا نفسا من سيجارتها بعصبية «ما حدش منكم قادر يتخيل الضغوط اللي عليّ ولاّ البيت عندي جنان رسمي إزاي. أمي مش بتبطل زن. عايزة وهاتي وخدي بالك وما تتأخريش وما تنسيش. ويا سلام بقى لما تقعد تخبط الباب عليّ لما أغيب في الأوضة من غير صوت. يبقى مت أكيد».

تدخلت دنيا «نورا أنا أمي شبه أمك جدا. بس أنا بطلت أستسلم للابتزاز اللي كانت ولسه بتمارسه عليّ وهي مش واخدة بالها. يعني بأطنش ومش باسمح لها تكسر ثقتي في نفسي. عرفت أعمل مسافة تبعدني عنها بيقع فيها الغضب والضيق».

وأردفت سارة موافقة «أنا شايفة إن المشاكل ما لهاش علاقة ببره. يعني الوحدة مثلا حالة داخلية مالهاش علاقة بإذا كان حوالنا ناس ولاّ لأ. أنا كنت متجوزة والإحساس بالوحدة هيموتني. ولما بقيت لوحدي عمري ما حسيت إني وحيدة. وفي حالتك يا نورا المسألة محتاجة شوية ترويض لأمك وأبوك».

عادت نورا للانكباب على الطبق تخلط تبغ السجائر بالبانجو وهي تعلق متهكمة «حلوة النظريات قوي. سهلة ومريحة».

ثم رفعت وجهها لسارة «وإنت بقى يا أم العريف.. أخبارك إيه؟».

ضحكت سارة متجاهلة نبرة السخرية «نيلة طبعا. أنا في طق الحنك فرِّيرة. لكن في الدنيا اللي بره فشنك. قلت لكم عمرو ظهر في الحياة. طبعا فرحانة إنه موجود. يمكن علشان باتخلص من الإحساس بالذنب ناحيته. بس الأكتر إني فعلا باحب الراجل ده. عزيز عليّ. حتة من قلبي. يمكن أجمل حتة فيه».

نظر إليها حسام متسائلا «يعني هترجعوا لبعض؟».

«مش بافكر في ده دلوقت يا حسام. أنا فرحانة إنه موجود. متلخبطة شوية. ومش عارفة».

ضحكت نورا « يا خوفي يا بدران!».

التفتت سارة إليها «ساعات باستغرب إن حكاية نديم عدى عليها سنة وكام شهر ومفيش راجل حرك خيالي وصاحبني في وحدتي وخلاني أشتاق له. لكن صدقيني يا نورا لخبطة عمرو واشتياقي لحب مش شاغلينني قوي. يمكن علشان كل كياني غرقان في بحث الساحرات اللي قررت أحوله لكتاب».

تأملها حسام متفكرا «الفكرة هايلة يا سارة وبيدخل في سياقها مطاردة السحرة النهارده من أمثال صدام وبن لادن والمسلمين. أنا فاهم طبعا إن دول مش همه الخارجين على قانون القطيع بالمعنى الإيجابي. لكن المسألة هي المطاردة من وجهة نظر طرف واحد. حتى في المقالات والتحليلات السياسية الغربية بيستخدموا مصطلح (Witch Hunt) بوعي. أنا في الفترة الأخيرة مهتم أتابع كل اللي اتكتب عن حوار الأديان. رغم إني مش شايف اللي بيحصل أصوله دينية. هي لعبة سياسة رافعة شعار الدين. وعلى الناحيتين».

كانت نورا قد اتجهت إلى المطبخ وعادت بأطباق الجبن بينما حسام وسارة منهمكان في حديثهما. لحقت بها دنيا وأحضرت السلاطة الخضراء. انتبهت سارة على عودتهما محملتين بالأطباق فانتفضت من جلستها وهي تسرع الخطو إلى المطبخ ضاحكة

«ده أنا طابخة لكم النهارده».

تركت دنيا طبق السلاطة على المنضدة وخرجت منها زغرودة عالية ألقت بحسام على الأرض ضاحكا «إيه يا بت يا دنيا ده، ده إنت تربية عوالم!».

انفجروا ضاحكين وسارة تخرج بطبق الأرز بالقرفة وصينية الفراخ التي نظر إلها حسام طويلا قبل أن يمد الملعقة بتشكك ويضع بعضا من القطع الصغيرة المختلطة بالفلفل الأخضر والبصل والبطاطس والزيتون الأخضر في طبقه ثم يتذوق وقد رفع حاجبيه بإعجاب «حلو قوي السمك ده يا سارة».

علت ضحكتها «دي فراخ فاهيتا يا حسام».

«فا.. إيه! بقى دي فراخ! أمال معالمها ضايعة كده ليه. فين الجناحات والورك. الله يمسِّيكي بالخير يا فاطمة».

رفعت سارة طبقا لنورا التي رفضت «ماقدرش آكل وأنا باشرب. هاأحصلكم كمان شوية». وجذبت نفسا عميقا من سيجارتها.

حولت سارة نظرها عنها ولم تعلّق. ثم توجهت إلى حسام «إنت لسه ما اتكلمتش».

ترك طبق الطعام من يده وقد شرد قليلا. خرجت من صدره تنهيدة «الفترة اللي فاتت حاسس إنى كبرت وحاجات جوايا اتغيرت. ما بقتش عصبي زي الأول. بقيت أفكر أكتر ما صوتي يعلى. حاسس أسئلة جوايا بتتحرك حتى لو لسه مش عارف إيه همَ. لما سألت حسام هو عايز إيه من الدنيا. ما لقيتش رد. «لو كنت عارف مين أنا كنت أقول!».

«إجابة لسؤال زي ده مش سهلة. إنت عارف». ردت دنيا.

«هاعرف إزاي يا دنيا. هو السؤال كان عدى عليّ قبل كده! أنا طول عمري بافكر هاعمل إيه بكره والشهر الجاي والسنة دي. ومين عايز فلوس إمتى. بس عارفين أنا إمتى حسيت إني باتغير؟ لما ابتديت أكتب لنفسي. باستنى لما منى تنام أو تكون مشغولة مع محمد وأهرب على المكتب في أوضتي وأكتب. الدنيا لسه مضببة بس فيه حاجات بتظهر. زي مثلا إني لازم أواجه نفسي إني مش سعيد. كل يوم بارجع البيت صدري مقبوض. ساعات أبص لمنى وأسأل نفسي مين دي! وإيه اللي جابني هنا! هو ده...».

قطع حسام جملته وهو يلتفت إلى نظرة سارة نحو نورا. أدار رأسه فرأى نورا قد عادت بجسدها إلى الخلف مستندة إلى ظهر الكنبة وقد شحب لونها وارتخت ذراعها فقاربت السيجارة على السقوط من يدها. قفزت سارة ناحيتها «نورا إنت كويسة؟».

تركت دنيا مكانها بجانب حسام على الأرض واقتربت فلاحقتها سارة «هاتي كباية ميه بالعسل من المطبخ بسرعة».

شربت نورا رشفتين من كوب الماء في استسلام وأعد حسام لها طبقا وضع به أرزًا وفراخًا. لكنها أزاحته بيدها وعيناها مغمضتان. كانت الدماء قد جفت في عروقهم وهم ينظرون إلها بقلق. لم يتنفسوا قليلا إلا عندما جاءهم صوتها خافتا «عايزة أنام».

اقترب حسام ورفعها من جلستها وسندتها دنيا من الذراع الأخرى وجرت سارة إلى غرفتها لتزيح ملاءة السرير. تركوها في الغرفة بعد أن أغلقت سارة نور الأباجورة الصغيرة وعادوا إلى حجرة المعيشة.

جلسوا في صمت على الأريكة المجاورة للنافذة. كان توقف الموسيقى قد ترك مساحة شاغرة لم يحاول أحدهم ملأها. وكان القمر قد التف وأصبح في مواجهة النافذة العريضة. ألقى بنوره على سطح النيل فلمعت كفضة سائلة تسللت إلى أرض الغرفة وأصص البوتس الخضراء تحت النافذة. تساءلت دنيا بصوت جاء خافتا «نورا مالها!».

بقيت سارة على صمتها بينما رد حسام «نورا مشكلتها إنها طول الوقت شايفة الغلط في الآخرين ومش عايزة تشوف نفسها».

استكملت سارة كأنما تحدث نفسها «مش قادرة أصدق الفرق بين نورا أيام الكلية ودلوقت!».

قالت دنيا بأسى «كله من الزفت البانجو. مضيَّع أخويا وأصحابه».

ردت سارة «لا يا دنيا المشكلة مش هنا خالص. إحنا اللي بندوَّر على الضياع مش هو اللي بيدور علينا».

قاطعها حسام «الأدق إننا نقول إن إحنا اللي بنقبله مش بندور عليه».

هزت سارة رأسها موافقة «عندك حق. بس نورا شايفة طول الوقت إن حياة كل الناس، بما فيهم إحنا، أسهل من حياتها. وده مش صحيح. أنا لو عايزة أعمل من نفسي ضحية مش ها أغلب. ها أقول الراجل اللي قعد يكسّر فيّ عشر سنين وماعرفتش أخلف منه والراجل اللي حبيته....».

«ولاّ أنا اللي ما عنديش جنسية وما ينفعش أخرج بره البلد اللي ممكن أتطّرد منها في لحظة ومرتب المدرسة اللي يادوب وغباوة أمي وأحمد...».

عقَّب حسام بنبرة متململة «آدي إحنا جنبها، يمكن!».

ثم امتزج الأسى في صوته بومضة بهجة «بصوا القمر!».

شخصت عيونهم إليه وقد أفلت بصعوبة من بين طبقات الغبار فوق سماء القاهرة ونفذ إليهم.

استكمل كأنه في حديث مع نفسه «هو أنا عمري حكيت لكم عن القمر في بلدنا.. فوق سطوح بيتنا بالتحديد؟».

ظل ثلاثتهم على صمتهم وقد خطا القمر إلى تلك الجهة الغربية كعادته بعد الثالثة فجرا. بدا لسارة كأن نون ونون قد التحمتا وشكلتا دائرة ألقت وشاحها الفضي بدلال فوق تتابع الموجات الصغيرة الهادئة على سطح النهر. لم يبد على الوجه المنير مسحة حزن. أي حزن بإمكانه أن ينال مني وأنا أتلصص من نافذة مفتوحة على قلوب تنتفض بميلاد جديد!

عندما ابتسم ثلاثتهم لسيدة القمر ، ابتسمتُ.

الجزء الرابع
تجليات الذهب

(١)

اصطفت مجموعة الشباب والفتيات حول الكاهنة الأم

في نصف دائرة فوق الأرض الطينية يستمعون:

لقد استقبلكم المعبد أطفالا موهوبين للكهانة.

قبل أن تبلغوا كنتم قد قضيتم أوقاتا طويلة ترعون النبات والأشجار.

تعلمتم البذر ورعاية البراعم بالقرب من «حابي».

تركناكم أياما بالقرب من الماء تستنشقون عبق العشب المبلل.

امتصت أجسادكم الصغيرة طاقة الأرض الحبلى بالحكمة

ووشوش لكم الماء بحفنة أسرار.

اليوم ستشهدون معجزة علو النهر يوم عيد «حتحور»، التاسع عشر من يوليو.

سيفيض الماء على الضفتين ليغرق الأرض العطشى

التي ستتشربه بنهم امرأة تقابل حبيبها بلهفة الغياب الطويل

فتتفتَّح مسامها لامتصاص ماء العشق

وتدخله عتمتها في حنان.

اليوم سيصبح للأرض لون الدم والحياة.

«مين ده؟».

قبل أن تفتح نادية فمها للإجابة عن سؤال دنيا كان الوجه الصبوح المحوط بهالة من الشعر الثلجي قد تقدم ناحيتها ومد يده بالسلام «أنا نيقول من كنيسة ماري جرجس. أخدت إذن الأخت تيريز علشان أعلق إعلانًا عن رحلة لكنج مريوط، الكنيسة منظماها. هي ورشة يوجا مع أستاذ هندي موجود في مصر الدومين دول».

ابتسمت دنيا للوجه الطيب واندهشت وهي توقع بلا تردد على الورقة التي ضمت قائمة بأسماء المدرسين المنضمين إلى الورشة.

لم تسأل عن تفاصيل باستثناء أيام الرحلة التي تزامنت مع إجازة منتصف العام. وافقت ولم يكن لديها تصور واضح عن شكل تلك الأيام. ضحك «أبونا نيقول» في وجهها فابتسمت له وقد غمرتها حالة من الارتياح. في طريقه للخروج استدار إليها بعينيه الخضراوين «إنت مدرِّسة فنون مش كده!».

ابتسمت دنيا مشدوهة وهي تهز رأسها. وعندما ترك الغرفة استدارت لزميلتها «بت يا نادية تتصوري وافقت على السفر من غير أمي ما تعرف».

اتسعت ابتسامتها كأنها تحدث نفسها «يا سلام أسبوع بعيد عن سميحة!».

ضحكت نادية «ربنا يستر علينا من غضبهم. عايزة أقول لك إني عملت نفس الشيء. أمي هتقطعني لو عرفت إني طالعة رحلة مع كنيسة».

جلجلت ضحكة طفولية من دنيا وهي تستكمل كلمات نادية متقمصة نبرة سميحة السريعة الحادة «يا مصيبتي السودا رايحة تهبِّبي إيه مع كنيسة! إنت هتتنصري ولاّ إيه!».

وكان القرار قد تشكل داخلها بسرعة خاطفة وبلا إحساس بالذنب. ستخبر أمها أنها في ورشة تدريبية تابعة للمدرسة.

وصلت المجموعة إلى الكنيسة القابعة في قلب الصحراء ليلا. كانت الشمس في طريقها للغروب والسيارة تنطلق من ميدان التحرير متجهة إلى طريق الإسكندرية الصحراوي. لم تسمع دنيا طنين كاسيت الأوتوبيس بأغان لم تتبينها ولا تعلقات باقي المدرسين من الليسيه والفرير على مدار الساعة الأولى من الرحلة قبل أن يهدءوا ويحاول بعضهم النوم. كانت متأهبة لحالة من البهجة لبدء أول أيام تقضيها بعيدا عن البيت. أيام ستخلو من جمل سميحة المكرورة. أيام ليس فيها دخان محمد وموسيقى الهيفي ميتال وضحكات أصحابه في الغرفة المجاورة.

لم تمر دقائق إلا وتخلى عقلها عن احتفاله بهدوء وشيك وصحبها لساعات الرحلة وجها محمد ذي الأعوام الثلاثة وضحى بنت العامين. لم تكن قد رأت الفيديو الذي صورته ريم الرياشي قبل قيامها بالعملية الاستشهادية التي تركت جسدها بقايا متناثرة ملتصقة بأرض الحاجز الأمني الذي يفصل غزة عن المنطقة الصناعية التي يصطف أمامها يوميا ثلاثة آلاف من الفلسطينيين. ولم ترغب في رؤيته. يكفيها ما قرأته في «الإنديبندنت» عن رغبة ريم التي تحققت والتي أعلنتها بابتسامة عريضة أمام عدسة الفيديو المنزلية التي صورت نفسها بها «قد إيش حلمت منذ كنت ثلاثة عشر عاما أن أقوم بعملية استشهادية تجعل من جسدي أجزاء منثورة تتطاير في المكان. هادي دعوتي الوحيدة إلى الله».

لم يطارد دنيا إلا صورة طفليها. محمد وضحى وقد انتظرا عودة أمهما التي خرجت في التاسعة صباحا ولم تعد. يتساءلان عن كل هؤلاء الأقارب المرتدين السواد بلا زغاريد تصاحب اللون الأسود كما اعتادا. ملامح متجهمة وكلمات لا يفهمانها. عمهما وهو يعلن أمام عدسة القنوات الإخبارية «أنا أستنكر ما حدث لأنني مع السلام». لا يفهما لِمَ يبقى أبوهما صامتا والدموع تتسارع من عينيه ولم يتجمع أهل أمهما في البيت يخرجون منه الأثاث ولعبهما
و يفكون الباب الحديدي. هل سيفهمان عندما تأتي القوات الإسرائيلية كعادتها لتهدم بيتهما وتسويه بالأرض! هل يعرفان أن وعيد الشيخ أحمد ياسين بتصعيد «حماس» للمقاومة له علاقة بأمهما ذات الاثنين والعشرين عاما؟ وعندما يفهمان هل يكبر مع طفولتهما الحلم أن يصبحا شهيدين!

عادت إلى دنيا صورة أقدم. ريم ذات الخامسة عشر عاما وهي تحكي وقت تدمير بلدتها «جنين» عن حلمها «بدي أصير شهيدة». ألم تقل إن صاحباتها يشاطرنها نفس الحلم. «أين أنت يا ريم الآن؟». ومع الصورتين عادت إلى دنيا وخزة الذنب. إنها حتى لم تر بندقية ولو مرة واحدة في حياتها ولم تسمع طلقات رصاص حي. هل لو كان بإمكانها الذهاب إلى غزة، التي لم تطأها قدماها من قبل، ستقبل؟

«وصلنا».

لم تفق من إحكام قبضة الصور حول رأسها إلا بلكزة من نادية وتوقف الأتوبيس. رفعت الحقيبة الجينز على ظهرها وهي تنزل إلى الأرض الرملية فشعرت بصعوبة جرجرة ساقيها المتبستين. تلفتت حولها فكان من الصعب تبيَّن شكل الأفق حول المكان. لم يبن لها أكثر من مساحة ممتدة من الأسود. تتابع نزول الخمسة عشر فردا من الأتوبيس وقد علت أصواتهم بنداءات على بعضهم البعض وتعلقات. «هي الديابة بتيجي هنا يا شباب!». «لو سمحت يا عم ميخائيل الحمام فين؟». «تعالى يا بنتي اسحبي معايا الشنطة». كان شعورٌ بالإرهاق قد تملك من دنيا رغم أن الرحلة لم تكن طويلة. عضلات جسدها تؤلم من جلسة تعدت الساعتين بقليل.

مع أولى خطواتها عبر البوابة الحديدية لفحت وجهها نسمة هواء بدت أكثر نداوة من هواء الخارج. تلفتت في النور الشحيح فقابلتها أشجار متناثرة عبر المساحة الخضراء وتراصت نخلات باسقات بمحاذاة السور الحجري العالى. طلب منهم سينج بإنجليزيته ذات اللكنة الهندية التي تقضم نهايات الكلمات أن يتناولوا عشاءهم وينـاموا حتى موعد لقائهم في السابعة صباحا. تبادلت نادية ودنيا النظرات التي تبعتها ضحكاتهما وهمسة من دنيا في أذن صاحبتها «الراجل شكله هندي بجد. عايزنا ننام الساعة تمانية بالليل!».

دخلت دنيا إلى الغرفة بنية تغيير ملابسها واللحاق بالمجموعة. كان الأثاث بسيطا. احتل قلب الغرفة سرير نظيف يتسع لشخص واحد. في الركن رف للملابس ومرآة وباب صغير يؤدي إلى الحمام الملحق بالغرفة. الحوائط شاغرة إلا من صورة صغيرة للعذراء وقد حملت رضيعها بحنان وهالة من النور الخافت تحوّط رأسها. جلست على حافة السرير بلا حراك. أدركت أن التوتر قد تملك من جسدها خاصة كتفيها والرقبة التي شعرت بانسحاقها في قبضة خفية. تنفست ببطء وهي تتساءل عن أسباب توترها. الصمت، نعم كم هو مزعج صوت الصمت في المكان! كأنه طنين لا يتوقف لذبابة عملاقة لا تراها. كأنه صدى بعيد لصوت القنبلة التي لفتها ريم حول جسدها فمزقته وأخذت أربعة إسرائيليين معه.

زفرت وهي تتجه إلى حقيبتها لتخرج الملابس والكتب وتضعها على الرف الخشبي. التقطت صابونتها والشامبو ودخلت إلى الحمام الصغير الأبيض وفتحت مياه الدش التي تدفقت بغزارة. وقفت تحت الماء المنهمر بلا حراك. أزاح تيار الماء صدى صوت الانفجار فبزغت في ذهنها فكرة واحدة. إن طعم الحمام في مكان ليس فيه سميحة كان رائعا. انهمرت زخّات الماء الساخن على جسدها كيد ثقيلة تدلكها فينفك اشتباك عضلاتها المتبسة ببطء. وعاد إليها الإحساس أن لها جسداً. انتفض العصفوران الصغيران المشتاقان للعناق. وارتعش البطن المستدير كعود يخبئ في تجويفه ترددات اشتياق خافتة. وانتصبت الساقان المشدودتان كأنهما لمهرة برية تنتظر براحا كي تعدو.

خرجت من الحمام بإحساس كالخدر. تراجعت عن تناول العشاء. لم تعد ترغب الآن في أكثر من رقدة هادئة في سرير لها وحدها و مكان لن يدخله غيرها. ارتمت على السرير بعد أن أخرجت برتقالة من حقيبتها. أكلتها والماء لا يزال رطبا على جلدها الذي لم تشعر برغبة في تجفيفه فتساقطت منه القطرات الدافئة إلى الأرض. شعرت ببرودة لطيفة تمسح جسدها مع التقاء مائه بنسمة الهواء الآتية من النافذة الأرضية الصغيرة الكاشفة لخضرة الحديقة.

اندهشت دنيا عندما فتحت عينيها على الضوء المتسلل بنعومة من بين اهتزاز الشجيرات أمام النافذة الصغيرة. لم يكن بإمكانها تخمين أي وقت من اليوم هذا. نظرت إلى ساعة الموبايل. الخامسة صباحا ولايزال لديها ساعتان قبل الإفطار. لم تتذكر تحديدا متى نامت. تعرف أنها قد بدأت القراءة. فها هو «ساحر الصحراء» الذي تعيد قراءته يرقد جانبها مفتوحا على «سان دييجو» نائما تحت الشجرة، يحلم بالكنز بالقرب من أهرامات الجيزة. لابد أنها قد غرقت في النوم فجأة وفي وقت مبكر. ظلت في السرير لوهلة وقد شعرت بالاستغراب. كان جسدها طيّعا متيقظا كما عقلها تماما. وكان للماء الذي ألقته على وجهها في الحمام الصغير طعم منعش ببرودته. ابتسمت لوجهها في المرآة فابتسم لها.

خرجت إلى الحديقة فقابلها براح قد أغرقته الخضرة. نخلات تقف بمحاذاة السور الحجري العالى وأشجار كبيرة تدل على قدم المكان. لكن بالرغم من استمتاعها بيقظة عقلها إلى هذه الدرجة، شعرت دنيا في غمرة هذا السكون الذي لا يقطعه إلا زقزقات بعض العصافير بشيء يشبه الوحدة. أم أن ما تشعره الآن يقترب من الإحساس بالضياع! كأن أصفادا حديدية كانت تربطها طوال

الوقت إلى ساقية لا تفتأ تلف وتدور بها من العمل بالمدرسة إلى العمل التطوعي ثم إلى البيت ثانية. انزاحت الأصفاد لكن الثقل لا يزال حاضرا.

مر علىها ما يقرب من الساعة ونصف الساعة كأنها أيام. تجولت أثناءها في أرجاء المكان وتململت كأنها بانتظار أن تتم عملا ما. لاحت بادرة راحة عندما بدأ بعض أفراد المجموعة يخرجون من غرفهم ويتجهون للمطعم الصغير من أجل الإفطار. مع بدء الوجبة وقف سينج بين الموائد ليعلن بدء المحاضرة في الثامنة تماما.

جلست دنيا بجانب نادية وقد حملت وريقات لتخط فيها ملحوظات عن تاريخ اليوجا وتعبيرها عن عناصر الفلسفة الشرقية القديمة. جاء صوت سينج خافتا يصعب تبينه في البدايات. ركزت دنيا في كلمات بدأت تبين ملامحها بعد قليل. وكانت تلحق بما فاتها عندما يكرر المترجم كلمات سينج مرة أخرى بالعربية.

«اليوجا هي فلسفة وعلم وفن في آن. الأصل السينسكريتي للكلمة يعني «توحد». والتوحد هنا يعني التناغم بين الجسد والعقل والروح عند البشر ويعني أيضا في مرحلة متقدمة التوحد مع روح الكون، مع الله. سنبدأ بالوعي بالجسد وتهدئة عقولنا التي لا تتوقف عن الحركة. وبجانب الممارسة سنتحدث عن الوصايا الأساسية لهذه الفلسفة من أجل عالم أفضل للبشر. من بينها عدم إيذاء شخص أو حيوان أو شيء، الصدق، عدم مد اليد لما ليس لنا، احترام أجسادنا والاستغناء».

رفعت دنيا يدها «استغناء! يعني ما نحتجش حاجة! طيب نبقى بشر إزاي؟».

ابتسم سينج فبرق سواد العينين وبياض أسنانه المتساوية «دنيا.. الاستغناء لا يعني عدم الطلب ونفي الاحتياج. هو يعني عدم التعلق بالأشياء. أن تفهمي أن كل الأشياء والبشر ليسوا ملكك. هناك بهجة تنبعث من وجودهم. لكن علينا أن نتذكر دوما إن الأشياء تلك والشخوص موقوتون. لهم أجل في حياتنا مثلما لنا أجل وزمن في حياة آخرين. هذا هو أكثر الأسئلة المتعبة لدى البشر وهو أمر يتطلب مرانا ووقتا».

خرجت دنيا مع بدايات الفسحة القصيرة وقد اشتبكت في حديث مع نادية حول إجابة سينج. علقت نادية «المسألة مش سهلة يا دنيا. أنا دربت نفسي أمارس الاستغناء في منطقة التملك. فلوس أو بشر. لكن مش قادرة أتخيل إني ممكن أقدر أستغنى عن وجود راجل أحبه».

غرقت دنيا في حالة صمت وهي تتجه نحو شجرة كبيرة. تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى جذعها الضخم وقد استغرقها السؤال عم إذا كانت قادرة على ذلك الطريق.

ساعة قبل الغروب أقعدهم سينج متربعين في دائرة واسعة على الأرض الرملية. جاءها صوته عميقا «سنغلق الآن أعيننا و... نهدأ. الخارج يبعد شيئا فشيئا. أهم ما في هذه المرحلة هو أن نتنفس ببطء وأن نعي أننا نتنفس. نحن نتنفس طوال الوقت لكننا الآن نتابع تلك العملية عندما ندخل الهواء إلى رئتنا من الأنف ببطء. هل تشعرون بامتلاء بطونكم بالهواء! فلنخرجه الآن ببطء شديد من فمنا. الشهيق هو هبة الخالق لنا. هو نوره. هو نقاء تام. الزفير هو طاقتنا نحن السلبية. كل نفس نخرجه نطرد معه غضبنا والكره أو الغيرة. وأنتم مغمضون الأعين هكذا تأملوا لون الهواء الخارج منكم. أسود أليس كذلك! تخلصوا من هذا السم. أحلوا محله شهيقا جديدا هو طاقة حب منه إليكم».

في إغماض عينيها كادت دنيا أن تضحك عندما عبر الخاطر بذهنها. إن السكون لمن أصعب الأشياء التي من الممكن أن نمارسها. كان التمرين عبئا ثقيلا. أنصتت دنيا لكلمات سينج وحاولت تنفيذها بينما عقلها يستكمل تقافزه بين الأفكار كطفل شقي لا تهدأ له حركة. تأتيها صورة سميحة ساخطة مؤنبة «يا خيبة أملي فيكم». محمد أخوها في الغرفة المجاورة وقد تورمت عيناه وهي تدخل إليه بعد رحيل أصحابه لتفتح النافذة «حرام عليك صدرك من الدخان!». عينا أبيها الطيبتان تنظران إليها من وجهه «خليك إنت يا حبيبتي. أنا هافتحه». تعود إليها الرغبة في البكاء. أحمد وهو يشير إلى صورة أبيض وأسود لتل صحراوي. وجه سارة تحت

قطرات المطر.

حاولت دنيا أن تتنفس بانتظام وبعمق. لكن عقلها استكمل تقافزه بين فكرة ومكان وشخوص. تدفع صور ريم وطفليها جانبا فيجيئها وجه سميحة الملتوي رفضا لخروجها في مظاهرة ميدان التحرير الأخيرة. تزيحها فيحل أحمد مكانها. يرسم خيالها ملامح تلك المرأة التي تزوجها.

تسلل صوت سينج بهدوء إلى منطقة تتابع صورها كأنما كان يرى تفاصيل مسرح عقلها المكتظ. «لن يكون الأمر سهلا في البدايات. لكن لا تتعاملوا مع الأفكار التي تتقافز في عقولكم على أنها عدو. ادفعوها خارجا برفق. واحدة تلو الأخرى. العنف لا يولد إلا عنفا».

عيناها مغمضتان. لكنها ترى الآن زفيرا أسود يخرج منها. يحمل معه غضبها من أمها وتعلماتها. تستنشق نفسا جديدا عميقا وتطلق مع الزفير صوت سميحة. تدخل إلى صدرها نفسا آخر. تحبسه قليلا ثم تطرده ببطء فترى الطاقة الحمراء التي أحاطت بها في «ملتقى المرأة». يستمر الزفير طويلا. بزغ في رأسها وجه أحمد مبتسما. تأملته بهدوء. هل ما تراه يشبه شبح كذب في هذه الابتسامة! أزاح صوت سارة صورة أحمد جانبا «لازم تعترفي إنك غضبانة ومجروحة».

تدرك الآن أن التركيز الذي كان في أول يومين صعبا بدأ يقترب منها بهدوء عندما تحول التنفس إلى لعبة أحبتها، وأخذت تمارسها بعيدا عن المجموعة. تجلس القرفصاء أسفل الشجرة الكبيرة التي عرفت من أبونا نيقول «الشجرة دي من فصيلة السوكالبتوس أطول أشجار العالم ولها أكتر من مائتي نوع».

في تلك اللحظات تتلفت حولها باسترابة لترى هل يتابعها أحد أفراد المجموعة فتجدهم إما في حالة تأمل أو منهمكين في حوارات جانبية. فتعود إلى نفسها ويصبح تتابع شهيقها والزفير أسهل. تشعر بتمدد رئتيها كأنها عطشى إلى المزيد من الهواء. كأنها لم تذق له طعما من قبل.

مع نهاية محاضرة اليوم الثالث طلب سينج منهم نصف يوم من الصمت. لم يكن مسموحا بالكلام مع بعضهم البعض. كانت دنيا قد اعتادت هدوء المكان وهدأ صخب الصمت الذي صم أذنيها في أول يومين. لكنه صمت تام... ولا كلمة!

كانت محاضرة اليوم قد ركزت على «باتانجالى» المؤسس الأسطوري لليوجا «الذي علم البشر هدوء الروح من خلال فلسفة اليوجا كما منحهم وضوح الحديث بإرسائه قواعد النحو. هو أيضا الذي فتح لهم سبل الصحة بعمله على الطب».

واستكمل سينج «ربما باتانجالى ليس شخصا بل عدة شخوص وعلى مدار أزمان عدة. لكن البشر مولعون برد أصول الأشياء إلى شخوص بعينهم. المهم أن المخيلة الهندية صوَّرته على هيئة نصف إنسان ونصف حية».

رفعت دنيا يدها متسائلة «هل الحية هنا تعني الحكمة زي ما بنلاقيها في الحضارة الفرعونية ولاّ تعني المرأة بحكم ارتباط الست بالاستسلام لغواية الحية والأكل من شجرة المعرفة؟».

«بالتأكيد الحية هنا تحمل الارتباط بالحكمة والمعرفة. كل إلهات العالم القديم - في الهند وسومر وبابل ومصر- كن يتخذن رمز الأفعي. ولو كانت هناك إشارة في صورة تمثال باتانجالى الذي أمامكم إلى المرأة فهو ارتباط إيجابي ينم عن التوحد بين نصفيّ الوجود».

خرجت دنيا إلى الحديقة وهي تتأمل طلب سينج من المجموعة. لا تزال فكرة نصف يوم من الصمت تشكل علامة استفهام كبيرة. توقعت من نفسها أن تمل وتتململ. وقد كان هذا هو حال الساعات الأولى من نصف اليوم. دارت عدة مرات في الحديقة كأنها تبحث عن شيء لا تعرفه حتى انتبهت إلى صوت لهاثها. توقفت للحظة وهي تواجه نفسها بدهشتها «زي ما أكون هربانة من حاجة. فيه إيه... اهدي وركّزي».

انجذبت مرة أخرى إلى أسفل شجرة السوكالبتوس العتيقة ذات الجسد الضخم. جلست متربعة وبدأت تمارس التنفس بهدوء. بعد

دقائق كان صدرها يسحب الهواء بشكل أعمق ويخرجه بطيئا. شعرت بعد فترة أنها ترغب فى الرقاد على الأرض. لم تتردد في الاستلقاء على العشب، وللمرة الأولى منذ أيام ثلاثة لم تنظر حولها لترى إن كان هناك من يراقبها. للعشب الأخضر المبلل ملمس ناعم تحت وجنتها ورائحة نداوة خفيفة.

فتحت عينيها بعد فترة ظنتها ساعات. لم تصدق أن زمن غفوتها لم يتجاوز ربع الساعة. كيف إذن كان حلمها طويلا وجليا! جدتها هنية تزورها للمرة الأولى بعد غياب طويل. كانت ضاحكة كعادتها. وارتفع صوتها بالغناء:

وحدهن..

وحدهن بيبقوا مثل زهر البيسان

وحدهن بيقطفوا أوراق الزمان

بيسكروا الغابة

بيضلهن قبل الشتي يدقوا على أبوابي

تنظر جدتها لها ولنسمة بتعجب «ما بتغنوش ليه يا بنات. غني يا بت إنت وهيّ».

كانت دنيا وأختها نسمة في الحلم صامتتين تنظران إلى الجدة بشعرها الفضي الطويل الذي يصل إلى آخر ظهرها في جديلة واحدة. ترفعان إليها أعينهما الطفلة بمحبة ممزوجة بإعجاب بصوتها المرح. قرب نهاية الحلم كان صوت دنيا قد بدأ خافتا خجولا كطفل يحبو في ذيل أمه «يا عشب تاجر فوق هالحيطان... ضويت ورد الليل ع كتابي». وفاحت رائحة فل في المكان. رقص قلب دنيا وهي تنهل من الرائحة التي لم تستطع تحديد مصدرها.

كانت أفرع الشجرة العتيقة تتمايل بخفة مع الهواء القادم من الشمال. نظرت دنيا لأعلى ومدت يدها تلتقط حفنة وريقات خضراء طويلة تتأملها. كان لكل ورقة وجه أخضر مائل للزرقة ووجه فضي. تأملت التجاعيد الرقيقة على وجه إحدى الأوراق. لم تلبث أن أدركت رائحة الأوراق المميزة فوق يدها فقربتها من أنفها. كانت الرائحة غريبة بعض الشيء لكنها منعشة كرائحة الليمون. غمرتها حالة من الصفاء. شعرت بعقلها هادئا رائقا كماء بحيرة شفاف يكشف أشكال الحصى والتفافات الأسماك الصغيرة حول بعضها البعض وحول الشجيرات الصغيرة في القاع.

عادت بعينيها إلى ورق الشجرة الغزير فوق رأسها وابتسمت في هدوء.

ابتسمتُ لها فاهتزت أفرعي مخشخشة بصوت الأوراق.

هل تدرك دنيا الآن أن ذلك الجذع الضخم ليس إلا صدر «حتحور» الممتلئ لبنا. وتلك الأفرع الكثيفة ليست إلا أذرعي تحوط من يجلس في هذا الحضن. هذه الأوراق هي ظلال روحي ألقي بها علىكم فتبتعد عين «رع» الناقمة ويخفت النور ببطء لتدخلوا إلى رحم العتمة.
و هناك تجدونني فاتحة أذرعي لكم. لكل غريب عابر على طريق الواحد الرحيم. ألم أخف في رحمي «أوزوريس» حتى أبعده عن عيني «ست» وإلى أن تجده حبيبته وتعيده للحياة! وقد كنت أنا أيضا أم «أدونيس» وقد تحولت إلى شجرة أخفته في رحمها حتى تلقته «أفروديت». كنت دوما الحامية المحتضنة أرواحكم. ضاربة بجذوري في رحم الأم الكبرى ورافعة أذرعي إلى ملكوت «نوت» الأزرق اللامتناهي. أصل ما بين أرض روحكم المظلمة الخافية للأسرار وسمائها المفتوحة على الأبدية.

لفت دنيا ذراعيها حول جسدها ووضعت رأسها بينهما مستندة على ركبتيها و... بكت. انهمرت دموعها غزيرة مصحوبة بنهنهات. ظلت تبكي دون أن يبزغ في عقلها سؤال عن سبب الدموع. لم يلبث أن انتفض جسدها مع تسارع الشهقات. كانت القطرات تنزلق منها إلى الأرض حيث تجلس فتتشربها التربة حول جذوري القديمة الموغلة في العمق بهدوء. ظللت أمتص حزنها حتى رفعت

رأسها على شمس المغيب وإدراك كان قد طفا فوق سطح بحيرة عقلها الرائقة «بابا.. أبوي.. يا بوي».

بكت دنيا حتى فقدت الإحساس بالوقت وبالمكان. رفعت رأسها بعد أن بدا لها أنها بئر الدموع قد جفت. شعرت بهدوء يسكن روحها. هل هو هدوء فقط! ربما تشعر الآن بشيء يشبه صفاء العقل. كأن من السهولة بمكان أن تتعرف فورا على ما تشعر به وما تفكر فيه. هل سبق أن كان عقلها بهذا القدر من الشفافية! همست «حاسة كإن روحي بتنور!».

كيف لا تنير الروح يا ابنتي لحظة يصمت الكون تماما فيعود كما بدايات الخليقة. وأنتم كوليد أول ووحيد من رحم الأم الأولى يفتح عينيه على سماء «نوت» ويديّ «جب» مفرودة تحته تحمله كعطية الآلهة. حالة من السكون الكامل تسقطون في بداياتها ضجيج العالم الذي طالما وقف بينكم وبين أنفسكم. تعيشون ذلك الفراغ الهائل. تتركون أنفسكم له بلا خوف ولا ترقب. وبعد وهلة ـ تطول أو تقصر ـ تبدأ أرواحكم في التقاط ترددات طاقة أقدم لأرواح كانت على تلك البسيطة قبلكم. أحبوا وكرهوا وبنوا في الأرض وأحرقوها وبحث بعضهم عن الحكمة وخوفا علىها أعادها إلى الرحم الأول وقال «من يعثر علىها فهي له». كيف لا تنير الروح وقد وجدت مكانها في العالم ونظرت داخلها فرأت صحراء واسعة بلا نهايات تخفي في بطنها آبار مياه عذبة وعظام حكمة قديمة وتاريخ كل من عبروها بحثا عن المعنى.

ليست هذه يا دنيا إلا لحظة البدايات. ولكن أية لحظة تلك التي تزيح الستار بين عالم وعالم. وتدلفين من عالم لم ترين غيره إلى ذلك المكان الآخر الذي لن تملِّي مغامراته ولا البحث داخل كهوفه. هناك ستعرفين أن عصافيرك لم تكن بحاجة إلى زاد منك وماء حتى تعيش، بل هي التي قد فتحت لك بمناقيرها الصغيرة ثقوبا بين العالمين.

قامت دنيا من جلستها مع حلول الليل. استغربت شعورها بجسدها خفيفا كأنه مفرغ من الداخل ومحشو بريش ناعم متساقط من عصافير صغيرة مهاجرة. مدت الخطو فتأكد لها الاكتشاف مع كل خطوة واسعة أخذتها. كأن بإمكانها أن تمد قدمًا من فوق جبل لتخطو إلى قمة الجبل المقابل. كأن بإمكانها لو أسرعت قليلا أن تطير الآن. ظلت تسرع الخطو مندهشة أن صدرها لا يلهث من عنف خطواتها المتتابعة. وأخذ قلبها يدق متراقصا وهي تبحث عن شجرة الفل التي فاح عطرها في المكان منذ قليل. طافت أرجاء الحديقة حتى دنا الأس منها. وعندما لمحت سينج جالسا تحت إحدى النخلات وفي يده كتاب سألته «شفت هنا شجرة فل؟».

رفع رأسه إلىها وقد طفا على وجهه ظل ابتسامة وهو يهز رأسه بالنفي. دخلت إلى المكتب الصغير في أول طرقة حجرات النوم فوجدت عم ميخائيل الحارس جالسا خلف المكتب ورأسه يميل نحو صدره في شبه غفوة.

«عم ميخائيل هو شجرة الفل فين؟».

ارتفع إلىها الوجه الأسمر المحفور بأخاديد الدهشة «يا آنسة ما فيش فل في المنطقة!».

(٢)

«كل صوت مقدس سيجبر على الصمت

وتفضل الظلمة على النور

لن ترتفع عين للسماء.

سيعلو الأحمق إلى مقام الشجعان ويعتبر الفاسد من أهل الخير .

قالها «تحوت» ملك الكلمة وسيد التحولات

في أحد أزمان القحط حين تراجعت «إيزيس»

الفريدة المحبوبة التي لا مثيل لها.

وانزوى «أوزوريس» في البر الغربي تاركا العالم لأخيه،

واختفت «عين حتحور» ولا من «رع» ليبعث الرسل يقتفون أثرها.

لم يعد يأبه أحد بوضع تلك «العين الشاردة» على جبهته.

فقط من أجل هؤلاء المفتشين عني في أرجاء الأرض

تعود النائية.

أحضر وجعبتي ممتلئة بالحيل وبالأسرار.

أظلل عليهم بأفرع الجميزة العتيقة.

أقربهم مني ومن بعضهم البعض.

فالقرب ترياق ينزع من دمهم سم «ست».

«قتلوا أحمد ياسين. الشيخ ياسين مات».

ظل حسام يهمس لنفسه بتلك الجملة على مدار الساعات التي تجمّد خلالها أمام شاشة الكمبيوتر. لم يشعر بمرور الوقت. لم يسمع أحاديث الزملاء الجالسين معه في نفس الغرفة على شاشات مجاورة. وعندما كان يهرب بعينيه بعيدا عن وجه الشيخ السمح وعينيه المبتسمتن كانتا تلتقيان بالرباعية التي طبعها عند وصوله إلى المكتب من ساعات وعلقها فوق الكمبيوتر:

على رجلي دم.. نظرت له ما احتملت

على إيدي دم.. سألت ليه؟ لم وصلت

على كتفي دم.. وحتى على راسي دم

أنا كلي دم.. قتلت؟.... ولاّ اتقتلت

قطع خيوط الصمت المشحون اندفاع أستاذ حامولي إلى الغرفة وقد احمر وجهه من الانفعال. توجه إلى حسام مباشرة بالطلب المكرور ولغده يترجرج كالعادة مع الكلمات «حسام عايزين تحليل عن مقتل الشيخ أحمد ياسين. الدنيا كلها بتتكلم عن الخبر».

اتجهت عينا حسام الشاردتان إليه دون أن ترياه. اغتصب ابتسامة صفراء وخرجت منه الكلمات باردة تماما «تحليلات! حضرتك عارف أنا في دماغي فكرة هايلة لمقال. عايز أكتب عن حال السلطة الفلسطينية الومين دول. عرفات تحت الحصار. السلطة الفلسطينية حولها الإسرائيليون من منظمة تحرير لعسكري أمن وكبش فدا لمصاييهم. قريع اللي بيشتكي لقادة أوروبا من الجدار العازل عنده شركة في أبو ديس - اللي حولها من كام شهر باسم واحد من قرايبه - بتبيع أسمنت لإسرائيل بيستخدم في بناء الجدار العازل ذات نفسه. وفرنسا بتتحرى تحويل ١١ و نص مليون دولار من بنوك سويسرا لحساب سها عرفات الخاص. والست سها اللي عايشة في باريس وبتزور الأرض المحتلة لما هيلاري كلينتون تبقى في المنطقة بتقول لجريدة «الحياة» وإيه الغريب لما يحول الرئيس أي أموال لأسرته ولمراته اللي بتحمي مصالح الفلسطينيين في الغربة و...».

قاطعه أستاذ حامولي وقد أصبح وجهه بلون الباذنجان «إيه يا حسام.. إيه.. بالراحة شوية. إنت عايز يقفلوا لنا الموقع!».

«ليه يا أستاذ حامولي. هو أنا أول واحد يقول الكلام ده. أجيب لحضرتك مقالات كتيرة ومن عرب. آخرهم مقال لحسن أبو نعمة(١). عارف طبعا إنه..».

«إنت مش هينفع معاك كلام وإنت في الحالة دي يا حسام. لما تهدى تعالى لمكتبي». قالها وهو يتراجع متخبطا خارج الغرفة.

قام حسام تاركا الكمبيوتر مفتوحا على أخبار ما حدث وذهب إلى المطبخ لإعداد كوب من الشاي الثقيل. وهناك ضرب رقم صاحبته. «سارة إنت في البيت؟».

أتاه صوتها مكتوما بثقل أخبار الصباح «حسام عدي عليّ بعد الشغل. بقى لنا كتير ماشفناش بعض. أنا خلصت محاضرتي وهاألغي ساعة الدوجا».

«سارة أنا دمي تقيل قوي النهاردة. مش عايز أشوفك وأنا في الحالة دي».

دقائق واستأذن قبل موعد انصرافه بساعتين. قاد السيارة كأنه منوم وعندما وصل إليها جلس صامتا على غير عادته بعد أن طلب منها «والنبي يا سارة اقفلي «الجزيرة». أنا سبت لهم الموقع يضرب يقلب ومش ناقص».

علا صوت سارة في غضب وهي تضغط الريموت كنترول بعصبية «أمريكا بتقود حملة مطاردة سحرة. بوش ده مجرد سليل للبيوريتانيين اللي كانوا بيجلدوا نفسهم طول الوقت بسبب الخطيئة الأولى لآدم وكان هدفهم إن البشر يبقوا ملايكة. وسبحان الله على التناقض- الناس دي بنوا جنتهم المزعومة من لحم الهنود والسود وكانوا مش بس بيحرقوا حرف (A)(٢) على صدور ستاتهم اللي زنوا وبيحضروا احتفالات تجريس لهم في ميادين عامة، لكنهم فضلوا يعملوا احتفالات شنق جماعية للسود حتى بعد انتهاء العبودية بسنين».

نظرت إليه وقد اقشعَّر جسدها فخرجت الكلمات مرتعشة «حسام دول كانوا بيقطعوا أجزاء من لحم جثث السود ويلزقوها على كروت بوستال ويبعتوها لأصحابهم علشان يقولوا لهم قضوا الويك إند إزاي. دلوقت بوش طالق علينا الإسرائيليين علشان يطلعوا الشيطان من جسم العالم».

نظر إلى سارة وقد عادت ثورته «أنا حاسس بالعجز رغم إن اغتيال الشيخ أحمد ياسين ماكانش مفاجأة. بالونة الاختبار اللي ألقوها لما ضربوا بيته كانت مؤشر واضح لمخططهم. كانوا عايزين يتأكدوا من حاجة همه عارفينها كويس. إننا شكرا... مش هانعمل حاجة. كتيرها شوية تصريحات وإدانات وشجب وكل واحد يروح بلده ويتخمد».

كان مصدر الذهول الذي أطبق على عقل حسام هو التطابق بين اليوم ولحظة القبض على صدام. نفس المهانة والعجز واحتضار الأمل الواهن في غد مختلف. عاد إليه التاسع من إبريل كأنه الأمس.

وعاد بعينيه إلى سارة «فاكره الصحاف لما قعد يتوعد العلوج الأمريكان!».

ثم ضحك مستهزئا «وإحنا هبل وصدقناه».

استكملت سارة «حتى صحفيين زي روبرت فيسك كانوا بيتكلموا بثقة عن استعدادات بغداد القوية!».

ابتسم بمرارة «وبعدين صور لبغداد فاضياااه من أي صحاف أو صدام أو حتى صحفي واحد يشهد على اللي حصل».

«كانوا ضربوا فندق الصحفيين. فندق «فلسطين» مش كده؟».

خبط رأسه بدهشة « تتصوري إن اسمه فعلا فندق «فلسطين»! حتى الفندق اللي ينضرب يبقى اسمه فلسطين!».

«وقتلوا ثلاثة من رويترز. طبعا... على حافة جريمة لازم تحاول إخفاء كل أثر لها قبل ما تحصل».

همس بسخرية كأنما لنفسه «والحياة بيتصدرها مانشيت واحد بخط أسود مش بيتغير - أنت مهان ومهزوم وملكش ثمن».

أخذ من سارة مج النسكافيه بجبين مقطب وقد شعر برغبة في البكاء تعصر صدره. لكن الدموع كانت قد جفت منذ زمن وتشققت مجاريها الدقيقة ونمت فوقها الأعشاب والطحالب.

رفع وجهه إليها متسائلا «هو أنا عايش ليه!».

عاد ضغط الدموع داخل صدره. وحضرته رغبة أن يستعيد حالة البلادة التي أذهبها لقاؤه الأخير بليلى فرجع إليه طعم الوجع كاملا. ودَّ لو بالإمكان أن يكون إنسانا آخر. واحدا من أصحابه «الرايقين» الذين تنحصر اهتماماتهم في زوجة وبيت ومكان البقال والجزار. اجترّ طعم المرارة مع صورهم وهو يحسدهم على ما هم فيه من تباعد عما يحدث في الخارج.

«عارفة يا سارة منى دايما تقول لي أنا مش فاهمة بس يا حسام إنت بتتقهر كده ليه على اللي بيحصل في العالم والحمد لله ربنا مدينا فلوس واستقرار وعيشة كويسة!».

نظرت إليه سارة وقد ألقت شمس الغروب المتسللة من نافذة حجرة المعيشة ظلالا قرمزية على وجهها «يمكن عايش علشان تكون بني آدم. زي ما إنت بني آدم دلوقت. زي ما ممكن تكون بني آدم أجمل لما تدخل جواك وتفهم...».

تذكر أوراقه التي لم يذهب إليها منذ شهور. كيف ومتى تراجعت قوة جذب مغناطيس هذه الأوراق التي كانت تشده بقوة كلما غاب بضعة أيام. لم يعد مرة إلى تلك الكراس إلا وقابل بهجة ضنينة. هل لأنها كانت تؤكد وحشته لحسام! يجلس ليلا إلى المكتب الجديد الذي وضعه في ركن حجرة النوم ونثر فوقه أشياء يحبها مثل ذلك المج الأزرق الذي أتت به سارة من «بادستو» وروايات الطيب صالح التي أهدتها إياه دنيا في عيد ميلاده. يفتح الأوراق على ضوء أباجورته الصغيرة ويلتقط من حسام شذرات هاربة. يسرع في تسجيلها حتى مع مقاطعات مني وضجيج ابنه. لم يكن الأمر سهلا لكنه حمل دوما هذا الوعد بمتعة بعيدة تقف بينه ولو لحين وسيل أخبار الفجيعة التي كانت تطارده في الصحو وفي كوابيس منتظمة. ودَّ لو خفف العالم من قبضته حوله حتى...

«حسام بيتهيأ لي إن المشكلة مش في الخارج أبدا، رغم قبحه والظلم، المشكلة إحنا بنتعامل إزاي معاه».

رفع إلـها عينين فيهما شبح انكسار «مش بإيدي يا سارة. نفسي أبقى زي منى وزي أصحاب ليّ همومهم محصورة في حدود ضيقة».

شرد لحظات تساءل فيها هل بيده أن يقرر أن يصبح مثل أصدقاء يعرفهم وقد بنى كل منهم وهمه الخاص وارتاح داخله.

عاد إلى صاحبته «واحد صاحبي يا سارة، كمال «حرامي المعيز»، كان بيلعب معانا كورة. كل العيال كانوا عارفين إن هو وإخواته حرامية. يسرقوا أي حاجة تقع تحت إيديهم. معزة. فرخة. شوال رز. دبلوم التجارة اللي خده ما خلصهوش من إحساسه بالضآلة تجاه باقي الشباب. لما قابلته من كام سنة بالمصادفة سلم عليّ بأنفة شديدة. فهمت السبب مع الدقن والجلابية البيضا القصيرة. عرفت بعدها إنه من «الأمرا» عقبال أملتك وكان لسه راجع من أفغانستان».

لم تبد سارة اندهاشا للقصة لكنها ضحكت وهي تتصور مشهد اللقاء بين «حرامي المعيز» وحسام. بدأ طيف ابتسامة يعود إلى عينيه وهو يسألها «أنا عمري حكيت لك إني كنت إخوانجي أيام الجامعة».

«فعلا!».

ابتسم وهو يحكي كيف أنه لم ينتم إلـهم بشكل تنظيمي لكنه وجد نفسه بينهم. في المدينة الجامعية كان بديهيًا أن يصلي في الجامع الصغير في الدور الثاني. ولم يلبثوا مع انتظامه في الصلاة أن اعتبروه «من الإخوة» ولم يمانع.

ابتسم ممازحا «يعني يا سارة كلنا إخوة برضه».

وقد كان رصيدا لهم في فريق كرة القدم بعد أن كسب للفريق عدة مباريات. لكن طلبهم منه أن يرشح نفسه في قوائمهم تزامن مع بدايات إدراكه لشيء بالضرورة خطأ. نظر إلى سارة وقد تدفقت الدماء في وجهه مع سخونة الذكرى «مش هتتصوري إيه الحاجة اللي خلتني أبتدي أشك فيهم... اللغة العربية المهببة اللي كانوا بيخطبوا بيها في جامع المدينة وفي الجامعة».

وتلا ذلك إفاقته أن أشياء كثيرة أصبحت إلزاما عليه بينما حوله وفوق رأسه ألف رقيب يتناوبون.

«يوم يا بنتي كنت في السينما مع صحاب ليّ ورحنا شربنا اتنين بيرة وراجع مظبط وكله تمام. ماصحيتش للفجر وسمعت لك موشح في الأخلاق. ساعتها انفجرت فيهم وأعلنت أني مش باتنمي إلا لنفسي. وإن ما فيش حد هياخد الثواب أو العقاب بدل مني».

ومنذ تلك اللحظة بدأت الحرب غير الشريفة. معاملة المنبوذين التي وصلت إلى حد إقدام أحدهم على كسر ساقه في ماتش كرة.

«ماكانش واحد بيلعب كورة. لأ ده كان داخل يكسر لي رجل».

وكان أن رشح نفسه بعيدا عن قوائمهم وكسب. اكتست ابتسامته بشيء من الأسى وهو يخبرها «ما كانش ممكن أغير شيء. كانوا مالكين الجامعة بالكامل. لكن على الأقل تحديتهم. لكن السنة دي علمتني أكره إرهاب الفكرة وأرفض أبقى عبد لأي مجموعة».

كان للذكرى رغم مرارتها طعم مخدر لأعصابه المشدودة كأوتار عود قديمة على وشك التهتك. بحث في ثناياها بعناد فخرج إلـه هاشم الشهير بـ«الجمجمة» وعلى شفتيه الغليظتين ابتسامة عريضة. هو رفيقه المفضل في الأزمات. لذا يبقيه حسام في غرفة داخله ليذهب إلـه وقت الضيق.

«الجمجمة بقى يا سارة ماسابش بلدنا من يوم ماتخرج وعاش الحياة سعيدا إلى الأبد زي ما بتقول الحكايات التافهة في آخرها».

تساءلت سارة ضاحكة «وليه سميتوه الجمجمة؟».

كان حسام قد أطلق عليه هذا اللقب منذ كانا معا في المدرسة الإعدادية لأن هاشم كان له اهتمام أساسي في الحياة له مجرى واحد بدؤه ومنتهاه هو الجنس الأنثوي «حتى لو كان حمارة يا وسخ» كما كان حسام يمازحه. وقبل التخرج كان قد تزوج وأنجب ابنتين

ولم يخبُ ولعه بالنساء، فاشترى الدش وتربع أمامه بعد العودة من المدرسة الساعة الثانية عشره ظهرا. يقضي الساعات يقلب في القنوات بلا كلل. ومع مجيء التسعينيات بغزو الفيديو كليب أصبح هاشم من المتابعين الأوائل لكل تطوراته. وكلما مرت السنوات كلما امتدح التحولات التي جرت في هذا الفن وصولا إلى روبي التي نصبها ملكة متوَّجة لم يلبث أن اصطحبها باعتزاز إلى أحلامه الليلية. وكاد أن يطير من الفرحة عندما عثر بالمصادفة على قناة بورنو مشوشة لا تكاد الأجساد تبين فيها. لكنه قنع بالأصوات. ولم يكن ليتحمل إلا دقائق معدودة يذهب بعدها لإيقاظ «المدام».

استكمل حسام الحكاية «الجمجمة بقى رايق وشاري دماغه من وجع القلب. باكلمه على التليفون لما أحس إن شبح أزمة قلبية بيقرب مني».

ابتسمت سارة لصورة الجمجمة ولابتسامة حسام «عايز تفكر نفسك إن فيه بشر بالشكل ده وسعداء فعلا».

هز رأسه موافقا. كانت الصورة تغيظه وتضحكه أيضا. ها هو الوجه الطفولي الضخم يأتيه الآن والقهقهة التي كانت تسمعها البلد كلها عندما يزوره حسام بآخر النكات القاهرية. يجلس معه في شرفة بيت أهله الذي تزوج فيه، وتأتي امرأته تجرجر كتلا من اللحم الأبيض ينفي عن مصر تهمة الفقر. تضع دلال أمامهما طبقا علته كومة من السندوتشات «المفخخة» كما اعتاد حسام تسميتها وبجانبها المخلل. كبدة ومخ وكفتة وأحيانا لحم مشوي. يأتيه صوت هاشم العريض «كل يا حسام تصبيرة لحد العشا».

تنفس حسام بعمق وقد شعر بتوتر النوم ينحسر مع استغراقه في حكايات الأصحاب التي أزاحت جانبا اغتيال الشيخ أحمد ياسين وخطط شارون وصمت العرب المريب. وقف وقد أمسك بالمفاتيح والموبايل وعلبة السجائر واستعد للذهاب. قامت سارة تلملم أكواب النسكافيه. احتضنته وهي تتساءل «هتبقى كويس يا حسام؟ إوعى تكسل عن الكتابة».

ابتسم «بس الأول هاجيب قماشة بيضا وأرسم عليها نجمة زرقا وأسيبها على باب الشقة للي داخل وخارج يمسح رجله فيها».

ثم توقف على باب الشقة وقد بدا عليه أنه تذكر شيئا فاستدار إليها «آه سارة... هو أنا عمري حكيت لك عن التحول الأساسي في حياتي الفترة اللي فاتت! أنا أصلي كنت قريت عن الراجل الأمريكاني اللي قرر يحرق جواز سفره. قلت بس ياواد يا حس لقيت الحل. أنا متنازل لأي حد عن الجنسية».

ابتسمت سارة متهكِّمة «أيوه يا حسام بس ده في أمريكا ولما واحد أمريكاني يعمل كده الدنيا ممكن تتهز. لكن إنت هنا».

قاطعها بنبرة الخبير الذي تفحص كل جوانب المشكلة « لأ يا حبيبتي ما أنا عارف ها أتعلق من رجليّ. علشان كده تنازلت عن الجنسية بس ما أعلنتش إلا للمقربين بس. وكان بعدها على طول بطولة الأمم الأوروبية فاخترت أكون برتغالى. بس من أول ماتش فريق البرتغال اتغلب».

تابعت سارة السيناريو ضاحكة «وبعدين اخترت تكون إيه؟».

«لأ فضلت برتغالى. ما أنا قلت ساعتها الغلط فيّ أنا. بس الحقيقة ماصمدتش إلا يادوب أربعة أشهر. بعدها مصر كانت بتلعب مع «بنين». دخلت من الشغل على السرير. جت منى مش قادرة تصدق إن مصر بتلعب وأنا مش مهتم. فكرتها طبعا إن أنا برتغالى. وبعدها بشوية لقيت الشارع كله بيصرخ ومنى داخلة تجري وبتقوللي إن مصر جابت جونين. نطيت من السرير وقعدت على ركبي أتفرج على باقي الماتش».

تحولت ضحكتها إلى قهقهة «وفرحت يا حسام بالتعادل مع «بنين». إنت مش كنت بتقول لي إن فريقها تعبان!».

«أيوه فرحت. أعمل إيه طلع موضوع التنازل عن الجنسية ده مش نافع».

سألته وقد اكتست نبرتها بشيء من الجدية «طيب من باب البدائل أخبار الإجازة المزعومة إيه؟».

«إجازة إيه يا وليه. ده منى كانت قطعتني حتت ورمتني للكلاب. وبعدين أجازة من غير أي مُزّة. ودي تبقى إجازة إزاي!».

«ما فيش فايدة فيك يا حسام. أنا باتكلم بجد».

«وأنا كمان يا أختي باتكلم بجد. عايز أحب يا جماعة. محتاج واحدة تقف بيني وبين العجز الجنسي اللي جابهولي الصحاف وبوش وشارون. لأ بقول لك إية ما تبصليش كده. أنا لسه ما بظتش».

(٣)

أيام وأسابيع في الظلام الحالك ستلغي اعتمادهم على أعينهم.

وتعيد إليهم باقي الحواس.

مع بعض الوقت والقليل من النبيذ المنبه للحواس

سيتعلم المتدرب والمتدربة على الكهانة كيف يصاحب الظلام. سيتعلمون كيف ينصتون لأصواتهم الجَوّانية

فهذا صوت خوف قديم. وذاك صوت رؤيا لما يحمل الغد لهم من درب للكهانة.

في هذه المرحلة وتحت إشراف الكهنة المرشدين

سيتناولون بعض العشب المخدر كي يهدأ صوت العقل ويعلو صوت القلب.

مرشدهم الأوحد فيما هو قادم من أيام.

في لحظة محسوبة سيستغنون عن العشب والنبيذ.

تحين لحظة الاستغناء حين يتيقظون تمام اليقظة لكل حركة صغيرة.

حين يفكون شفرة تنفس أحدهم حين يتوتر.

ويترجمون إنذار الهواء القادم من جهة الشمال بعاصفة أو مطر،

حين يقرؤون درجة اصفرار أوراق شجرة في المعبد

وحين تُسر إليهم رائحة الأرض بفيضان في الطريق.

هي تلك الحالة من الانتباه التي ستمكن هؤلاء الكهنة والكاهنات

من الولوج من ذاك الباب السحري بين عالمين.

فيستمعون إلى ما لا يسمعه الآخرون

ويرون ما لا يراه آخر.

«تامر... فنان تشكيلي».

قدمت نورا صديقها لحسام ودنيا فسلم عليه حسام بلطف وتأملته دنيا وهم يدورون في أرجاء المعرض الصغير متنقلين بين اللوحات. تأرجح جسده النحيل داخل بنطلون جينز غطى مؤخرته بالكاد وتي شيرت أزرق واسع ولمعت حول عنقه ويده المنى سلسلة وأسورة فضية. أما خصلات شعره السوداء فقد تداخلت حول بعضها البعض بشكل يتناسب مع سريالية مظهره. شدت دنيا حسام كي يقرب منها أذنه وهمست «واد يا حسام ده شكله ماستحماش بقى له أربعة أشهر!».

لكزها وهو يرد بصوت خفيض «اتلمي مش عايزين فضايح. يمكن نورا تحبه ويبقى أنيشتا. جوز أختك لو ما بتعرفيش لغات».

ابتلعت دنيا ابتسامتها حتى استكملوا جولتهم بين لوحات مجموعة الفنانين الشباب الذين ضمهم المعرض. ما إن خرجوا إلى الشارع متجهين إلى قهوة البورصة في شارع قصر النيل حتى ضربت دنيا رقم سارة «أيوه يا سارة. خلصت اجتماعك؟ طيب إحنا داخلين على القهوة».

ما إن جلسوا وجاءتهم أكواب الشاي بالنعناع والشيشة حتى بدأت نورا السخرية من المعرض وقد تملكها الغيظ ممن وصفتهم بأنصاف المواهب كل شوية عيال يرسموا شخابيط ويعملوا معرض وقال إيه اسمه فن!».

أيدَّها تامر بهزة رأس خفيفة وابتسامة ساخرة دون أن يرفع رأسه المنهمك في تعديل رص الفحم فوق حجر الشيشة المعسّل وبدأ يشد أنفاسا متتالية.

اندفعت دنيا للرد بحماسة «ليه يا نورا المعرض ما كانش سيئ! فيهم شباب كويسين. دماغهم مختلفة وتحسِّي إن عندهم حاجة يقولوها».

شدت نورا نفسا من الشيشة المعسل ونفخته بتهكم «دماغ مختلفة! وأنت من إمتى بقيتي ناقدة فن. أنا مش شايفة في لوحاتهم إلا شوية استعراض سخيف لعضلات فنية. ما تحسيش إنك تقدري تفرقي واحد منهم عن التاني. زي أغاني الدومين دول، كل الأصوات زي بعضها وما تلاقيش في الفيديو كليب إلا شوية لحم أبيض وأسود وبني، عريان وبيترجرج».

تدخل حسام «أنا صحيح مش ناقد يا أستاذة نورا. لكن موافق دنيا إن فيه لوحات معقولة. البنت اللي راسمة وشوش الأطفال السمر بجد جميلة. ولاّ إنت رأيك إيه يا تامر؟ إنت الفنان اللي فينا».

رمقته نورا بنظرة نارية وهي تلتفت إلى تامر الذي رشف من كوب الشاي بالنعناع ببطء وتأمل «لا يا حسام فيه حاجات كتير ناقصة شغلهم. ما عندهمش خبرة حياتية. بيرسموا زي عيال المدارس لما يطلب منهم المدرس يرسموا عن نصر أكتوبر أو إنجازات مبارك. كوبري. جنينة. حاجات كده».

صمت حسام لوهلة تبادل أثناءها مع دنيا النظرات المتفقة على إنهاء الحديث. ظهرت سارة بعدها بلحظات وقد تهلل وجهها وأضاء بابتسامة عريضة. قبلتهم وسلمت على تامر الذي أعادت نورا التعريف به. ما إن اتخذت سارة مقعدا حتى سألتها دنيا عن نتيجة الاجتماع.

اتسعت ابتسامتها «الناشر وافق على الكتاب. واقترح عنوان «سحرة القرن الواحد والعشرين: حملة تدجين جماعية»، ولسه هافكّر».

علت ضحكات دنيا وحسام لكن نورا حذرتها «خللي بالك من الناشرين دول. حرامية ولاد كلب ولا يمكن هتعرفي بيوزع قد إيه».

«يا نورا دي دار محترمة وسمعتها كويسة. أنا مش عايزة دار نشر كتب جامعة. أنا عايزة الناس العادية تقراه».

ربتت دنيا يدها وقد أضفت الابتسامة على عينيها بريقا «مبروك ياحبيبتي. ده أحسن خبر سمعته من شهور».

وعلق حسام «أنا عندي قلق واحد بس. إن البحث ده مش هايخلص».

نظرت إليه سارة وقد توقعت إحدى نكاته «ليه يا راجل فال الله ولا فالك!».

«إحنا مش شفنا فضيحة أبو غريب. ما إنت لازم تدخليها في إطار الكتاب كأحد أشكال مطاردة السحرة. يعني الصعق بالكهربا والتعلق والاغتصاب، مش كل دي وسائل تعذيب كان الأوروبيون بيستخدموها في انتزاع اعترافات بممارسة السحر».

«الحمد لله إن أنا مركزة على سيكولوجية مجتمعنا».

«بجد أنا عندي سؤال محيرني. ليه إحنا اتمطعنا قوي واحتجينا رغم إن كل أشكال التعذيب دي موجودة في السجون في مجتمعاتنا!».

رفعت دنيا حاجبيها «بالشكل ده يا حسام؟».

«صدام من سنة واحدة وفي نفس المكان كان بيعمل كده. في مصر ومن وقت الثورة عندنا تعذيب. دلوقت تقارير حقوق الإنسان بتتكلم عن تعذيب في السجون وأقسام الشرطة وعن آلاف المعتقلين السياسيين اللي معاهم أحكام قضائية بالإفراج وتحت قانون الطوارئ مقعدينهم».

علقت سارة «الصور مفزعة يا حسام. وإلا حكاية نادية اللي تناوبوا على اغتصابها شهور وما قدرتش ترجع لأهلها فاشتغلت في البيوت. يعني موت وخراب ديار».

«إنتم بس مفزوعين علشان فيه صور اتنشرت ومجتمع دولي عرف وشكل أمريكا بقى زفت. لكن تفتكري إيه اللي هايحصل لو صور طلعت من سجوننا!».

ران عليهم صمت ثقيل ومرقت في أذهانهم صور متتالية لرجال متكوِّمين فوق بعضهم البعض وفوقهم حذاء المجندة ليندي إنجلاند. الملامح المنهكة لمنادل الجمادي الذي مات أثناء استجواب المخابرات الأمريكية له وهو معلق من معصميه وذراعاه خلف رأسه. قطع تدفق الصور قيام نورا وتامر اللذين بدا عليهما التململ أثناء الحوار. أعلنت نورا «لسه عندنا مشاوير». كان تامر قد همس إليها بحاجته إلى «سيجارة جامدة» فلم تتردد.

كان الملل ينتاب نورا في الفترة الأخيرة من جلسات المقاهي والمطاعم. تلك التجمعات لا تثير لديها إلا الاشتياق إلى جلسة خاصة حيث يصبح بإمكانها أن تمارس التدخين على راحتها. والآن ليس هناك من مكان إلا سيارتها. مشيا حتى مكان السيارة في أول شارع قصر النيل. وعندما خرجت من موقف انتظار السيارات إلى ميدان التحرير سارع تامر بإخراج سيجارة البانجو من علبته وأشعلها دون أن يهتم برفضها «استنى يا تامر لما نبعد عن وسط البلد!».

«مين ده اللي يتعرَّض لنا!».

انطلقت بالسيارة إلى كورنيش جاردن سيتي ثم إلى كوبري المنيب. تناوبا على سيجارتين كثفا من إحساس نورا بالخواء. كأنها في هذا العالم وحدها تماما وليس هناك من صوت بشر في المكان. كأن الفراغ يسكن صدرها كفجوة مستديرة واسعة يدخل منها الهواء، يلف ويدور ويستعجل الرحيل وعليها أن تبحث عن شيء... شخص ربما يملأ تلك الفجوة. تشعر بالوحدة الآن. وتنتابها رغبة جارفة بالتواجد مع رجل تحب. ولم يكن هذا الرجل هو تامر على عكس تكهنات حسام. كانت قد حددت موقفها منه باكرًا. هل كان السبب هو مرات الجنس التي لم تمر واحدة منها إلا وأكدت افتقادها لخالد ولذلك الإحساس الذي جمع بينهما قبل أن تتفجر

الخلافات أم هي شخصية تامر نفسها!

ران علىهما الصمت ثقيلا وهي تقود السيارة بهدوء فوق كوبري المنيب الذي اقتربت من نهايته، فقررت الالتفاف والعودة مرة أخرى لتأخذ الطريق من نهاياته وحتى المعادي مرة أخرى. كانت في صمتها تسب وتلعن في صمت خرس الرجال. صحيح أن تامر لم يكن يوما محل رغبتها كرجل، وعندما سألت نفسها لِمَ مارست معه الجنس أجابت بتهكم «احتياجات بيولوجية»، لكنها على الأقل توقعت صحبة تشبهها. لكنه لم يكن أكثر من طفل في الثانية والثلاثين لا يزال في انتظار مصروف من والديه وغرفة للمبيت. وعندما أبدت دهشتها من أسلوب حياته رد بلا مبالاة «الفن ما بيأكلش عيش». لذا قبع في منزل أهله إلى حين يأتيه حتى الباب مشروع ديكور لشقة أو فيلا فيقوم به، ولكنه ينفذ العمل بعد موعد التسليم بشهور. وفي تلك الفترة كان يعود للاعتماد على والديه. وعندما يأتيه ربح هذا العمل يصرفه في نفس اليوم بين البانجو وتسديد الديون لأصحابه. وكثيرا ما كان يستلف لفافة بانجو عندما تسنح الفرصة. قطعت نورا دوران دماغها العنيف لتسأل بنبرة فضحت شيئا من الزهق «تسمع إيه؟».

فتح درج السيارة وقلب في الأشرطة «أم كلثوم؟».

«أنا مش في المزاج ده خالص. بتسمع أغاني فرنساوي؟».

«اللي إنت عايزاه».

قذفت شريط «سيلين ديون» في الكاسيت:

لما الكون مايفرقش معايا

لما تزيد الرغبة جوايا

إني ماعملش أي حاجة

لما الحياة تنيِّمني كإني...

لم تمض الأغنية حتى منتصفها حتى شعرت نورا باندفاع الدماء من رحمها. في الشهور الأخيرة كانت دورتها الشهرية عنيفة ومتكررة. ورغم أنها لم تكن منتظمة في يوم ما، إلا أن تحول الأمر إلى مجرد عدة أيام بين دورة وأخرى كان غريبا. لكنها لم تعره انتباها. والآن تشعر بسخونة بين ساقيها لم تلبث أن انزلقت فوق فخذيها. أدارت اتجاه السيارة بعصبية وهي تعلن «أنا هاروّح يا تامر. عايز أرجعك مصر الجديدة؟».

طلب منها توصيله إلى المترو فلم تعارض. كان الصمت ضيفا علىهما حتى ميدان التحرير. خرج من السيارة وهو يسألها «ها أشوفك إمتى؟».

فضحت ابتسامتها شيئا من السخرية وهي ترد «حسب التساهيل. وحسب ما شقة صاحبك تبقى فاضية. بس أنا الحقيقة قرفت من المقابلات في شقة واحد ماعرفوش».

لما الحياة تنيِّمني كإني متخدرة

أنا اخترعت الوصفة

اللي هي أحسن من أحسن دوا

عندما أغلق باب السيارة وراءه زفرت بارتياح. اعتصرت صدرها رغبة في البكاء لم تستجب لها.

حتى لو كانت بتخليني

زي الماشيين نايمين

والوصفة الوصفة الوصفة

اكتب عندك:

أنا بارقص بارقص بارقص

أنا بارقص جوايا

تدافع الدم من جسدها في دفقات قوية خمنت أنها قد أغرقت مقعد السيارة. في طريق العودة إلى المعادي ضغطت بقوة على البنزين بعد أن أغلقت الموسيقى.

على كورنيش المعادي ضرب جرس الموبايل برقم البيت. كادت ألا ترد لكنها فتحت الخط فجاءها صوت أبيها بنبرته العسكرية التي لم تخف الغضب «إنت فين يا نورا؟».

عكس صوتها توترها وبعض الحنق «في الدنيا يا بابا. فيه حاجة؟».

«إنت عارفة الساعة كام دلوقت!».

«أنا خلاص على الكورنيش».

بدا العالم لها في تلك اللحظة حالك السواد. تفاصيل البشر والشوارع مجرد تهويمات بلا ملامح في لوحة تشكيلية لفنان فاشل. الخطوط متداخلة بلا منطق ومتشحة بالأسود والرمادي الكابي. لو حاولت أن تدقق النظر علّك تتبين أي معنى لتلك الخطوط ستفشل حتما. قذفت بالموبايل إلى حقيبتها وهي تزفر كأن الهواء المطرود من صدرها سيخفف من ضغط الدموع المتأهبة للحضور. جاءتها كلمات سارة في لقائهما الأخير «لازم تعملي الحاجات اللي بتحبيها يا نورا».

ضحكت متهكمة وعلا صوتها بين جدران السيارة الحديدية التي بدت كأنها تردد صدى الصوت «الحاجات اللي بأحبها! ما عادش فيه حاجة بتسعدني. لا شغل ولا رسم ولا حتى رجالة. كلهم واكلين فراخ بيضا. الواحد منهم لو كويس في السرير يبقى دماغه جايبة جاز ولو دماغه كويسة يبقى محتاج يروح مركز تأهيل للذكورة».

تعود كلمات سارة بعناد «دي مصيبة يا نورا لو ما فيش حاجة بتسعدك. يا بنتي ده اسمه اكتئاب!».

«أنا! اكتئاب ! لأ طبعا. الحياة هي اللي زفت».

سكتت سارة بعد ذلك الحوار الذي دار بينهما منذ أيام. وصمتت نورا كذلك. توقفت الكلمات في اللحظة الأخيرة فوق شفتيها. لم تشأ أن تصرح لسارة وقتها أنها لا تشعر بألمها لأن حياتها مرتبة. لديها أب رائع وجدة حاضرة معها دوما رغم المسافة. ولديها مكانها الخاص ليس فقط في القاهرة ولكن في إنجلترا أيضا. وغير هذا وذاك فالماديات مستقرة لأنها تترجم بالإضافة إلى التدريس. ابتسمت بتهكم وهي تفكر أن العمل لدى سارة هو الأولوية بلا منازع وكل الأشياء، كل الأشياء، حتى العلاقات الإنسانية تليه. تعرف نورا أنها لو طلبت من سارة مساندة فربما ستمنحها ولكن بعد أن تتأكد أن أبحاثها وأوراق الطلبة وترجمات الكتب تسير كما الساعة الإنجليزية العتيقة التي لم تخذل صاحبها مرة واحدة. لم ترغب أن تواجهها بأن ذلك ليس إلا شكلا براجماتيا جافا للحياة.

أتأملك يا نورا. أراك تضجين من الحياة ومن عدم مشاركة القريبين منك لألمك. تدمنين تصديق تلك الفكرة لأنها تقف بينك وبين

الفعل. وليس هذا إلا الاختيار الأسهل طالما أنت في حالة ركض وظهرك للمعبد. تعودين إلى أعشابك المخدرة وتعلنين لأصحابك «هي دي المتعة الوحيدة بالنسبة لي». أشاهدك تسحبين سيجارة وراء أخرى وأتألم منك ولك. كنت أفرح في تلك اللحظات القليلة عندما تشعرين بالغضب من نفسك لأنك قد فقدت اتزانك. وأظنك تسيرين في اتجاه الشرق نحو البوابات. لكن سرعان ما تتبخر تلك اللحظات وأنت تربتين على نورا مذكرة إياها بضغوط العمل والأهل وعجز الرجال.

ولأن «سخمت» تتجول داخلك في الظلام بلا منافس، من السهل على شبح الوحدة أن يتمكن منك. لكن تلك هي معركتك يا نورا. لم أكن لأختار أبدا أن أرفع سيفي وأحارب مكان أحدكم. ربما عندما أراه قد أعد العدة وحشد الحشود أسانده بكل طاقتي. حتى ذلك الحين سأقف متبسة في عجزي. ولا تصبح لدي إلا حيلة أخيرة. كنت أنا التي أفقدتك الوعي في كل مرة أسرفت في الشراب. ألم يسموننني «راعية السكر» بعد تلك الحادثة التي تلبستني «سخمت» فشربت أطنانا من الجعة الحمراء حتى هممت بالقضاء على البشر الجاحدين. سكرت كما تعرفين وعاش البشر. أعطوني تلك التسمية لأنني تعلمت الدرس وقتها. ألا أفرط في الحنق أو في الشراب.

أفقت من شرودي على صوت ارتطام عنيف وجسد نورا ينسحق في مقود السيارة بينما تتعالى صرخات سائق السيارة المرسيدس «حد يدخل على ميدان بالسرعة دي. إنت عايزة تموتي!».

يبدو أن الغيمة السوداء التي ابتلعت نورا قد أغشت عينيّ أيضا وأصابتني بما يشبه الغياب.

ظلت في مكانها دقائق بلا حراك حتى ترك الرجل سيارته واقترب منها بقلق وقد هدأت نبرته عندما رأى أن سيارته لم تخدش «حضرتك كويسة؟».

هزت رأسها في محاولة لطمأنته فأنّت ضلوعها. لكن الألم لم يلهها عن ملاحظة وسامته بذلك الشعر الذي اخترقته خيوط فضية والذقن الصغيرة التي رأتها دوما مغوية في الرجال وعطر «هوجو» المألوف. لو كانت الظروف أفضل....

«تحبي أمشي وراك لحد بيتك. إنت من سكان المعادي مش كده؟».

هزت رأسها نفيا وأدارت السيارة في اتجاه المنزل. ركنت السيارة بصعوبة وعندما نزلت منها لم تستطع فرد ظهرها من عنف الألم. لمحت الرفرف الأيسر وقد فقد معالمه وتهشمت اللمبات الجانبية والأمامية لهذا الجانب. محنية صعدت الدرج ببطء وهي تستند إلى الحائط. بدت لها سلالم الطوابق الثلاثة رحلة ممتدة من العذاب. ما إن دخلت إلى البيت حتى أجبرت ظهرها على الاستقامة لثوان معدودة ألقت فيها السلام على تهاني التي وقفت في وضع الاستعداد في منتصف غرفة المعيشة عند سماعها صوت المفتاح. أسرعت إلى غرفتها دون انتظار الرد. ارتمت على سريرها بعد أن عجزت عن خلع ملابسها. لم تنم.

(٤)

أقام الأغنياء مآدب عامرة لكل عابر

ارتفعت أصوات الضحكات في الميادين والحارات

والمصريون يتناولون الجعة والنبيذ الأحمر.

أما العذراوات الجميلات فقد خرجن إلى الشوارع في أجمل أرديتهن

يتبعن كاهنات المعبد اللاتي ارتدين أكاليل اللوتس البيضاء

وتمايلت أجسادهن اللينة

على دقات الطبول وشخشخات المينات.

الجميع يحتفي بعودة "النائية" من قلب القارة السوداء.

والطمث يندفع من رحم "حتحور"

فيغرق الأرض بطمي أحمر ساخن.

وغنت الكاهنات:

"أرقص فتبحر الشمس بهدوء في مركب الليل

أرقص فترسم قدماى غدي

أرقص.. ترتحل نجمات في السماوات البعيدة

وتمرق "الربة الذهبية" في الصحاري

أرقص.. فيتحول التراب إلى فضة

وتصبح الأحجار... ذهبا".(٣)

أفاقت دنيا من نومها والحلم لا يزال يصحبها فيصدح في أذنيها صوت فيروز «ستي يا ستي... اشتقت لك يا ستي».

كانت مع نسمة أختها ونساء أخريات لا تعرفهن لكنها في الحلم تعلم أنهن قريبات لهما في غرفة مطلية بالبنفسجي والأبيض. مسدت دنيا بخفة شعر نسمة الذي بدا أطول مما هو عليه في الحقيقة وبلا حجاب. التففن جميعهن حول جدتها هنية وهي تغني بينما تمشط شعرها الطويل الفضي ثم تجدله في ضفيرة وصلت حتى آخر ظهرها. كانت دنيا ونسمة تغنيان معها. وتعالت الضحكات.

ولم تلبث العجوز أن استدارت لحفيدتيها «انتم قاعدين في البيت بتعملوا إيه! تعالى يا بت إنت وهيّ خدوا اشتروا لنفسكم حاجة حلوة».

اقتربت دنيا ونسمة وأخذت كل منهما الأربعين جنيها وخرجتا من الغرفة البنفسجية لتجدا نفسيهما في براح صحراوي. تنفست دنيا بسعادة لدى رؤيتها النخلات السامقات وقد تدلى البلح الأحمر منها في سباطات مكتظة. اتجهتا بعدها إلى بيت من طوابق أربعة. شعرت دنيا برغبة في استكشافه. صحت أثناء صعودها درج البيت.

فتحت عينيها فشعرت بحالة البهجة لا تزال في هواء الغرفة. بدأت تهمهم:

ستي يا ستي

اشتقت لك ياستي

علّي صوتك

صوتك بعيد

جاي م الكرم

جاي م التفاح

يصاحبها البراح والنخيل وفم جدتها المنفرج عن بضع أسنان وابتسامة. ظلت تتقلب في السرير نصف مرحبة بالصحو التام. خطت نسمة إلى الغرفة مبتسمة وهي تربط إيشاربها الأزرق خلف رقبتها فوصلتها أطراف الأغنية. اقتربت من سرير دنيا «كل سنة وإنت طيبة حبيبتي».

ضحكت دنيا وجلست على السرير «تعالى يا نسمة أحكي لك حلم حلو قوي».

كانت دنيا في اليومين اللذين سبقا عيد ميلادها قد اعتكفت في المنزل بعد الانتهاء من المدرسة تتأمل ما مر علىها في الفترة الأخيرة. فيروز تصاحب خلوتها والأغنيات ثم الشرائط تتوالى على الكاسيت الصغير:

باذكر الليالى الطويلة

وأنا طفلة بالزمان

وقصص الشتا يحكي لي

صوتك اللي كله أمان

تمر سميحة من أمام غرفتها فلا تخفي الدهشة «إنت سخنة ولاّ حاجة يا بنتي. مافيش مظاهرات ولاّ صرمحة!».

فترد مداعبة «ما أنا عارفة لا كده ولا كده عاجب يا سمسم».

تعطيها سميحة ظهرها مبتسمة وتتجه إلى المطبخ. تعود دنيا إلى خلوتها. في شرودها تتأمل تتالي الأحداث. تدرك دنيا، كأنما عن بعد، قدر التغيير الذي طرأ علىها في الشهور الأخيرة. المرارة التي خلفتها قصة أحمد أخذت في الانحسار مفسحة براحا لأشياء طالما أحبتها.

صوتك بعيد

جاي م الكرم... جاي م التفاح

ترفع عينيها فترى جدران غرفتها التي غطتها الصور التي التقطتها في كنج مريوط وفي سيوة والفيوم.

كل يوم يضاعف امتنانها لتلك الصور التي أعادت إلىها إحساسها بالبيت الذي طالما ارتبط في ذهنها بأمها والنواح المستمر. كانوا يوحشونها عندما تمكث في الخارج طويلا. وعندما تعود تجري علىها عيناها بلهفة.

قبل النوم تخرج صورا أخرى من درج مكتبها وتفرشها فوق السرير. تتأمل ملامح ذلك الوجه البدوي الأسمر. يبدو كخارطة جديدة لعالم تعرف فقط أجزاء منه، هل يعرف صاحب الوجه كل الأجزاء! تلعب لعبتها المفضلة؛ إذ تتخيل تاريخ الوجه وتتكهن بما هو في الطريق إلىه. (ستكبر هذه الصغيرة وتصبح أما لثلاثة أبناء، لا بل خمسة، ولن يتحمل رجلها قدر العناد الذي تفضحه عيناها. سيتزوج بامرأة أخرى كي يكسر جبروتها. وهذا العجوز بعد عام أو شهر من الآن سيرحل. كيف ستكون ساعة الرحيل!). تترك تكهناتها وترتحل مع نخلة من سيوة تميل فوق وجه بحيرة صغيرة كحبيبة تمر بجسدها فوق حبيبها تتلمس بجلدها خشونة تفاصيله

قبل بدايات العناق. تأخذها تفاصيل تلك النخلة وهي تمر على التعاريج بأناملها. هذه انحناءة مغوية لجسد أنثوي في كامل نضوجه. تدويرة سباطات البلح الممتلئة لا تشبه بعضها إلا قليلا. ولعبة النور والظلال، كم تتغير في كل مرة تتأمل فيها الصورة، كأنما الصورة ليست إلا مرآة لحالتها هي.

وفي تلك الأوقات كانت تلتقي بمفاجآت متكررة. عيون البشر تحديدا كانت في كل مرة تبدأ معها حديثا مختلفا. فوراء طبقات الحزن التي تفضحها عينا امرأة من نزلة السمان تلمح شيئا كبريق تحد. وفي ابتسامة طفلة للكاميرا تستطيع قراءة ألما متربصا وتتساءل هل سيكسرها؟ وفي هذه الحالة ربما تجيئها فكرة مشروع للتصوير. رفعت إلى نسمة على السرير المجاور عينين شاردتين «نفسي أصور شجرة جميز واحدة صور كتير، في أوقات مختلفة من اليوم، في طقس مختلف، حر.. برد.. مطر، وأشوف هتديني كام وش».

لم يكن يفسد سعادتي بدنيا إلا نورا التي آلمني حالها في الفترة الأخيرة وبدأ شيء كاليأس يتسرب إليّ كسم بطيء كلما رأيت «سخمت» تتلبسها فأتقلص داخلها وأنكمش وأقف صامتة وقد أخرجت لي «سيدة الأحمر» لسانها ساخرة. لكن يبدو أن سارة قد استشعرت ما يمر بي في تلك اللحظة. كأنها أرادت أن تبعث لي برسالة تخبرني «لن نخذلك فابعدي عنك أشباح الحزن أيتها البهية وتعالي إلى أبنائك يقيمون لك طقسا فريدا من فراشات هائمة. ربما ليس بفخامة عيد «أوبت» لكنه احتفال صغير على مقاسنا».

ابتسمت وقلت «يا ابنتي الطقس ليس أبهة وفخامة. الطقس هو رائحة القلب وقد ضوّع في المكان ببخور المر ولونه وقد اصطبغ بحمرة الورود البلدية وهيئته، أصغر من قبضة يد ومضموم على نفسه، لكن بداخله كل الأرض وأجرام السماء».

رتبت سارة طقوس اليوم بعناية. دعت أصدقاءهم المشتركين وتركت لدنيا دعوة أصدقائها الذين لا تعرفهم. رتبت البيت وفتحت النوافذ على هواء القاهرة الليلي، لا يزال يحمل رطوبة نهايات الشتاء. رشت نباتاتها وعطرت المنزل بأعواد بخور المر لاستقبال عام جديد «وإنت أجمل وأطيب وأفهم وأرحب وحاجات تانية كتيييير قوي. قد الدنيا بحالها» كما أخبرت دنيا صباحا على التليفون. انضم حسام ونورا إلى سارة منذ منتصف اليوم. نفخت نورا بالونات ملونة وعلقتها في أرجاء حجرة المعيشة وفوق باب الشقة. ونفخت عددا آخر وتركتها متناثرة في الأركان التي تألقت بزخم الأحمر والأصفر والأزرق والبنفسجي. ارتدى حسام شورتا وتي شيرتًا أكدا نحافة جسده الطويل. دخل المطبخ لسارة وقد أمسك بالمقشة وفوطة التلميع وهو يدور متراقصا «ع اللي جرى من مراسيلك.. ع اللي جرى». سألها من بين كلمات الأغنية التي دارت في أركان البيت «خدامتك آمنة يا أبلتي. أعمل حاجة غير تلميع البيت؟».

ضحكت سارة على منظره ورفعت إليه الجردل «مش هتاخد لنا البيت وش ترويق».

«اللي تقولي عليه يا دكتورة. ده أنا اتبهدلت قوي يا جدعان».

«بتقول إيه يا حسام. مش سامعة!».

«ولا حاجة يا حبيبتي. بأقول ربنا يخليك ليّ ولا يحرمنيش منك يا بركة».

«آه افتكرت...».

أخرجت نورا مكونات السلاطة الخضراء وسلاطة البطاطس وانهمكت سارة في غسل الأرز عندما عاد إليهما صوت حسام من غرفة المعيشة «إنتوا عارفين، كويس قوي البت دنيا دي اختارت عيد ميلادها في توقيت مظبوط مع صفر المونديال علشان ميطقِّليش عرق».

رفعت سارة من صوتها ليصله «تتصور يا حسام إن أنا اللي مالش في الكورة كنت هافرقع من الغيظ وأنا باشوف إعلانات المونديال اللي فلقوا دماغنا بيها. الناس دي هبلة ولاّ بتستهبل. هما فعلا كانوا مصدقين إن مصر كانت هتاخد تنظيمه؟».

أطل برأسه من باب المطبخ «لأ طبعا يا بنتي ياخدوه إزاي وإحنا ماعندناش أي بنية تحتية! دول كانوا مقدمين الملف للفيفا مليان

كدب كإنهم بيضحكوا على عيال صغيرَّة. عالم الكورة صورة للفساد الموجود. إنت متخيلة إن الموظف اللي عملوه كبش فدا وأقالوه بعد الفضيحة بيتكلم عادي جدا إن أعضاء الفيفا كانوا عايزين رشوة ٥ملايين دولار لكل صوت. وبدأ يتكلم مع الوزير في تدبير المبلغ كإنهم هيعملوا جمعية زي اللي أمي بتعملها. تتحط الفلوس تحت أي بند. لأ ماعندناش فلوس. طب هاتوا رجال أعمال يدفعوا. وطبعا مين رجل أعمال أهبل هيدفع للحكومة. الوزير حدد رقم ٦٧مليون دولار، مليون ينطح مليون، الفيفا طلبتها منه. وبعدين الفيفا الوحشين ضحكوا علىهم ومادلهمش ولا حتى صوت واحد. بس يا سارة والنبي بلاش كلام في الموضوع ده. خلينا في ع اللي جرى».

وعاد حسام يدور بالممسحة متراقصا وصوته يعلو فوق صوت الأغنية «متغربين يا إحنا.. متغربين. تجري السنين وإحنا جرح السنين». وبدأت سارة في قلي الفراخ.

لكن نورا استكملت «دي بلد معفنة. وعايزنّي أفرح وأشوف الدنيا وردي. هي مش ملايين الدعاية اللي كلوا دماغنا بيها وماحدش سمع عنها بره المحروسة من فلوسنا إحنا. وكله كوم والتي شيرتات اللي بأربعة ملايين جنيه للدعاية الداخلية كوم تاني. وقال إيه إدي صوتك لمصر! عايزين نجمع عشرين مليون صوت! الهرم الرابع! يا أخي جاتهم خيبة».

عاد حسام إلى الموضوع الذي كان من ثوان قد قرر إغلاق الحديث فيه «لأ ولاّ الوزير اللي كان صرح إنه ضمن ٨ أصوات من اتحاد الكرة العالمي دلوقت بيصرح إنه يا عين أمه اتضحك علىه وإن المغرب اللي صرف أكثر من مصر ما كسبش برضه وإن «الملف المصري كان ممتازا بشهادة الجميع».

قاطعته نورا «والجهاز المركزي للمحاسبات قال إن الوزير اللي ادعى إن مصر ما اتكلفتش أكثر من ثلاثة ملايين جنيه وشوية فكة في الملف والدعاية، كداب وإن الهيصة دي هبشت خمسين مليون من دمنا».

وعاد صوت حسام «الغريبة إن صفر الهباب المونديال جالنا يوم ١٥مايو. نكبة برضه».

ردت نورا «طب ما تقولش كده قدام دنيا... إيش جاب لجاب!».

أخرجت سارة رأسها من باب المطبخ تتابعه «امسح بذمة يا حسام. انت مش شايف الحتة الملطشة على الأرض».

«تيجي فاطمة تشوف بنات مصر عملوا إيه في ابنها الحيلة!».

ضحكت سارة «ما انت برضه الحيلة بتاعنا يا حسام. على فكرة دي تسمية عمرو مش أنا».

«إذا كان كده أي خدمة. تحبي أمسح مدخل العمارة بسلالم الأدوار التلاتين!».

دق جرس الباب في التاسعة ودخلت دنيا وقد ارتدت فستانا ورديا ضيقا فوق الركبة وأبرزت فتحة الصدر سمرة ثدييها المكتنزين. وقف حسام فاغرًا فاه في إحدى حركاته التمثيلية:

النهد زي الفهد نط اندلع

قلبي انهبش بين الضلوع وانخلع

ياللي نهيت البنت عن فعلها

قول للطبيعة كمان تبطل دلع

عجبي!!

ضحكت دنيا وهي تقبله «بلاش قلة أدب يا واد».

«وهي دي برضه قلة أدب. ده سيدك وتاج راسك جاهين. وبعدين هو إنت لاقية حد يعبر أهلك. اقبلي الصدقة بقى!».

ضحكت نورا «طبعا شكلك زي القمر يا دنيا. وبعدين دول ربنا خلقهم علشان يدلعونا».

قاطعها حسام «حوش حوش البت مقطعة الدنيا ومشغلة وراها صف رجالة!».

لكزته دنيا «إحنا مش هنعاير بعض. أيوه عندنا شوية قشف عاطفي. جلدنا اتشقق وقرب يقع من قلة الحنيَّة. بس برضه الواحدة مننا حيلتها إيه غير الأمل!».

«ما تيجي أحبك يا بت يا دنيا بدل قعدتك معنِّسة كده».

ضحكت «آه وآهي حاجة على ما تفرج».

ترك الممسحة من يده ورفع إصبعه محذرا «لا لا لا وألف لا. أنا برضه حاجة على ماتفرج. إنت تطولي».

قطع ضحكاتهم رنين جرس الباب الذي أتى بدفعات متتالية من الأصدقاء. جرى حسام إلى غرفة سارة وقد سحب الممسحة وراءه «يا فضيحتك يا حسام».

دخل أصحاب دنيا من المدرسة، وتبعهم بعد دقائق تامر وقد حمل حقيبة بها بيرة مثلجة أدخلها المطبخ وعاد إلى غرفة المعيشة و في يده طبق وتربع أرضا بجانب نورا. أخرج البانجو من لفافة ورقية وبدأ تنظيفه بينما أمدته نورا بورق البفرة والدخان. رمقته سارة بنظرة نارية. لم تكن تتصور أن يصل به وبنورا الاستهتار إلى هذا الحد
و وسط غرباء يرونهما للمرة الأولى. تعرف أنها لو حدثت نورا في الأمر سترد بلا مبالاة «طظ في الناس». قطع خيط أفكارها دخول عمرو. جرت إليه سارة وأخذته في حضن طويل جعل حسام يطلق صفيره. تضرَّج وجه عمرو بالحمرة وسلم على الباقين وأعطى دنيا هديتها. كما أخرج حسام الهدية التي اشترك في شرائها مع سارة ونورا. فتحت دنيا الورق المفضض فأشرق وجهها بابتسامة خجلة «كاميرا ديجيتال. ده كتير...!».

قبلتها نورا واحتضنتها سارة وهي تؤكد «مش كتير على...».

لكن حسام قاطعها «من ناحية كتير فهو كتير طبعا. على الله يتمر. بس لما نشوف ها تهبب، قصدي ها تصور إيه».

دقائق وتوهج المكان بالضحكات وألوان البهجة المتدلية من البالونات الكبيرة. وجلس حسام أمام الكمبيوتر يرتب الأغاني:

سلم لي علىه... قول له إني بسلم علىه

بوّس لي عنيه... قول له إني ببوس عنيه

سحبت نورا أول أنفاس سيجارتها بسعادة وهي تتأمل دنيا «حاسة بإيه النهارده؟».

سرحت عينا دنيا بعيدا فعكستا غيمة حزن تمر متباطئة «مش عارفة. إحساس غريب. يمكن كنت خايفة النوم ده شوية. احتمال قلق جوايا من فكرة الزمن».

أشرقت ابتسامتها فتوارت غيمات الأسى الخفيفة «لكن كمان حاسة إني محظوظة قوي بيكم وبناس تانيين في حياتي. أنا دايما أقول

إن عيلتي الحقيقية هي أصحابي. أنا اكتشفت أخيرًا إني مش بارتبط بأماكن لكن بناس».

ضحكات عيونه شيء ما بينتسي

تأملها حسام وقد شعر كأنها ابنته. كأنها قطعة من قلبه تعيش خارجه. كان فرحا لرؤيتها سعيدة. وتذكر قلقه عليها يوم حدثها فسمع بكاءها يوم عرفت بزواج أحمد. انتابته حالة تشبه الاضطراب. وكعادته عندما يتدخل بتعلقاته كي يداري شيئا يشبه الارتباك «بت يادنيا إنت قلَّبت الموضوع دراما كده ليه! بصُّوا أنا بانتهز المناسبة دي علشان أعترف لكم إنكم سبب نحسي. أيوه ماتبصوليش كده. مش عارف أحب أي واحدة بسببكم. كل ماقابل واحدة تصلح للحب أكلمها كلمتين يطلع مخها واكله السوس. بوَّظتم ذوقي في الستات يا غجر».

دق جرس تليفون البيت فردت سارة. وعلا صوتها مناديا دنيا «كلمّي صوفي».

أخذت دنيا التليفون فجاءها الصوت المألوف دافئا «كان نفسي أكون معاكم النهارده. كل سنة وإنت أجمل يا دنيا. بس هانعوَّضها في إجازتي وتاخدوني في فلوكة برضه بس من غير جنازات».

أغلقت دنيا الخط وهي تلتفت لسارة بلمعة في عينيها «إيه الست الجميلة دي. معقول فاكرة عيد ميلادي!».

كان حسام قد اتجه إلى الكمبيوتر ليرفع من صوت الموسيقى،

وسط الدايرة... يا أجمل نايرة

وارتفع صوته فوق صوت الأغنية «ياللا إنت وهيّ. إحنا ها نقضي الليلة كلها كلام. قوموا ارقصوا».

ثم مد يده إلى نورا «سيبي الملوخية الخضرا بتاعتك دي وقومي».

كأن الجميع كان في انتظار تلك الدعوة. جذبت دنيا نادية من يدها فقامت ضاحكة «تيجي أمي تشوف بنتها». وقام تامر خلف نورا واقتربت سارة من عمرو. شدَّته من يده وهي تضحك «تعرف إن عمرنا ما رقصنا مع بعض!».

هز رأسه موافقا وعيناه تلمعان بتلك النظرة المشاغبة «فيه حاجات كتير فايتانا».

شعرت دنيا بجسدها خفيفا وهو يدور على إيقاع الدفوف النوبية. تمايل ودار في دوائر صغيرة وابتعد عن حسام وعاد ليقترب. ذكرها هذا الإحساس بجسدها بأيام «كنج مريوط». كأنه جسد امرأة أخرى يعرف شكل الإيقاع منذ أزمان بعيدة. وكان حسام يرقص مع امرأة هيئ له أنه يراها للمرة الأولى. يلمح بدهشة خفيفة هذا القدر من الأنوثة التي تسيل من بشرتها اللدنة الناعمة والتي كشفتها بخجل فتحة الفستان المستديرة. يتصور إحساسه وشفتيه تمران برهافة فوق رقبتها السمراء المشدودة لتهبط...

خللي قلوبنا تطير

هز رأسه بعنف ليفيق.

أما أنا فقد ضحكت بسعادة وأنا ألف وأدور بينهم. أدفع حسام نحو نورا يراقصها لحظات وأشاهد عمرو يبتسم لسارة وهو يراقص دنيا. كانوا كفراشات سارة فوق التل أو مثل عصافير دنيا خارج الأقفاص. وكنت أنا نقطة النون في المنتصف تماما. تلك النقطة التي تحرك ولا تري. في سكونها تدور الموسيقى حولها في دوائر. في حضورها تندلع حمى الرقص في عروقهم بكامل عنفوانها. اندمجوا معا في كتلة واحدة. وتشكلت دائرة على النغمة النوبية:

وسط الدايرة يا أجمل نايرة

خللي قلوبنا تطير.. خللي قلوبنا تطير

وارحلي بينا.. فراشة حنينة.. بين زينات وعبير

لما الخصلة تدور طربانة.. طربانة

نبقى حرير في حرير

رقصتُ كثيرا دون أن أنسى أن عليّ ألا أعب الكثير من الجعة الحمراء فأغفل عيني عن نورا كي أخبطها على الرأس في اللحظة المناسبة. تأملتها. رأيتها ترقص كأنها تدفع أشباحها بعيدا. تنهدت بأسى.

لا بأس يا ابنتي فالرقص شفاء أيا كان الهدف. لكن يتعبني التفكير كيف أداويك من انتظار الحياة. الحياة هنا. الآن. علىك فقط أن تصدقي. أن ترضي. سارة ودنيا قد وصلتا إلى التصديق ومرقتا بعده إلى العتمة. وحسام أمامه خطوة واحدة ليس أكثر ويدخلها طواعية لأن الحيلة القادمة لـ«سيدة الحيل العديدة» جاهزة. أما أنت يا نورا.....

فرّحي خلق الله واتّني.. واتّني يا شبه القمرة

ارقصي رشي عبيرك فينا.. فينا.. وفتحي يا سمرة

تلك كانت ليلة حتحورية بامتياز، وقد تجلى فيها المبدأ الأول للخليقة. معجزة «أتوم» الكبرى. الحب. ذلك الصمغ الإلهي الذي يجذب كل منكم للآخر بعد أن يكون قد جذب أجزاءكم المفتتة إلى بعضها البعض فتنصهر ويتوحد كل منكم مع ذاته. يعود كيانا واحدا وإنسانا بكل تعقيدات ماضيه والحاضر والأجزاء التي لا تزال خفية لم تخرج بعد إلى نور الإله. تمتزج تلك الأجزاء ببطء كأنها كتلة شمع بيضاء ناعمة كلما صهرتها حرارة فتيلها اقتربت جزيئاتها إلى بعضها البعض.

رقصوا ورقصت معهم ساعات الليل. كنت أجري في دمائهم أحثهم. ارقصوا. ارقصوا كثيرا. وأنا «سيدة النشوة» و«مولاة الأغاني والرقص على الطبول و«السسترام»(٤) سأرقص معكم، حولكم، فيكم. انثناءات أجسادكم هي تموجات الكون. هي عصافير دنيا وقد أفلتت من كل الأقفاص. هي فراشات سارة، بنفسجية وزرقاء، في فالساتها مع الهواء وقد تخللتها قبلات مختلسة لزهور برية وهي مداعبات الرياح لأفرع الأشجار ودوراته فوق سطح البحيرات. هي دوائر يمامات «أفروديت» البيضاء في سماء زرقاء بلون أرواحكم. أرقصوا فالرقص طاقة ذهبية وشعلة نار صغيرة حول صمغ إلهي يصهركم معا ويعلو بكم إلى روح الخفي النابض فيكم.

تبدَّلت الأغنيات وهدأت الموسيقى. عاد عمرو إلى سارة التي ابتسمت وهي تحضنه:

أنا باعشق البحر.. زيك يا حبيبي حنون..

وساعات زيك مجنون..

ومهاجر ومسافر

وساعات زيك حيران

وساعات زيك زعلان

وساعات مليان بالصبر..

ده أنا باعشق البحر

ضمها إلى صدره مع ذكرى أغنيتهما الأولى. تلك التي قالت مرة إنها تحبها. وعندما تسلل صوت نجاة متلاعبا بينهما في السيارة عرف أنه يحب تلك «الغجرية» ذات الشعر البني المتموج والعينين العسليتين بلمحة أصفر تضوي في نور الشمس كعينيّ قطة. تآمر صوت نجاة مع عطر الليمون الذي لم يذهب عنها فعاد إلى تلك المنطقة داخله التي تملك مفاتيحها امرأة واحدة فقط. هل سامحها على هجرها له وبتلك الطريقة المفاجئة! هل شعرت بطعنات الألم الموجعة التي حاصرته في أيام تخلو منها، أيام تذكره ساعاتها بوجود رجل آخر. وهل ملأت النساء الكثيرات مكان تلك الغزالة البرية الشاردة. هل أحبها لأن من الصعب امتلاكها! وهل عجز تماما عن عشق امرأة أخرى بهذا الشكل! أغمض عينيه وهو يشعر بدقات قلبها قريبة منه كأنها تمرر إليه رسائل سرية عليه أن يفك شفرتها كي يفهم. رفعت إليه عينين دافئتين وجاء صوتها ناعما «إنت عارف إني لسه باحبك».

ابتسم «عارف».

«بس مش زي الحب الأولاني اللي كان بينّا».

«عارف».

«حاسّاك حتة من قلبي. أجمل حتة. مش عارفة أزعل إن شكل الحب اللي كان بينّا مش موجود دلوقت ولاّ أفرح بشكل حب تاني ها يفضل موجود مهما حصل. ممكن يكبر بس عمره ما هيقل!».

ضمها إليه ماسحا رأسها. ولم يعرف هل انقبض صدره بتلك الرغبة في البكاء بوازع من عشق أم أسى.

أما حسام فقد رقص مع دنيا وهو يحاول جاهدا أن يحافظ على المسافة التي تفصلهما، ألا يغرق في عطر جلدها الذي أحاط به كهالة ناعمة وارتفع به فوق الأرض قليلا. شعر أن باستطاعته أن يصل إلى تلك الرائحة المختفية تحت طبقة البارفان الخفيفة. واستغرب رعشة سرت في جسده وأفقدته التوازن لوهلة قصيرة.

أنا باعشق السما..

علشان زيك مسامحة

مزروعة نجوم وفرحة..

وحبيبة وغريبة

وعشان زيك بعيدة

ازداد توتره وصوت من داخله يجذبه من أذنيه محذرا إياه «ستفقد صديقة فترَّوى». هز رأسه بخفة كي يفيق. وعندما لاحظ أن دنيا لم تلتقط تلك الذبذبات عاد إليه بعض الهدوء. كانت دنيا غارقة في إحساس غريب عليها. هل يشبه الوطن ربما...! هذا الدفء وسط بشر تنتمي إليهم وتعرف بشكل كأنه يقين أن الأمان معهم لن يذهب مثلما ذهب مع رحيل أبيها. لا تتذكر أنها قد ذاقت طعما لشعور كهذا من قبل!

رقصت نورا مع تامر الذي كان قد غرق تماما في غموضها. كان احتضانه لها يملؤه بفيض من سحر لم يعرف له طعما إلا مع القليل من النساء. إحساسها بالاستعلاء عليه يعذبه بقدر ما يزيد من قوة جذبها إياه. ولم يكن قد تغلب على جرحه منها عندما نطقت اسم «خالد» وهي في حضنه منذ أيام. لم يعلق. يعرف أن في الأشياء التي تتعلق بكرامته لن ينطق حرفا. أما هي فقد كانت تدور في فراغ شاسع سرعان ما احتلته لحظة قرب من خالد ذات ليلة حين ارتفعت منهما شهقة عنيفة صاحبتها دفقات مائه الساخن داخلها. «كيف فهمت جسدي إلى هذا الحد يا خالد وعجزت عن امتلاك أية لغة تخاطب بها عقلي؟ وأين ذهبت تلك اللغة التي تبادلناها؟ هل تذكر أحاديثنا الليلية الطويلة؟ متى انقطع خيط الكلام بيننا ؟».

فوجئ تامر بها تقطع الإيقاع وتجذبه للجلوس وهي تهمس «ما تعمل لنا سيجارة تانية».

كان الفجر على وشك أن يشق طريقا من رحم العتمة وتطل الشمس برأسها من عتمة رحم «نوت» عندما أخذ كل منهم بالونة وحاول أن يفكر «في كل حاجة عايزين نخلص منها» كما قالت سارة. وضعت دنيا صورة أحمد وهي تبتسم. وودت نورا لو وضعت العالم كله في بالونتها فابتسمتُ. وكانت سارة، للمرة الأولى منذ زمن بعيد، تفكر جاهدة فيما يمكن وضعه في بالونتها. لم تجد شيئا واضحا فضحك قلبي. أما حسام فقد أعلن «حطيت صدام وبوش واتحاد الكورة المصري في بالونة واحدة علشان ربنا يريَّحني منهم». لكن ما لم يقله هو أنه قد وضع داخل بالونته الهوة المعتمة التي صاحبت لحظات وحدته. وفكر للحظة أن يضع ارتعاشته في حضن دنيا. لكنه تراجع.

تكتلوا عند النافذة العريضة وأطلقوا البالونات من أيديهم في نفس اللحظة. في صمتهم شاهدوها تتهاوى إلى الأرض في هدوء واستسلام. كان بعضها عنيدا فطار لأعلى مقاوما مغناطيس الأرض لوهلة ثم انفجر وهوت قطعه الممزقة لاحقة بالبالونات الأخرى. ولم تلبث أن غابت كلها عن الأنظار في رحلة عودتها إلى رحم العتمة.

(٥)

«سلام عليك أيها الفرعون العظيم».

ابتسم إخناتون وهو يشير لكبير النحاتين أن يقترب.

«أنت تعرف قدر امتناني لما أضفيت على فن التصوير في الفترة الأخيرة

من شبه للواقع القريب من جموع البشر.

وها أنذا أكلفك بمهمة أصعب.

أريدك أن تصمم لي تمثالا يعلن للناس عن اتحاد قوة الذكر والأنثى فيّ.

أريدهم أن يتذكروا العنصرين في وجودهم الواحد.

فإن تذكر الرجل أن إيزيس/حتحور هي نصف قلبه الآخر

فسيتراجع العنف ليفسح مطرحا للرحمة.

وإن تذكرت المرأة أوزوريس/حورس داخلها لقامت أعمدة العالم على كتفيها».

بدا على كبير النحاتين التردد لوهلة ثم قال

«لكن أيها الفرعون العظيم

سيسيء العامة فهمك لو صوّرتك بثدي أنثى وخصر نحيل

بأفخاذ مستديرة وردفين!».

علت ضحكة ملكية تبعها إخناتون بقوله

«أي صاحبي.. لن يفهم العامة إلا ما في رؤوسهم.

وسيبقى السر المقدس حكرا على من يريد الخفي الواحد تقريبهم منه».

على مدار ساعات الرحلة الخمس في أتوبيس الواحات البحرية توالت الصور على رأس حسام. استسلم لها متعبا. لم يجد لديه طاقة تكفي كي يدفع صور الرجال العرايا بعيدا. الوجوه السمراء متهالكة والأجساد قد تناوب علىها الإنهاك والمذلة فذبلت وكشفت عظامها من تحت طبقة الجلد الرقيقة، معلقين من أيديهم وقد قالوا لهم: لو تحركوا لصعقتهم الكهرباء. المجندة إنجلاند ذات الوجه الجامد تتلذذ بالفرجة على رجل يلعب بعضو آخر منفذا أوامر الحراس الأمريكيين. جرانر زعيم المتواطئين على التعذيب يصرح في دفاعه عن إنجلاند، أن الصور التي تم التقاطها ما هي إلا وسائل تدريب للحراس الآخرين مشروعة ومصرح بها. إنجلاند تختلف معه «الصور تم التقاطها من أجل التسلية البحتة». رئيس الوزراء البريطاني «يعتذر» عن أي تجاوزات ضد المسجونين العراقيين.

«كتر خير أمه. عدَّاه العيب وقزح».

لا يزال الخبر الذي حرره بالأمس كتغطية لمقال صحفي التحقيقات واين مادسون يطارده. وزارة الدفاع الأمريكية تستعين بمجموعة من الخبراء الإسرائيليين المتحدثين العربية في سجن أبو غريب. لقد ساعدت هذه المجموعة المستجوبين الأمريكيين في تطوير أسالب الاستجواب وذلك بناء على خبرتهم الطويلة في استجواب المسجونين العرب في سجون الضفة الغربية وإسرائيل. وأكد ماديسون من خلال توثيق «اللجنة الشعبية ضد التعذيب» في إسرائيل تطابق أسالب التعذيب المتبعة ضد العرب مع الممارسات الأمريكية ضد العراقيين. ضرب وتعذيب واغتصاب... إطفاء سجائر في الأجساد وربطهم من أيديهم إلى قطع الأثاث و....

شعر برأسه يسخن ودقات الدماء تتدافع في شرايينه بعنف. سحب نفسا عميقا وفتح عينيه وهو يطلق زفرة ممتدة مثقلة. تراجعت الصور فتنفس بارتياح. أمضى بضع دقائق يتأمل اتساع الرمال وهذا البراح الذي لا يقطعه إلا وجود بعض الشجيرات الصحراوية البابسة على جانبي الطريق الأسفلتي. لكن سرعان ما مارس البراح الأصفر خداعه، إذ تحول إلى شاشة تليفزيون عملاقة توسطها صفر كبير. ابتسم بمرارة. بدت له تلك الدائرة المفرغة كأنها مجاز لوجوده هو.

«مش كنت قلت قبل الصفر بأربع شهور إننا مش هناخد ولا صوت من الفيفا!».

«لكن يوم ما عرفت كان نفسي أعيط».

«طب ما إنت عارف يا حمار إننا مش هناخد ولا صوت!».

«أيوه عارف بس ماكنتش ناقص حد يفكرني إننا هانفضل طول عمرنا ناكل على قفانا ونسكت».

سمع صوتا خشنا «أي والله يا أستاذ عندك حق».

لم يدرك أنه كان يحدث نفسه بصوت مسموع إلا مع تدخل الشاب البدوي الجالس إلى يمينه. انفجر ضاحكا فأزاحت ضحكته آخر الصور على الشريط الجاري عرضه فوق الشاشة الصفراء. وجه منى البائس وهي تعد حقيبته ودموع الدهشة والقلق تكاد تفر من عينيها «صحرا يا حسام ولوحدك. طب ليه!».

«يا منى هو أنا رايح أتجوز واحدة تانية. مالك لاوْية بوزك كده ليه!».

فكر في منى وذلك المنحنى الذي اتخذته العلاقة. حاول أن يحدد متى تحول شعوره بالغضب تجاهها والذي ملأ سنواتهما الأولى إلى ذلك الشيء الذي يشبه الشفقة! ربما عندما توقف عن لومه لها أنها لا ترغب في رؤية أي شيء أبعد من مهام البيت، ومطاردتها له كأنه على وشك الضياع منها! هل منحها مشاعر حب حتى يطالبها بالرد؟ وهل يجرؤ على المطالبة وهو الذي طوَّر من قدراته التخيلية كي يستبدلها في السرير بامرأة أخرى من خلقه؟

ابتسم بمرارة وهو يتذكر ليلة أمس. ربما أراد بينه وبين نفسه أن يعتذر عن السفر وحده فقرر أن يمارس معها الحب وليس مع أية واحدة أخرى. أوقد للمرة الأولى شمعة في طرف الغرفة البعيد متجاهلا تعلقها «سبحان الله، إنت مش طول عمرك بتحب الضلمة؟». تجاهل تعلقها وهو يأخذها في حضنه ويداه تتحسسان جسدها بتأنٍ. أغمض عينيه وهو يقاوم عقله المستعد لتبديل الصور في أية لحظة. اقترب من شفتيها بقبلات صغيرة فشعر بالدماء تتدفق إلى عروق جسده فينتصب متأهبا. حوطها بذراعيه وقربها منه أكثر و... «يا حسام إنت نسيت تديني فلوس دكتور محمد اللي دفعتها الأسبوع اللي فات». فك من تطويق ذراعيه لها واستدار بشكل آلي ليشعل سيجارة وهو يقاوم اندفاع الدماء إلى رأسه الذي شعر به على حافة الانفجار إلى شظايا. مرت لحظات صمت مشحونة ربما تكون منى قد أدركت خلالها أثر كلماتها، إذ إنها قامت واستبدلت قميص البيت القطني الطويل بذلك القميص الأسود الشفاف الذي ضاق على جسدها الممتلئ فأبرز ثنياته. داعبته فترك جسده لها حتى الاحتقان. قبلها للمرة الأولى منذ شهور وقد ترك قدر اللحظة في قبضة تدافع الهرمونات. عندما انتهى طبع على جبينها قبلة. أسرع إلى الحمام. أغلق الباب وراءه بالترباس وارتكن إليه. انتفض صدره بنوبة بكاء، دون نقطة دموع.

عندما وصل إلى الواحة أحس برأسه ثقيلا كطوبة يحملها مجبرا. تناول طعام الغداء بدون شهية، ودخل إلى عشته ليحاول النوم. ظل يتقلب في سريره طويلا. مرت ساعات لا يعرف عددها ومئات التفاصيل تحكم من قبضتها حول رأسه. في سكون المكان هاجمته اللحظات كأسراب نمل منظمة تسير في طوابير تعرف غايتها بدقة. تصل إليه. تلدغه. وهو يدفعها واحدة تلو الأخرى بيديه وقد احتدم الصراع بين توتره ورغبته في النوم. لحظات تداخل فيها وجه منى الممتلئ وعيناها المندهشتان مع ضحكة سلمى الرائقة في فناء الكلية المشمس. جسد دنيا في حضنه وهو يراقصها. لغد أستاذ حامولي....

فتح عينيه فانتابته الدهشة. متى غفا وكيف كانت غفوته بهذا العمق! تلفت حوله فقابلته تفاصيل العشة الخوص التي اخترقت شقوقها الرفيعة شمس راحلة. تساءل أين هو؟ ماذا يفعل في هذا المكان؟ ولماذا يشعر كأنه نام كطفل لم يذق طعم القلق. كأنما كان داخل رحم مظلم تماما. هادئ وآمن.

(لم يكن حسام مخطئا فقد ابتلعته مثلما يفعل سمك البلطي النيلي مع أولاده عند اقتراب الخطر. ومثلما ابتلع النون(٥) يونس ولم يلبث أن لفظه عند الشاطئ).

نظر إلى ساعته فرآها تقترب من السابعة ولا يزال هناك بقايا من نور النهار. خرج إلى الشرفة الصغيرة المغطاة بأعواد البوص فرأى إبراهيم جالسا أمام راكية الشاي. اقترب منه وهو يشد عضلات جسده يمينا ويسارا «هو أنا وصلت هنا الساعة كام يا إبراهيم؟».

«أربعة وشوية يا باشا. بس هنا هتتعلم تنسى ساعتك. ما لهاش لازمة يعني».

فكر حسام أنه بالفعل ومنذ وصوله مهووس بالنظر كل عدة دقائق إلى الساعة كما لو كان في انتظاره تلال من العمل، أو ربما طلب لمنى أو أمه عليه أن ينجزه كي يعود إلى العمل مرة أخرى. خلع الساعة بأسى ووضعها في جيب قميصه واتخذ جلسته على الأرض بجانب إبراهيم شاردا. احتسى على مهل رشفات متتالية من الشاي الثقيل المسكر الذي حمل شبها لشاي فاطمة. تتابعت نسمات لطيفة على وجهه. تنفس.

«شفت القمر يا حسام بيه. الأجانب وناس مصر بييجوا مخصوص علشانه».

التفت حسام إلى حيث أشار إبراهيم فشعر بانخطاف قلبه. لم يقصد اختيار تلك الأيام الثلاثة وقت اكتمال القمر. كانت دنيا هي التي نصحته «استنى لما القمر يبقى بدر. إنت ما تعرفش قمر الصحرا». دنيا... استغرب تلك الوخزة التي يشعرها الآن في قلبه!

أنهى كوب الشاي وأخذ علبة سجائره ومشى بعيدا عن عشش الواحة نحو التل القريب. لم يكن ليدرك بُعده إلا بعدما قطع أكثر من ساعة من المشي ولم يكد يصل إليه بعد. خلع صندله الجلدي فشعر بملمس الرمال لا تزال دافئة. وكان في نعومة التصاقها بقدمه مذاق غريب. هل يذكره هذا الطعم بلعب الاستغماية في حقل ذرة «أبو حمادة» الملاصق لبيت فاطمة! ابتسم. غاصت قدماه أكثر مع كل خطوة. وكانت الخطوات تأخذه لأعلى التل وتحمله سنوات إلى الوراء. استكمل صعود التل كطفل لا تفارق عيناه القمر.

جلس على قمة التل وأشعل سيجارة ونظر إلى القمر في مواجهته تماما. كسا النور رمال الصحراء فبدت كأمواج فضية لبحر ليلي. وجاءه شريط صور من نوع آخر ومن زمن أبعد. صور تبدأ من لحظات وعيه الطفولي ببيته في البلد. وقفت فاطمة في كل الصور بردائها الأسود كشجرة سمراء عتيقة لم يتوقف اللبن عن الجريان في عروقها الدقيقة. وجه أبيه المسافر مرة إلى الأردن ومرة إلى السعودية. إجازات خاطفة معه. ولحظة إدراكه وهو في الجامعة أنه رجل البيت. أن لا رجل هناك غيره لأنه كبير إخوته. ولأن أباه المسافر عندما يعود يقيم في منزل زوجته الثانية الجديد الذي استكمل بناءه من ذهب أمه. لا يأتيهم للإقامة إلا في مرضه. وفاطمة تطبخ لأبيه وقتها الفراخ وتسقيه الشوربة بالليمون. وتلك اللحظة التي عرف فيها أنها قد تركت البيت لأن الأخرى ستجيء للسكنى فيه. يومها كشَّر عن أنيابه واتقد جمر الغضب في عينيه. طرد زوجة أبيه وصرخ في أمه للمرة الأولى «ده بيتك إنت. فاهمة! مافيش حاجة اسمها تسيبي البيت وتمشي ولا حتى لأبويا».

إصراره أن يتفوق في دراسة السياسة وأن يعمل وهو لا يزال طالبا حتى يدرس الإنجليزية التي أحبها مذ كان صغيرا. حبه الأول سلمى وألف تفصيلة صغيرة في المدرجات. ألف لحظة من السحر وأيديهما تتلاقى تحت الدكك الخشبية وهي تحضر له الساندويتشات والبهجة. رحلات الكلية والنكات وعيناها العسليتان. فراقهما. سنوات قضاها يعمل طوال اليوم في كل الأمكنة المتاحة. صحفيا بالقطعة مرة هنا ومرة هناك ومترجما عندما تتاح الفرصة. ويبعث الجزء الأكبر من دخله دوما إلى أمه كي تربي باقي إخوته. زواجه الذي تم وهو منوَّم سائر إلى مصير محتوم. كل تلك السنوات التي أمضى ليالها في سرير امرأة غريبة عنه. وجه منى ومشاداتهما المتكررة يذكره دوما بقدر الغباء الذي تملّكه حتى يتزوج امرأة لم يقدر أن يحبها ولم تستطع أن تفهمه. استيقاظ قلبه مرة أخرى مع ليلى. هل كان يبحث في عينيها عن سلمى أخرى لن يضيِّعها!

«ياه يا حسام. ده إنت عدِّيت في كتير قوي!».

ردد الخلاء صدى الصوت قويا فعاد إليه أعمق وأكثر وضوحا كأنما لشخص آخر. صمت لوهلة مقاوما شعورا يشبه الرهبة. أخرج سيجارة ثانية من علبته وأشعلها.

«بس الحياة كانت طيبة قوي معاك. كنت راجل وجدع. ما حدش من أصحابك احتاج لك وما لقاكش. وإنت كمان رغم شوية وقعات لقيت أصحاب بجد طبطبوا علىك فهموك حاجات ما كنتش تعرفها».

ابتسم لصورة سارة تبكي نديم وقد تورمت عيناها ودنيا وهي تضحك بلا توقف بعد زجاجة البيرة الأولى. كم يحب ضحكتها. يشعر عندما يرى تلك الضحكة أن الحياة بسيطة و... جميلة. حتى نورا ما زال يحبها رغم غضبه منها. لقد صدقها عندما ادعت أنها قوية وليست في حاجة إلى مساندة. وها هو لا يراها إلا وكانت غائبة في مكان لا يعرفه رغم وجودها معهم. لعينيها الحزينتين ابتسم مشفقا وقد أتته تلك اللحظات التي التقوا فيها ففتح كل منهم صندوقه القديم وأخرج شيئا عزيزا علىه ليريه للآخرين. صورة في إطار نحاسي صدئ. حدث يرج الأيام. أحبة رحلوا وعرائس قماش يحبها أحدهم أو يتمنى حرقها. ولحظات بهجة أو برق فكرة اجتمعوا من أجل الاحتفال بها.

كان مستلقيا على ظهره يدخن سيجارة من علبة قاربت على النفاد عندما فتح عينيه فرأى القمر قد زحف ببطء وأصبح فوقه تماما. شهق بغرابة الإحساس.

كيف لا آتي وقد وعدتك صغيرا، وأنت مستلقيا على ظهرك فوق سطح البيت في مواجهتي تماما، ألا أتركك إن لم تتخل أنت عني.

شعر بجسده خفيفا كأنه ريشة وقعت من يمامة بيضاء، كأنه تلك الريشة على كفة الميزان أمام «أوزوريس» والقلب في الكفة الأخرى. وندفات سحب كقطن ناعم لم يعرف إن كانت آتية من ناحية القمر أم من داخله تحمله فوقها. وانفتح باب لدموع رجت جسده في ارتعاشة قوية. وردد الفضاء الصحراوي صدى نشيج هذا الآخر الذي كان يحدثه منذ قليل والذي امتزج بصوته الآن:

أنا اللي بالأمر المحال اغتوى

شفت القمر نطيت لفوق في الهوا

طلته ما طولتوش إيه أنا يهمني

وليه ما دام بالنشوى قلبي ارتوى

ظل يغني والدموع تتسارع على وجهه. دموع لم يتصور يوما أنه يمتلك منها كل هذا القدر. تسللت من بين الدموع والغناء ضحكة عندما تذكر مداعباته مع سارة التي تملك من الدموع سيلا جاهزا متى تحتاج. حوطته بذراعيّ. ضممته إليّ بحنان وتركت سيل دموعه ينهمر فوق صدري. أدرك لحظتها أنه لم يبك منذ أمد بعيد. حاول تذكر آخر مرة سالت له دموع ففشل. متى جفت بئر الدموع!

ابك يا بني. دع دموع التقائك بنفسك تغسل سنوات الغياب. أخذتك دوامات العيش بعيدا عنك. كان علىك أن تكدح ولا تتبرم. كان علىك أن تقف على قدميك وتنجح ليس لك ولكن لها. لتلك التي لم تنحن ولم تسخط يوما. لم تعاير أحدكم أو تنتظر مقابلا. كنت تمضي أياما لا تنام فيها إلا ساعات قليلة لتصحو وتكتب تحقيقا لمجلة صغيرة أو تترجم بضعة أوراق كي تدلل قلبها الذي لم يذق إلا فتات الفرحة. انتقلت من مكان لآخر ولم تبع شرفك. وعندما أغلقوا الجريدة التي أعطتك أنت وآخرين فسحة هواء وسألوك عن انتمائك قلت «مصري. لو دي كانت تهمة» مقاوما خوفك منهم
و من انقطاع لقمة العيش.

شعرت بجسدك خفيفا لأن روحك عادت إلىك سليمة عفيَّة بعد أن خطوت في العتمة وفهمت أن الغول على البوابة لم يكن إلا خيال مآتة مثل ذلك الذي كنتم تلعبون حوله في الحقل الملاصق لبيتك. تتعلقون بذراعيه الخشبيتين فيهوي فوقكم. تفرون هاربين وضحكاتكم يرددها فضاء حقول القطن. وها أنا ذا ألقي علىك بغلالتي الفضية الناعمة وأسحبك إلى الأنثى فيك. إلى ذلك النور الخفيف الآت من رحم العتمة فتلمح سراديب المعبد الساكنة.

في رقدته شعر حسام كأن القمر ينزلق بهدوء من عرشه السماوي مقتربا من جسده المستسلم لذلك الفيض الرائق من النعومة. شعر كأنه يرقد فوق سطح بحر هادئ. أغمض عينيه وهو يعلو ويهبط برفق مع الموجات. جاءه وجه سارة «يا حسام أنا رأيي إن الناس بتكتئب وقت البدر لإن حركة الجزر في روحنا بتبقى عنيفة».

أدار حسام وجهه إلىها بتلك النظرة التي تحمل ابتسامة استغراب خفيف فاستكملت «إنت مش مصدقني! يعني معقول القمر يؤثر على المحيط ولا يؤثر على البشر!».

هل تصدق صاحبتك الآن أم أن الوقت سيحملك لاحقا إلى إدراك تلك اللحظة السر!

تلك لحظة لا يفهم جلالها إلا القليلون. بعضهم يعرف تلك الدورة. ينتظرها بشغف وعندما يأتي الجزر يجده واقفا على شاطئ النون(٦) في رهبة وتيقظ منتظرا أن تأخذه حركة السحب إلى أعماقه وتحديدا إلى تلك النقطة في المنتصف تماما. يعرف أن في نقطة المرتكز اكتشاف من لآلئ بعيدة.

انتفض حسام فجأة من رقدته «واد يا حسام تتصور إن موضوع سلمى ده كان وهمك!».

صمت لحظات ثم رددت الصحراء صدى ذهوله «إيه؟!».

«أيوه طبعا إنت كنت طول الوقت مأجل حياتك. راضي إنك تعيش في وهم من صنعك علشان تكفر عن تسرعك في إنهاء العلاقة».

«يعني طول الوقت ده كان مضحوك عليّ!».

«لأ اسمها كنت بتضحك على نفسك. عملت من سلمى أسطورة. عملتها أميرة. ومع فشل علاقتك بمنى. مع كل ست كنت بتفتكر إنك هتحبها وتفشل كنت ترجع وتحط ماسة جديدة على تاجها».

«طب وأنا ليه ها أعمل كده؟».

«علشان تهرب من حياتك، اللي هيّ اللحظة اللي إنت فيها. كإن مش هييجي أجمل من سلمى ومن علاقتك بيها. كإنك مستني ست وإحساس زي اللي عدى علىك بالظبط. كإنك بتحُجر على الحاضر لصالح لحظة فاتت».

«وهو أنا يعني كنت قابلت واحدة زيها...».

«شفت ـ شفت إنك مستني شعور محدد ومرسوم. مش قادر تاخد اللحظة زي ما هي فتشوف جمالها واختلافها».

«وأنا ها أجّل الحياة ليه بس؟».

«لأن الوهم أسهل. الوهم مسكن لطيف هيعيشك بأقل قدر ممكن من الألم».

عند اقترابه من عشش الواحة لمح شبح إبراهيم يجري نحوه. وصل إلىه لاهثا «إيه يا أستاذ حسام قلقنا علىك تكون تهت وكنا هانطلع باللاندروفر ندوَّر علىك !».

ربت حسام كتفه بمحبة وقد أضاء وجهه نور القمر «أنا كنت تايه فعلا يا إبراهيم».

سمع صوت إبراهيم خلفه وهو يدخل عشته «يا باشا مش قلت لك نبعت معاك حد!».

استدار إلىه وقد اتسعت ابتسامته «بتحصل يا إبراهيم. تصبح على خير».

(٦)

الأسرار المخبوءة في قدس الأقداس

والتي لم يكن يجيد الاقتراب منها إلا الكهنة
و الكاهنات.

تلك الأسرار الكبيرة عندما تقال تبدو صغيرة جدا. عادية تماما.

وذلك هو أكبر الأسرار وأعظمها. أن لا سر هناك إلا
و كان دوما مارقا أمام أعينكم.

تتساءلون أي عين مدربة تلك التي تضبط موجاتها بدقة

مع موجات الكون المتدفقة!

تلك هي "العين الشاردة". عين "رع" سيد الكون

التي -ذات مرة- هربت منه إلى أقاصي الصعيد.

غضب أبي لغيابي وأرسل ورائي "شو" و"تفنوت"(٧)

يمسحون الأرض والسماء.

عندما قبضوا عليّ وأعادوني كنت غاضبة لتلك المعاملة

وثرت لأن أحدا لم يتساءل لمَ شردت وتركت الديار.

كان هذا في أحد أزمان القحط حين عصى البشر
و استكبروا

ونسوا أن الحب هو المبدأ الأول. في غفوته يحكم "ست" العالم.

بعد عودتي وضعني "رع" على جبينه ليس ليهدئ من ثورتي كما روجوا

ولكن لأنه كان يعلم جيدا أن تلك "الأوجات"(٨)

هي عين الرؤية.

ولهذا عندما وضعني على جبينه اتخذتُ التفافة الحية المقدسة.

«مين هيبتدي؟».

سألت سارة بعد أن اتخذوا جلستهم الليلية متربعين على أرض شرفتها الخلفية وأمامهم أطباق الجبن والسلاطة وأكواب الشاي. عادت نورا من المطبخ وفي يدها طبق فارغ وبدأت تنظيف أعواد البانجو. كان الهواء لطيفا ناعما وسارة تحضر الكمبيوتر المحمول وتدير فيروز:

على مهلك

على مهلك يابا على مهلك قدامك عيد

ليل السهر بينده لك والصبح بعيد

تساءلت «ولاّ يا دنيا نبتدي الأول بصور معرضك قبل نشرة الأخبار الداخلية؟».

«ممكن نختار الصور في الآخر. حسام شكله منوَّر بعد سفرية الواحات وعايزة أسمع له. بس قبل حسام أنا عايزة أحكي عن حاجة غريبة حصلت».

ضحك وطل من سياجه الفل

يا قمر علنا يهل وبتطاله الإيد

نظروا إلىها بفضول فاستكملت «أنا ليلة عيد ميلادي حلمت بجدتي بتدِّيني أنا ونسمة كل واحدة أربعين جنيه وبتقول لنا ننزل نشتري حاجة. النهارده قبل ما أجيلكم عديت على البريد بعد كام يوم عايزة أروح ومش عارفة ألاقي وقت. كانوا باعتين لي جواب أحضر. تفتكروا ليه!! لقيت لي فرق أربعين جنيه في طرد كنت بعتُّه من أسابيع. تخيلوا.. أربعين جنيه بالظبط!».

تلفتت تنظر إلى ثلاثتهم. «تفتكروا ده يعني إيه؟».

تمعنت سارة فيها بعينين مبتسمتين «مش عارفة يا دنيا. بس أكيد حاجة جميلة. إشارة».

نظر حسام إلى سارة محذرا إياها «ابعدي عن البت. عقلها ملحوس خلقة».

«هو أنا قلت حاجة. أنا قلت مش عارفة».

تدخَّلت دنيا مبتسمة «خلاص احك يا حسام».

قاطعتها سارة وقد نظرت إلى نورا التي شردت بعيدا أثناء الحوار رغم أنها لم ترفع رأسها عن الطبق «حسام شكل أخباره حلوة. خليه شوية ونسمع نورا؟».

زفرت نورا وهي تلصق السيجارة بلسانها «بصوا أنا أخباري زفت. المرتب نزل. أنا بعد التخرج بتلات أو أربع سنين، يعني في التمانينات، كان مرتبي بين أربع وست آلاف جنيه حسب عمولات البيع. عايزين تقولولي إن بعد ١٦سنة خبرة أوافق على ألف ونص!».

رد حسام «بعد ١١سبتمبر السياحة في العالم كله وحركة الطيران اتأثرت. ومع اللي بيحصل في المنطقة الأمور مش ها ترجع لطبيعتها في سنة ولاّ اتنين».

«كسبنا صلاة النبي. ولحد ما تتصلح ها أقعد أنا أغني ظلموه!».

تدخلت سارة «يا نورا أمريكا شايفة إننا بؤرة الإرهاب في العالم.

و ده معناه إنها مش مؤامرة ضد حضرتك تحديداً. احمدي ربنا إن لسه لكِ مكان. وبعدين يا ستي إنت بدل اللغة عندك اتنين. لو مش عايزة ترسمي اقبلي شغل ترجمة. أكيد هيساعد».

«أصحاب مكاتب الترجمة حرامية ولاد كلب وما عدتش قادرة أتعامل مع غباء البشر».

ضحك حسام «الغباء موجود في كل مكان يا نورا حتى في أمريكا واسألي مايكل مور عنه. شفتوا عامل إيه في بوش في «رجال بيض أغبياء»!».

علقت دنيا وهي تنظر لنورا «أمال فين بقى السماح اللي بنتكلم عنه. يعني نحاسب كل البشر بمعاييرنا إحنا؟».

زفرت نورا بزهق وهي تخرج أنفاس السيجارة الأولى «أنا تعبت من الحياة والماديات. مش قادرة أعافر. نفسي في خلوة في الصحرا وأبعد عن كل المواشي اللي باتعامل معاهم طول الوقت».

ابتسمت سارة «والخلوة دي، إنك تعيشي علشان الروح، ينفع تتعمل وإحنا كحيانين مش لاقيين ناكل؟ ماحدش بيعيش روح بس يا نورا. ماحدش يقدر يدخل المنطقة دي وهو جعان أو مش متحقق. ده حتى الزهد في الإسلام انتهى مع القرن التاني الهجري. وكان المتصوف بيشتغل في التدريس أو التجارة. أيوه كان لازم يروح خلوة. لكنه كان بيرجع منها علشان يدي حاجة لبقية الناس».

جاء سؤال دنيا خافتا «نورا إنت فكرت إنك ممكن تكوني مكتئبة؟».

صرخت في وجه دنيا «يووووووه..أنا مش مكتئبة. لكن أنا تعبت بقى. تعبت. طول عمري باشتغل والفلوس بتروح على البيت والدكاتره وأخويا اللي مش بيبطل سلف وتصليح الزفتة العربية اللي اتخبطت الشهر اللي فات. أنا عايزة أرتاح».

انكمشت دنيا داخل نفسها في صمت فاستكمل حسام بعناد «طيب والبانجو ده مش بيحتاج فلوس؟!».

«بص يا حسام السيجارة هي اللحظة الوحيدة اللي باحس وقتها إن قلبي خفيف وممكن أضحك. باشوف الدنيا على حقيقتها. صغيرة وتافهة ومش مستاهلة كل الجري والوجع والمعافرة. هي دي المتعة اللي باقية لي».

صمتوا جميعا فتسلل إلـهم صوت فيروز ناعما:

يا قمر علنا يهل وبتطاله الإيد

صوب الدار سرقلك مشوار

سمعني شو في أخبار وشو في مواعيد

التفتت سارة إلى حسام وقد شعروا جميعا بالحائط المصمت الذي وقفت نورا في مواجهته ورفضت التحرك «ها يا حسام احكي لنا أنت عن الواحات».

اعتدل حسام في جلسته «مش عارف أقول لكم إيه. أنا راجع دلوقت بقالي شهر ولسه حاسس إني طاير. بس مش لاقي كلام يعبر عن الحالة اللي عشتها لأول مرة في حياتي. ومش قادر أفهم سيل الدموع اللي نزل مني وأنا فوق التل كان جاي منين وليه!».

تساءلت نورا «أيوه يعني قل لنا فهمت إيه!».

نظر حسام إلـها محتارا «يمكن السؤال هو حسيت بإيه».

ابتسمت دنيا وهي تخرج بحذر من قوقعتها «ماشي يا ريس مشيها كده. حسيت بإيه؟».

«حسيت.... مش عارف!».

ابتسمت نورا بتهكم «حسيت إنك مش عارف!».

تجاهل حسام نبرة السخرية واستكمل «لأ يمكن حسيت إني كنت طول عمري مش عارف وبدأت أعرف. إيه بقى اللي بدأت أعرفه. مش عارف. بس شفت كل حياتي كإن على شريط سينما. ولا تفصيلة ناقصة. وشفت إني طول عمري باعمل اللي الناس منتظرينه مني. وسألت حسام عايز إيه... ضرب لخمة وما نطقش».

برقت عينا سارة بابتسامة ماكرة وهي تسأل «تفتكروا لو «حتحور» قررت تكتب عننا هيبقى إيه شكل الحكاية؟».

«حت... إيه!».

قالها حسام وقد فغر فاه. لم تفارق وجه نورا الابتسامة المتهكمة
و هي تشعل سيجارة جديدة بينما لمعت عينا دنيا بابتسامة شقية. مد حسام يده إلى جبهتها متسائلا «إنت سخنة يا حبيبتي؟ والله يا سارة أنا قلقان علىك من آخرة السكة اللي إنت ماشية فيها دي».

ضحكت سارة واستكملت مشاكستها «يعني تخيلوا معايا إلهة العشق والرقص والغنا عند الفراعنة رجعت القرن الواحد والعشرين وحبت تنقل للناس زمان البشر في مصر دلوقت حالهم إيه. واختارتنا إحنا الأربعة ممثلين لفكرتها؟».

مازحها حسام «والله زين ما اختارت».

ولم يلبث أن استكمل بنبرة مالت إلى الجد «بس إحنا أساسا مش هانمثل غير شريحة ضئيلة من الناس».

عارضته دنيا «مين قال كده يا حسام. معاناة البشر شبه بعضها حتى لو اختلفت التفاصيل».

خرجت نورا من صمتها فجاء صوتها متوترا «عايزة إيه من الآخر يا سارة؟».

كطفلة مصممة على استكمال اللعبة، تجاهلت سارة نبرة نورا ولم تتراجع ابتسامتها «تعالوا نحط تصور لشكلنا في الحكاية و«حتحور» ها تشوفنا إزاي».

«يعني مبدئيا أنا البطل الرئيسي».

ضحكت دنيا وهي تخبطه على كتفه «آه طبعا البطل اللي بطَّل ينزل مظاهرات بعد ما انضرب مرة واحدة».

واستكملت نورا «لأ وما تنسيش البطل المتجوز اللي بيحب على روحه ومش قادر يمسك نفسه عن النسوان».

نظر إليها ولم تذهب ابتسامته وإن كان وجهه قد فضح شيئا من الدهشة «نسوان إيه يا نورا! أنا أعرفكم بقى لي كام سنة. شفتي معايا كام ست؟».

ردت متهكمة «المهم نية الخيانة مبيتة».

تراجعت ابتسامته وتغيرت نبرة الصوت «آه ده مش هزار بقى. مش تقولوا لي إن الكلام جد».

تدخلت سارة «إيه يا حسام مالك اتوتَّرت كده. وإنت يا نورا ليه الأحكام القاسية دي! أمال لو ما كانش صاحبك وعارفاه».

جاءت نبرة حسام بعيدة عن الهذر قريبة من الغضب «استنى إنت يا سارة. إوعي تفتكري يا نورا إن إنت الضحية الوحيدة. إنت

مش ضحية أساسا. ولو إنت ضحية فأنت ضحية دماغك لإن ولا واحد فينا ما عندهوش مشاكل. ولا واحد فينا ما بتعديش عليه أوقات ما معاهوش فلوس ولاّ مشتاق لسعادة. اوعي تفتكري إني مش باتعذب لإني عايش حياتين. واحد اتحول لمنافق في البيت بعد ما فشل يخلي الست اللي معاه تقرب منه وتفهمه. وشخصية تانية بره البيت -في الشغل ومعاكم- نفسي تكون هي دي الحقيقية. ما أقدرش أجزم هي دي ولاّ لأ لأني ما أقدرش أدّعي إني أعرف حسام. بس على الأقل عايز أعرفه. اوعي تفتكري إن الشغلانة اللي باشتغلها شغلانة سهلة أو عادية لإنها إما ها تجيب لي جلطة في أي لحظة أو أتحول لحجر ماعندهوش دم علشان أعيش. إوعي تف...».

ربتت دنيا كتفه وقد عكس وجهها التوتر «بالراحة يا حسام».

قاطعتها نورا بنبرة تهكم «وبالراحة ليه يا دنيا. هما الكلمتن دول بقى اللي هيكسروني! خليك إنت ماشية ورا سارة ومصدقة خزعبلاتها. يا الله أديكم مريحين دماغكم. بس علشان تبقوا عارفين وأبقى خلصت ضميري ده اسمه هروب يا ماما».

أطبق الصمت عليهم ثقيلا. خرجت سارة من الشرفة بعد أن لملمت الأكواب الفارغة واتجهت إلى المطبخ. ولم يلبث حسام أن قام بعد أن سحب علبة سجائره والموبايل معلنا الذهاب فشدته دنيا «إيه الندالة دي مش هنختار صور المعرض»، فجلس صامتا.

سحبت نورا حقيبتها «عندي ميعاد مع تامر في وسط البلد» فلم يتحرك أحد منهما. في طرقة البيت حاولت سارة أن تستبقيها فخرجت منها الكلمات باردة بلا روح «إيه يا نورا مالك إحنا لسه قاعدين». لكنها أصرت على الذهاب.

عادوا إلى جلستهم على أرض الشرفة ولا يزال الصمت مطبقا. لم يقطعه بعد دقائق إلا صوت كروان مارق أمامهم. ابتسمت دنيا وهي تتأمل تجهم سارة ومالت على جبهتها بقبلة «لسه فيه سحر في العالم».

ابتسم حسام بأسى «دلوقت ممكن أصدق».

عقبت سارة كأنما تحدث نفسها «أنا قلبي مفطور على نورا. وحاسّة بالعجز».

رد حسام منفعلا «يا سارة «بحر الحياة مليان بغرقى الحياة». أنا كمان زعلان عليها. لكن مش ممكن تقدري تساعدي بني آدم مش عايز يساعد نفسه».

«أنا فاهمة سارة قصدها إيه. هي حاسّة بمسئولية عن نورا. كلنا حاسين كده. بس السؤال هو: يا ترى هي كمان حاسّة بمسئولية تجاه نفسها ؟».

اندفع حسام «لا طبعا. هي شايفة العالم كله ضدها والناس أغبيا وولاد كلب والرجالة فشنك. طول الوقت شايفة الآخر ومش شايفة دورها في ده كله».

سرحت سارة قليلا والكروان يمرق مرة أخرى أمام الشرفة العالية فعادت بها نغماته من شرودها «تعرفوا أنا بيتأكد لي نظرية المغناطيس».

تساءل حسام ضاحكا وقد استشعر نبرة سارة تأتي من تلك المنطقة العميقة التي ألفها فيها «ودي بقى زي نظرية النسبية ولاّ من خزعبلاتك يا أختي!».

ابتسمت سارة «طبعا خزعبلاتي».

ثم تراجعت الابتسامة وشردت عيناها مرة أخرى نحو ظلمة السماء «بس خدوا بالكم كده هتلاقوا إن لكل واحد مننا نوع طاقة بيشد الحاجات اللي شبهه. يعني لو طاقتك بيضا، حب وسماح ورضا بكل اللي الحياة بتديهولك، بتشد ناحيتك الحاجات الجميلة».

استكملت دنيا وقد أتتها صورة أخيها الذي لا يخرج من مشكلة إلا ليوقع نفسه في ورطة «ولو طاقتنا غضب ونقمة وسخط بنشد

لنفسنا الشلالت والإقلام».

ثم عادت تنظر لسارة «عارفة بعد خلوة كنج مريوط أنا حياتي في مناطق كتير ما اتغيرتش. أمي هي أمي ومصر هي أمي برضه وأنا طفلة غير شرعية لها. لكن دلوقت باشوف الحاجات الجميلة اللي في حياتي أوضح. أمي بقيت أهزر معاها لما تنكد عليّ. أحمد، الله يسهل له. وبدأت كمان حاجات تحصل زي إن صاحب جالري وسط البلد يرحب بمعرض صور ليّ».

أردفت سارة «ومش ممكن للطاقة اللي عند نورا إنها تشد حاجات غير خناقات في الشغل لأنها عصبية معاهم طول الوقت، وحادثة عربية لإنها بتسوق وهي يا إما غضبانة يا ضاربة بانجو يا الاتنين مع بعض».

هز حسام رأسه وقد تذكر شعوره فوق التل. كل هذا القدر من، لا يعرف إن كان بإمكانه أن يسمي ذلك الشعور سعادة أم رضا. لكن كم أدهشه في تلك اللحظات القصيرة التي استعاد فيها طبقات الألم القديم انبثاق هذا الشعور من داخله. لم يدرك قبل تلك اللحظة أن كل هذا القدر من الرضا يسكنه. يستطيع أن يعترف لنفسه الآن أنه يجهل الكثير عن حسام. لكن لم يعد يتملكه الخجل من هذا الجهل.

لكن ما أجاد إخفاءه في تلك اللحظة هو أن التجربة قد أكدت فقدانه الإحساس بمتعة الجنس مع منى. عندما كان وعيه أقل، كانت الأمور عادية. أو تكاد. في الشهور الأخيرة بدأ يشعر بتراجع رغبته وهو الذي لم يتخيل نفسه دون جنس لمدد طويلة. زهق من محاولاته المستميتة أن يتخيل أخرى مكانها. لم تكن محاولات ناجحة دوما على أية حال. ابتسم وهو يتذكر كم من المرات ادعى الصداع أو الرغبة في النوم وهو يقاوم إحساسا بالذنب لأن لتلك المرأة حقا عليه. «حق!» وأين حقه هو...! مرق الخاطر على رأسه فدفعه بعيدا.

التفت إلى سارة وقد برق في ذهنه سؤال «إنما إيه موضوع حتحور وحكايتنا وناس زمان؟».

ابتسمت سارة «يا عم دي خزعبلات. دماغك».

ثم سرحت نحو الفضاء المظلم «بس خسارة القمر غايب النهارده. تفتكروا هو ورا الغبار ولاّ مش موجود. هو النهارده كام في الشهر العربي؟».

(٧)

كل الأشياء تشكل دائرة داخلي

عمري عشرة آلاف شتاء

وصغيرة أنا كزهرة وليدة.

أنا بقرة أهالوا فوقها التراب

وشجرة أنا في أوج ازدهارها

كل الأشياء تشكل دائرة داخلي.

لقد رأيت العالم بعيني نسر

وراقبته من حفرة سنجاب.

شاهدت العالم يحترق

ورأيت السماء بلا أقمار

كل الأشياء تشكل دائرة داخلي.

لقد دلفت إلى الأرض وخرجت منها

ووصلت إلى حافة السماء.

كل الأشياء تشكل دائرة داخلي

لكل منها مكان يعود إليه.(٩)

ضرب تليفون سارة فأظهر رقم موبايل صوفي في سان فرانسيسكو. ردت سارة وصوتها يشي بفرحتها «صوفي وحشتنيني. إزيك وإزاي هنري وميريت وكيميت».

جاءها صوت صوفي هادئا «سارة.. أنا با اكلمك علشان أبلغك إن إيزابيلا روَّحت خلاص».

صمتت سارة للحظة وقد فقدت خيط الكلمات وشعرت بقلبها ينزلق في هوة عميقة معتمة. عاد إلىها صوت صوفي «الجنازة بعد تلات أيام في «بادستو». هتعرفي تسيبي الجامعة كام يوم؟».

حاولت سارة أن يبدو صوتها متماسكا «طبعا. وميريت وكيميت؟».

«كيميت مش هتقدر تسيب الجامعة وقت امتحانات. لكن ميريت فيه مرشدة ممكن تشيل شغلها».

عندما أغلقت الخط جلست على سريرها وقد برد جسدها وفقدت الإحساس به «إيزابيلا مشيت. مش هاشوفها تاني. مش هتحضني وتحكي لي».

التفتت إلى ابتسامة جدتها الواسعة في الإطار الخشبي على الكومود وانهمرت دموعها.

عندما فتحت الباب لحسام سالت دموعها مرة أخرى في حضنه. ربت رأسها بحنان «معذورة يا سارة إذا كنت أنا حبيتها مع إني ما شفتهاش».

«رغم إني كنت عارفة إن سنها كبير ومتوقعة الموت في أي وقت، بس اللحظة اللي بتعرف فيها إنه فعلا حصل، مش بتصدق بسرعة. بتقلق من الوحشة لهم. يمكن كان نفسي أشوفها وأشبع منها».

سحبها من يدها إلى كنبة الحجرة الملاصقة للنيل وأجلسها «عمرنا ما هنشبع منهم يا سارة. بيتهيأ لنا إن ده ممكن». كتم في حلقه غصة مرارة ووجه فاطمة الأسمر يمرق أمام عينيه مبتسما.

على متن الطائرة المتجهة إلى لندن جلس بهاء بجانبها. كان قد أصر على السفر رغم الضعف البادي عليه «الست اللي ادتني أجمل هدية في حياتي ما ينفعش ما أودعهاش. وآهي فرصة أشوف أخوك الندل بتاع أمريكا».

ألقت نظرة على غلاف الكتاب المفتوح بين يديه «الشيخ عيسى نور الدين يا دادي، مش كنت قريت الكتاب ده!».

ابتسم بهاء «في السفر باحب أقرأ كتب قريتها علشان لو فقدت التركيز تبقى القراية ماشية برضه».

انهمك بهاء في الكتاب واختلست سارة نظرة جانبية إليه. مسحت بعينيها تجعيدات الوجه السمح وذلك الشعر الثلجي الذي تحب والانحناءة الخفيفة في ظهره المستند إلى المقعد. فكرت أنه بالرغم من الألم القاسي الذي يعصر قلبها عندما تفكر في قرب رحيله إلا أنها تعرف الآن أنها متصالحة تماما مع الموت. إن فكرة رحيل بهاء لم تعد مفزعة كما كانت دوما. تذكرت كاتي وقت رحيل جدها نعمان وقد ابتسمت رغم لمعة دموع في عينيها. أجلستها وأيمن في حضنها «جدكم مات بعد ما أدى رسالته في الحياة. وعاش زي ما هو عايز يعيش مش زي ما الناس كانت عايزاه يعيش».

تذكرت سارة أيضا كيف رحلت كاتي فجأة إلى الشاطئ الغربي
و تركتها تصارع وحوش علب السردين وأشباحها وهي لا تزال في عشرينيات عمرها. كان مرضها قصيرا ومخادعا. لم ينبئ ب... موت. هل ذهبت كاتي بالفعل! ألم تفلح كثيرا في استدعائها في أوقات عدة! بالتأكيد في أوقات الأسى. وألم تفاجئها هي أحيانا بالحضور مبتسمة وبريئة بلا موعد مسبق في حلمها وفي الصحو! ألا تراها حية لا تزال في قلب أبيها. حولت نظرها بعيدا عن بهاء إلى الفراغ. أغمضت عينيها فجاءها صوت مألوف «يعني عارفة تتصالحي مع الموت وممكن يكون لسه جواكِ إحساس بعدم الأمان!». ابتسمت.

من داخل مطار «هيثرو» استقل بهاء وسارة القطار الذي سيرحل بهما إلى «كورنويل» في «جنوب ويلز» ومنها سيستقلان أتوبيسا إلى «بادستو». جلست سارة بجوار النافذة كعادتها منذ الصغر. لاتزال تحمل للقطارات هذا الحب الطفولي. رفرف قلبها كفراشة هائمة عندما خرج القطار من ضواحي لندن وبدأ في شق القلب الأخضر للريف. تأملت سارة درجات الأخضر المتباينة الموزعة على رقع الأرض المنداة بزخّات مطر خفيفة. انخطف قلبها والتلال الخضراء تتتابع أمامها بينما يخترقها القطار كسهم مارق يعرف وجهته تماما. يعلو فجأة فوق التلال حيث تتناثر بيوت بيضاء صغيرة بنية الأسقف على مسافات بعيدة من بعضها البعض. ثم يعاود النزول إلى قلب نفق مظلم يخرج منه ليرتفع ويطاول هامات الأشجار العملاقة فتشعر سارة أن باستطاعتها أن

تخرج يدها لتلمس الأطراف الخضراء.

لا تزال الحياة تدهشها. لقد رحلت إيزابيلا في شهر إبريل «أقسى الشهور». ألم يكن «إيليوت» على حق في توصيف قسوة الجمال عند انشقاق رحم الأم الأولى عن حيوات جديدة! تصبح ألوان الزهور وقتها - كما تتبدى لها الآن على نوافذ البيوت المتناثرة - في صخب البرتقالى والأصفر وفي براءة الأبيض وحزن البنفسجي الرهيف. عادت إليها رحلات قطارات مماثلة في حضور كاتي وشقاوة أيمن.

ابتسمت لتلك المرة التي قررا فيها لعب الاستغماية، وبعد دقائق وجدت نفسها وحيدة وسط غرباء بلا أدنى فكرة عن اتجاه مقاعد أبويها. عاشت اللحظات القصيرة دهرا من الضياع في عراء مخيف. رسم عقلها ذو السنوات السبع صورة لها وقد عاشت يتيمة في ملجأ مثل «أوليفر تويست» أو في بيت أغراب تبنوها فانفجرت في بكاء جلب إليها بعض الكبار الذين أعادوها إلى أبويها. وهناك وجدت أيمن جالسا وابتسامة خبيثة على وجهه. تمنت أن يكون لديها طفل كي تجيء به إلى «بادستو» والأقصر في نفس القطارات وترى الأمكنة مرة أخرى من خلال عينيه. زارتها غصة حنين. لم تعرف هل هي من أجل من ذهبوا أم من أجل من لم يجيئوا بعد.

كان البيت مزدحما لدى وصولهما. كان أول ما التقطت عينا سارة عند نزولها وبهاء من التاكسي أمام مدخل الحديقة هو صوفي وهنري وكيميت وأيمن وصديقته مايومي. احتضنت سارة بنت خالتها التي لم ترها منذ أربع سنوات على الأقل. تكاد كيميت أن تكون نسخة من كاتي وهي في الثلاثين من عمرها بهاتين العينين بلون الكراميل والجسد الصغير. احتضنت أيمن طويلا في صمت. لم تفك من التفاف ذراعيها حول وسطه وهي تتلفت حولها فترى أصدقاء إيزابيلا وأمهات وآباء بعض الصغار الذين كانت تعطيهم دروس الفن التشكيلي.

دخلت وحدها إلى إيزابيلا الراقدة في الكفن الخشبي المبطن بالحرير الأبيض. ارتعشت وهي تقترب من جدتها النائمة بوجل. تأملت الوجه الخمري الذي تراجعت الكثير من تجاعيده تاركة إيزابيلا جميلة كما رأتها دوما. تلك الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتيها جعلت سارة تتصور أنها نفس الابتسامة التي من الممكن أن ترتسم على ذلك الوجه عند مقابلة الأحبة. كاتي ربما. نعمان أو ماركو أو جميعهم. عندما مالت تقبلها انزلقت دموعها على الوجه الناعم الغارق في البياض. مالت على يدها تقبلها. أمسكت بها كأنها تشحذ آخر نفحات الحنان. وقضت باقي اليوم على صخور الشاطئ صامتة.

في الصباح التالى خرج بهاء مع صوفي ولحقت بهما سارة والباقون نحو قبر إيزابيلا أعلى التل. بالرغم من بعض الغيمات التي أسقطت رذاذا خفيفا كان الجو دافئا. صعدت سارة وقلبها يرفرف خفيفا كأنه فراشة. على كثرة ما يفتنها من جمال إلا أن هذا القبر كان هو الجمال ذاته. بدا التل الأخضر لسارة في علوه وانفتاحه على البحر كنورس أبيض محلق بين أزرق السماء وأزرق البحر. لابد أن شواهد القبور الرخامية البيضاء هي الأجنحة. مالت على أبيها هامسة «هي القبور في مصر ليه كئيبة. مكان شبه الموت بالمفهوم الدارج!».

ابتسم بهاء «يظهر إن الإنجليز اتعلموا من الفراعنة أكتر ما إحنا اتعلمنا منهم».

فكرت سارة، ألا يرى المصريون بالفعل قبور أجدادهم التي يشهد جمالها على قدر توقهم إلى شروق آخر؟ لماذا نسينا إرث أجدادنا وصدقنا عذابات القبر بثعبانه الأقرع التي تباع في أشرطة على أرصفة ميدان العتبة!

تأملت سارة شاهد القبر الرخامي الأبيض الذي وقف بين القبور الأخرى الغارقة في زهور السوسن الأصفر وقفاز الثعلب الأرجواني فوق تل مفتوح على البحر وعلى حركة الرياح العابرة فوق موجاته. «لسه فيه سحر في العالم». مرق في تلك اللحظة وجه نديم أمامها. ألم تشهد تلك القرية الصغيرة أيامهما الأولى! ألم يصعدا التل المجاور معا ويجلسا على حافته العالية التي تهبط على البحر بزاوية قائمة ويشاهدا النوارس التي شهدت قبلتهما الأولى بابتسامات صامتة! ابتسمت بطعم مرارة خفيفة فوق شفتيها. شعرت بالهواء البارد يدخل إلى صدرها غزيرا فيتسع قلبها وتسطع في جنباته شمس تلقي بنورها فوق الأركان المعتمة. في أحد الأركان رأت نديم ساكنا ووحيدا. لماذا تشعر بوحدته تؤلمها في هذه اللحظة! ودت لو كان أمامها الآن كي تمسح على رأسه وربما تخبره أننا نخطئ لأننا بشر ونجرح أحيانا دون قصد. وأنها في هذه اللحظة...

أفاقتها لمسة خفيفة فوق يدها ظنتها للحظة من إيزابيلا. التفتت لتجد صوفي التي انزلق من عينيها مجرى نحيل من دموع وهي تهمس في أذنها «إيزابيلا هي اللي اختارت القصيدة دي لصافو». عادت سارة بعينيها إلى السطور المحفورة فوق شاهد القبر الرخامي،

الآن وبينما نحن نرقص

تعالى! انضمي إلينا!

أيتها البهجة الحلوة والحلم.

وأنت أيها النور الساطع!

وألهمننا أيتها الملهمات

آه أنت يا ذات الشَعر الرائع.

عادت عيناها إلى مغناطيس باقات الزهور التي تكدست بألوان إيزابيلا الناعمة فأخفت معظم جسد الصندوق الخشبي. وأي لون أقدر من البنفسجي على خطف قلب سارة وإيلامه. جاءها وجه نورا. تساءلت كيف يمكن لإنسان أن يفسح مكانا مستديما للألم داخله وفي العالم زهرة مثل تلك الماجنوليا! سنتألم وإلا ما كنا بشرا وما تعلمنا شيئا من الأسرار. لكن أن نترك الألم ينخر في عظامنا كالسوس فنجف ونتكسر. أليس هذا كفرا! شعرت بوخزة في القلب ودمعة تشق طريقا إلى عينيها.

«هذه النفس التي اجتمعنا بسببها، يارب نيّحها في ملكوت السموات. افتح لها يارب أبواب السماء، واقبلها إلك بعظيم رحمتك. افتح لها يارب باب البر، لكي تدخل وتتنعم هناك، افتح لها يارب باب الملكوت لتشارك جميع القديسين. افتح لها يا رب أبواب الراحة لترتل مع كافة الملائكة. ولتستحق أن تنظر النعيم، ولتدخلها ملائكة النور إلى الحياة، ولتتكئ في حضن آبائنا إبراهيم وإسحق ويعقوب».

بينما كان الأب كريستيان يتلو صلواته لمحت سارة شفتي بهاء تتمتمان وفوق مرآة عينيه تمرق كاتي بضحكتها الواسعة تاركة غلالة خفيفة من البريق. ألقى الأطفال الصغار بالمزيد من الورود الصفراء والبيضاء
و البنفسجية فوق الكفن الخشبي الذي احتضنته الأرض بحنان. بدأوا التحرك ببطء في مجموعات صغيرة نحو بيت إيزابيلا. تمنت سارة لو تجدها هناك واقفة تحت ظلال البوكالبتوس العملاقة في الحديقة حتى يذهب ذلك الوجع عن قلبها.

عند دخولهم إلى البيت قابلتهم رائحة الصندل التي فاحت بها أعواد البخور التي أشعلتها صوفي بينما تناثرت شموع زرقاء في أركان غرفة المعيشة ذات الأرض الخشبية العتيقة. رفعت صوفي كأسها فارتفعت كؤوس النبيذ الأبيض «في صحة إيزابيلا». اتجه كيث صديق جدتها إلى المكتبة الخشبية وأدار إحدى الاسطوانات:

صغير إنت على لحظة دهبية

بتتنهد وفي لحظة التنهيدة... اللحظة تطير

استحضر صوت فرانك سيناترا لسارة ذلك المشهد البعيد. إيزابيلا تراقص نعمان يوم عيد ميلاده. ابتسمت وهي تقترب من أيمن فيفتح ذراعيه لها من موقعه على الأريكة الصغيرة. جلست وأراحت رأسها فوق صدره.

وفي صمت سبتمبر تحلم بموسيقى مايو.

صغير إنت على اللحظة المنورة،

وبسرعة هييجي وقت الذكرى.

امسك اللحظة الدهبية

لو راحت مش هتعود...

إيزابيلا ترسم بورتريها لنعمان. وسارة ذات السنوات العشر تجلس بجانبها تتأمل تخلق ملامح الوجه الأسمر الذي يبتسم لها الآن من الإطار الخشبي على الحائط فوق المدفأة. كيف استطاعت تلك الساحرة أن تلتقط ابتسامة مارقة كغيمة خريفية في سماء العينين الحزينتين. عينا جدها تلمعان وهو يفتح ورق الهدية فيرى اللوحة وتنتهي شهور الخصام بينه وإيزابيلا. لم تعرف سارة وقتها أنهما كانا على خلاف إلا مع رؤية الدموع تتسارع من عيونهم وكاتي وبهاء يحضران من المطبخ تورتة الفراولة التي أعدتها إيزابيلا وفوقها شمعة يلقي لهبها الصغير بنور ناعم على العيون المغرورقة بالدموع. تعود إلى سارة بهجة الانتصار الطفولية وجدتها تعلن «سارة عملت معايا التورتة». بالطبع. ألم تصاحب جدتها في المطبخ لنصف يوم قضته في تقطيع الفراولة وتقليبها في الطبق الكبير الذي غمرته إيزابيلا في السكر الناعم الأبيض! وبعد خروج الكيكة الإسفنجية من الفرن ألم تسهم في تزيينها بالكريمة البيضاء الهشة والفراولة المستديرة ذات الحمرة القانية!

قبَّل أيمن رأسها من الخلف وهو يحكم من تطويق ذراعيه حولها. استدارت إليه فابتسمت في وجهه عينا كاتي العسليتين. جاءها صوته هادئا كصوت بهاء «كلمتها الأسبوع اللي فات وسألتني وهي بتضحك عن أخبار مايومي. قالت لي أبطل صرمحة وأتجوز البنت لأنها بجد بتحبني وعايزة تخلف مني. طبعا مايومي كانت فرحانة قوي بالكلمتين دول. وأهي جت الجنازة مخصوص علشانهم».

ابتسمت مايومي للكلمات العربية التي لم تفهمها لكنها استشعرت علاقتها بها.

سرحت سارة مع إيزابيلا عبر الباب الزجاجي العريض الذي يفصل غرفة المعيشة والحديقة عن المحيط. تتتابعت صور إيزابيلا على صفحة الموج الهادئ. جسدها الصغير يتحرك بين المطبخ والحديقة في بنطلون كتان وقميص أبيض قد كشف عن سمرة رقبتها. ترقبها سارة
و هي تصهر بقايا الشموع التي خزنتها على مدى أسابيع في وعاء خصصته لهذا الغرض. تضيف إلى السائل الساخن عطر الصندل المركز. تحضر الفتيل وتمسحه في السائل. وبعد أن يبرد الفتيل
و ينتصب عوده تصب سائل الشمع في الأواني الصغيرة الملونة
و تغرس الفتيل. تجري سارة إليها لتخبرها بعد وهلة أن الشمع قد قارب على التجمد. تغرس إيزابيلا سكينا رفيعة برفق حول الفتيل و تصب شمعا سائلا حتى يعتدل سطح الشمعة.

أفاقت على يد كيث تدعوها للرقص.

البنفسجي الغامق بيغطي

حيطان الجنينة النايمة

والنجوم في السما بتضوي

من بين ضباب الذكرى

وترجع لي... تتنفس اسمي بتنهيدة.

ف سكون الليل أضمك ليّ

أيوه إنت رحلت لكن... حبك بيصحى جوايا

مع ضي القمر.

ضحكت سارة وكيث يدور بها في أرجاء الغرفة وقد قبض على جسدها بيدين عارفتين وأخذ يقود خطواتها في فالس ساخن. ضحكت لأول مرة من قلبها منذ عرفت برحيل جدتها. بدا كيث بعينيه الشقيتين وشعره الأبيض وذقنه الصغيرة وتلك القامة الفارعة التي تعرف تماما كيف تقود خطوات رفيق الرقص، بدا نموذجا للرجل الذي من الممكن أن تحب.

في استسلامها لدوراته مع الإيقاع التفتت إلى صوفي تحدثها بالعربية «قطيعة على رجالتنا اللي ما بيعرفوش يرقصوا خمس دقايق على بعض إلا ونفسهم يتقطع من الزفتة السجاير. الراجل عنده ثمانين سنة وبأفكر أحبه».

جاءتها ضحكة صوفي وقد تقاطعت مع ضحكة بهاء عبر الغرفة فتضرج وجهها بالحمرة.

عندما انتهى الفالس مع كيث وتبادلا التحية اتجهت سارة إلى الموسيقى وأدارت «علِّي صوتك بالغنا».

ضحكت صوفي وهي تلحق بها وتستدير لكيميت مذكرة إياها بالقصة التي كانت قد حكتها عند عودتها من القاهرة «هي دي أغنية الجنازات».

ابتسمت سارة. وتكتلوا جميعا في منتصف الغرفة يرقصون على إيقاع الجيتارات الإسبانية.

ينشبك حلمي في حلمي

غصب عني أرقص.. غصب عني.. غصب عني.. غصب عني أرقص

وسرعان ما احتلت كيميت منتصف الدائرة برقصة غجرية تطايرت بشعرها المسترسل حتى منتصف ظهرها. ابتسمت سارة. بدا لها ذلك الجسد اللين كأجساد راقصات المعبد في تراوحها بين نعومة أوتار القيثار وعنف إيقاع الدفوف.

كانت تلك أيضا ليلة حتحورية. ليس فقط لأنها كانت ليلة من الرقص والحب؛ ولكن لأن بوصفي «راعية الموت المؤدي إلى الحياة الأبدية»، كنت قد انتظرت إيزابيلا على البر الغربي. تلقفتها وهي مبتسمة وأخبرتني أنها تركت لكل من أحبائها شيئا صغيرا.

كان في اليوم التالي شبه من إيزابيلا. انسكبت أشعة الشمس على سطح المحيط فضوي بلمعة الذهب، وصوفي تقود السيارة فوق الممر الأسفلتي المؤدي إلى شبه الجزيرة الصغيرة. أيام قليلة كهذه تمر على هذا المكان الذي تصطك فيه الرياح حول الصخرة العالية وتحوطه من كل ناحية مياه المحيط فتتضاعف نسبة الرطوبة فيه. كانت تلك أولى زيارات سارة إليه رغم معرفتها بسفرات جدتها المنتظمة إليه في إبريل من كل عام. لكن ما من مرة سألت سارة «طيب جراند ما ليه المكان ده بالذات؟»، إلا وابتسمت إيزابيلا وتحدثت في أشياء أخرى.

لم يكن الأمر ليأخذ من سارة إلا لحظات حتى تفهم مغزى تلك الصَدفَة والعصا والبوق، هدية جدتها التي سلمها لها كيث في غرفة مكتب جدها. نظرت لخالتها مندهشة «سان ميشيل!».

كانت إيزابيلا قد حكت لسارة وهي صغيرة تعبث في مرسمها أن هذه الأشياء هي علامات إتمام الحج إلى معجزة الغرب الباقية حتى اليوم. تلك الكنيسة فوق الصخرة العالية في «نورماندي». وليس في العالم صرح معماري كهذا الذي تم بناؤه على مدى أكثر من عشرة قرون.

لن يتطلب الأمر أكثر من يوم واحد يعبرون فيه المحيط من إنجلترا إلى تلك الصخرة على الحافة تماما في فرنسا.

وقفت صوفي بالسيارة على بعد من «سان ميشيل». هو ذلك البعد الذي يمكن الآتي أن يرى استدارة الصخرة العملاقة. في الأسفل

تحوطها البيوت القديمة المنحوتة داخل الصخر والناظرة إلى العالم من خلال عيون صغيرة رأت الكثير ولم تفصح. وفي أعلاها ضربت الكنيسة جذورا في قلب الحجر. وفوق أعلى الأبراج يبرق العامود النحاسي الشاهق مع انعكاس الشمس. كأنه في حديث لا ينقطع مع السماء.

«بدأ العمل في المكان ده بناء على تلات أحلام جت للقديس أوبرت سنة ٧٠٨. ومن يوم بدء البنا، سنين قبل بدايات العام الألف الميلادي، ما وقفش».

كانت صوفي قد ركنت السيارة ومشت بجانب سارة تحكي تاريخ المكان وعينا سارة تنسحبان إلى امتداد الرمال الصفراء المطوّقة للصخرة. سارت صامتة كأنها منوَّمة أو كأنها قد دلفت من باب سحري يفصل بين عالمين. وفي هذا العالم الآخر غمرتها موجة سكون لم تذق طعما يشبهها من قبل.

«مع زحف الليل، قالوا النهارده الساعة تمانية، هيرجع المد بميّة المحيط لمكانها حوالدن الصخرة. دي رمال خطيرة ياما بلعت بشر على مدار القرون. من قرن واحد بس أقاموا جسر الأسفلت اللي بياخد المسافر للصخرة والكنيسة وما عادش فيه خطر من الرمال المتحركة. لكن لسه فيه ناس بيقرروا الدخول فيها وفي الحالة دي لازم يبقى معاهم مرشد».

استكملت سارة بكلمات خرجت بطيئة وبصوت عميق كأنه لامرأة أخرى «ومن هنا فكرة العصاية علشان تلمّس الرمال المتحركة والبوق علشان الاستغاثة. إيزابيلا كانت حكت لي وأنا صغيرة».

دخلتا من البوابة القديمة فكان المدفع الحديدي القديم أول ما قابلهما على اليمين. كأن المكان يرفع إصبعا في وجه كل من يتجرأ على الغزو. ورغم تعاقب الغزاة لم يصل أحدهم أبدا. مرت سارة بعينيها على الطريق الحجري العتيق الذي التف كثعبان أسطوري مخترقا قلب البيوت المنمنمة الصغيرة. بدت البيوت القديمة على الجانبين في التصاقها ببعضها البعض كذراعين عملاقتين على وشك احتضان العابر. في أثناء صعودهما جاءها صوت صوفي «بصي يا سارة». التفتت إلى صورة تمثال لأحد الغارقين الذين ابتلعتهم الرمال حول الكنيسة. تأملت شهقة الموت تخرج من جوفه وتتحجر.

لم يفتأ الطريق الضيق يعلو بهما نحو الكنيسة فيزداد انخطافهما. لم تكن تلك هي الزيارة الأولى لصوفي. لكن في كل مرة كان ينتابها نفس الشعور الغامض، كأن هذا المكان هو رمال متحركة لكن دون موت. أفاقت من ابتلاع المكان لها على سارة واقفة كأنها تحولت إلى تمثال من حجر هي الأخرى. تتبعت اتجاه عينيها فرأتها تنظر إلى باب خشبي قديم مغلق بمزلاج، وقد نمت الحشائش البرية وزهور صفراء دقيقة الحجم من بين تشققات الأحجار على جانبيه. لم يدل الباب على شيء وراءه إلا حشائش أخرى برية. لمست كتفها فجاء صوت سارة مرتعشا «الباب ده أنا شفته قبل كده ومش في حلم!».

في صعودهما الطوابق المنحوتة في الحجر كان استغراق سارة في تأمل تعقيد معمار المكان يتزايد. وتعود بعينيها إلى الباب العتيق. أيهما هو الحلم. الآن أم تلك المرة الأولى التي رأت فيها هذا الباب ودخلت منه! حضور المكان الكثيف يغرقها في لحظات متتابعة من الانخطاف. تترك الباب الخشبي يفلت منها إذ تنظر إلى أسفل فتري ما بدا لها إما بئرا قديمة أو حفرة عميقة تؤدي إلى أماكن تحتية مسيَّجة بأبواب حديدية وغير مسموح بالدخول منها.

«يمكن السرداب ده سجن زي ما استخدموا المكان أيام الثورة الفرنسية!».

استكملت صوفي «أو سكن لواحد من الرهبان اللي لسه عايشين هنا وبيقيموا الصلوات في وقتها».

فكرت سارة كم من طبقات التاريخ قد اختزنها هذا المكان على جدرانه وفي أروقة بيوته والكنيسة. أي طاقة لا يزال يحمل لبشر تعذبوا وأحبوا وكرهوا وأوقدوا شموعا لأمان تحققت وأخرى لم تتحقق! كم من اللحظات لا تزال هنا!

وقفتا لالتقاط أنفاسهما. تأملت سارة حديقة صغيرة لا تزيد مساحتها على بضعة أمتار، لكن أشجارها أخذت تتمايل مزهوة بتفاح أخضر بنقاط حمراء. لم يتبق من إحدى التفاحات الساقطة على الأرض غير قشرتها المستديرة وقد أكلت العصافير قلبها ولا تزال عصفورة صغيرة تنقر فيما تبقى منه.

عادت عيناها إلى محلات التذكارات التي رصت قطع الفخار الأبيض المرسوم بأزرق «زي ألوان إيزابيلا يا صوفي!». أثناء الصعود تلمَّست سارة خشونة الأسوار الحجرية ذات الفتحات الصغيرة لوضع البنادق أو المدافع القديمة فيها أوقات الحرب والخطر يقترب من المكان. وفي اللحظة التي حولت فيها نظرها بعيدا عن الرمال لعلو السور الحجري فاجأتها زهرة زرقاء منمنمة تطل من شرفة أحد البيوت. أشارت بدهشة طفولية «صوفي شفتي الوردة دي».

مدت أطراف أصابعها تتلمس نعومة الزهرة وتداخلات الأصفر الباهت في وريقاتها. «ياه لو دنيا معانا دلوقت. كانت صوَّرت لقطات سحر».

ثم انفتح المشهد فجأة على الرمال الشاسعة.

توقفتا عن الصعود. أشعلت سارة سيجارة وقد أخذت موقعها على دكة حجرية تحت شجرة كلّب عتيقة قد فردت أفرعها بعرض السماء حاجبة نور الشمس والمشهد مفتوح على زرقة المحيط بارتفاع لا يقل عن مائتي قدم.

«عارفة يا صوفي الحتة الصغيرة دي شبه الخلوة. تستخبي من العالم وإنت شايفاه كويس».

تلك الموجة التي تغمرها الآن، هل تحمل شبها لذلك الشعور الذي انتابها في كل مرة دخلت فيها المعبد تبحث في سراديبه عن أشباح مختبئة في الظلام أو ربما تقابل كاتي في القلب. في تلك الساحة المفتوحة على السماء ونور «رع» يتعامد تماما على وجه أمها المبتسم في براءة!

«صوفي.. أنا حاسّة إني كنت في المكان ده قبل كده. عارفاه كويس. مش كله طبعا. زي ما أنا عارفة بس أجزاء من سارة وإنت ماتعرفيش كل حاجة عن صوفي».

ابتسمت صوفي.

هل كانت تلك الابتسامة في العينين العسليتين لكاتي أم لإيزابيلا أم لذات المائة وجه!

«أحضنيني يا صوفي. ساعات باخاف».

أخذتها صوفي في حضنها وضمتها بقوة فغمرتها رائحة ليمون نفاذة. انزلقت دموع سارة في صمت وقد رجتها رعشة عنيفة. هل هي رجفة خوف أم عشق أو ربما استسلام لموجات الحياة تهدهدها أو تعصف بها إلى ظلمة المحيط حسب مشيئتها! في جزء منها هي رعشة حب، ليس فقط لمن تحب، لدنيا وحسام ونورا وأيمن وكاتي و.... ولكن للعالم باتساعه المخيف ولتلك النقطة في قلب النون. تكاد لا تراها مثلما لم تر هذا الذي صاحبها وهي تبكي قلبها في شرفتها الصغيرة المطلة على النيل من فوق، أو وهي تراقب تحليق النوارس فوق التل الملاصق لبيت إيزابيلا على المحيط، وفي لحظات كان عمرو يدخلها من ذلك النفق المعتم وتتشبث به داخلها كأنها ستعيده إلى رحمها. لم يكن في المكان فراشات لكن في إغماضة عينيها رأت فراشات بنفسجية ذات أجنحة باهتة الصفرة تحوم حولها. لم تحاول الإمساك بأي منها.

كان البكاء لا يزال يرج جسدها فتمتزج مخارج الكلمات بشهقاتها «أيوه يا صوفي ساعات باخاف».

في البدء كانت الحكايا...

محتارة أنا.

علىّ أن أنهي الحكاية رغم أنني لا أرغب الخروج منها. كما أنني لا أحب كلمة «النهاية». لم أصدق يوما إن هناك نهايات. كل نهاية كما أخبرتكم من قبل هي بداية جديدة. حتى لو كنتم قد صدقتم أن اختياركم قد وقع على «نهاية» ما، فهي رغم وهم الاختيار، بداية أيضا. لا حدث يذهب تماما. سيتراجع فقط إلى منطقة معتمة في السراديب. تظنونه انمحى. ثم -في لحظة مفاجئة- يتقافز أمام أعينكم.

لكن في تلك المنطقة هناك اختيار حقيقي. أن تعيشوا اللحظة بكامل انتباهكم. تفهمون من أين أتت. لمَ اختفت كل ذلك الوقت. لمَ تعود الآن. وإلى أين تأخذكم؟ أو... تتغاضون عنها وتتعاملون مع الأمر على أنه عشوائي تماما، لا جذر له ولا هدف. إذن ربما تكون حياتكم نفسها بلا هدف في تلك الحالة. وأنتم مجرد شخوص قد ألقت بهم يد عابثة في مدارات المصادفة.

كيف الخروج إذن من ورطة إتمام هذا النص!

أتركه مفتوحا!

لقد أحببت دوما النهايات المفتوحة ورأيت حكمة صانعيها.

لكن هل من بديل أكثر مكرا!

هل أترك لكم حرية إتمام النص! تقولون لستم مبدعين. الأمر ليس بحاجة إلى الإبداع (بمفهومكم أنتم).

سارة التي بدأت بها الحكاية وأنهيتها (هل هذا يفضح محبة زائدة كنت قد أنكرتها في بداية الحكاية!)، في «بادستو» في هذه اللحظة. المكان ساحر بالفعل في هذا الوقت الربيعي. يعج بفراشات ملونة. بنفسجية بأجنحة فضية تعكس بهاء الشمس. صفراء بلون الشمس نفسها. زرقاء بنقاط ذهبية كأنها عرائس بحر. تتأملها دون أن تحاول الإمساك بها.

تجلس سارة على تلك الحافة التي يهبط التل فيها إلى البحر بزاوية قائمة تماما. التل عال. والبحر في أسفله غامض! مخيف! مغو! (كيف سيراه كل منكم؟) تفكر ربما وقدماها معلقتان في الهواء أن خطوة واحدة فقط تفصل بين الحياة والموت. بين التل الأخضر وعمق المحيط المظلم ذي الصخور الصلبة التي غطتها الطحالب. ولكن هل العمق موت!

ليلا أراها تلتقط شمعة صغيرة وتوقدها من أجل القمر. في سكون المكان، إلا من صوت كروان ليلي وموجات محيط قريب ورفرفات خفيفة لأجنحة إيزابيلا في بيتها، تترك قطع اللغز الملون تسقط في أماكنها. تجلس في كرسي جدها نعمان أمام المكتب الخشبي العتيق مفتوحة العينين وشريط حياتها يمر أمام عينيها كاملا. تتأمل قلبها فترى اصطخاب الحزن فيه مع قدر من.. هل ما تشعره الآن هو أسى أم امتنان يجعل من قلبها كائنا خفيفا بإمكانه أن يطير وقتما يشاء. «لو مت دلوقت هاكون سعيدة. الحياة كانت كريمة بجد معايا». ولا تلبث «ماعت» أن تنتفض داخلها «بس لازم أفكر نفسي بالحالة دي لما أتشحتف على راجل تاني».

هذه فكرة رائعة. أقترح أن نجعلها تحب رجلا آخر ونرى إن كانت ستتذكر ما تعلمت في المعبد. هل ستنزلق إلى لحظات تنسى فيها لون وردة «أفروديت» ومدهشات إيزابيلا! تريدون أن نتركها في إنجلترا! لكم حرية الاختيار بالطبع. لكن دعوني أخبركم (بما أن «تحوت» قد مرر إليّ بعض أسرار الكتابة) أن هذا اختيار لا يتفق مع طبيعة الشخصية. هل رأيتموها في أي لحظة راغبة في العيش بعيدا عن مصر!

حسام. كيف تتصورونه الآن وقد عاد من الواحات بعد أن ولد نفسه من جديد. بالطبع «الهرس على ودنه في العراق والأمريكان عملوا من مقتضى الصدر بطل بغباوتهم. إذا كان رئيسهم غبي هايجيبوا الذكاء منين!». الذي اقترح منكم هذه الجملة لابد أن أحييه

لأنه أمسك جيدا بلغة حسام).

هل سيتذكر لحظاته مع «سيدة القمر» وسيل الأخبار السوداء ينهال على رأسه، فوق مكتبه تماما. ألم يقل لنا إن التليفزيون المفتوح على «الجزيرة» طوال اليوم يربض فوق المكتب! ومني في البيت لا تزال لا تفهم لماذا يختار إنسان «عاقل» الذهاب إلى صحراء «ولوحدك يا حسام!». إلى متى سيتحمل ثقل الاقتراب من امرأة لا يحسها! وإلى أي حد تمتد خيوط كذبه على نفسه! هل تمنحونه قصة حب جديدة! بعضكم لا يزال يلومه أنه يبحث عن الحب وهو متزوج. لابأس؛ بإمكاننا أن نقطع خيط حكايته مع منى ونرى كيف سيبدأ من جديد. أم نتركه حيث هو ويقضي باقي الأيام في البحث عن وهم كاهنة لا تجيء! لكن دنيا كاهنة وقد بدأ يدرك ارتعاشات قلبه عندما يراها. هل يخوض مغامرة الاقتراب!

وهل يدفعه البحث عن كاهنة إلى أعماق حقيقية داخل المعبد المظلم! ما زال لا يعرف شعوره تجاه أبيه. تلك نقطة قد تستحق مغامرة العودة والبحث عن تلك الغرفة أو السرداب حيث يعيش الرجل. كما أن حسام لا يزال في انتظار لحظة يمارس فيها الاختيار. يراجع حياته مرة أخرى، ويقرر هل يريد الاستمرار أم أنه قد يختار حياة أخرى. هل تتصورون حسام في زمن قد انصلحت فيه أحوال العالم وتوقفت مطاردة السحرة والساحرات فعادت بركة «إيزيس»! لكن تلك ستكون بداية جديدة لحكاية أخرى تماما. وسيكون علىكم وقتها استخدام قدرات إبداعية دامغة كي تجعلوا منها حكاية واقعية أو من الممكن أن تبدو كذلك، وإلا بدت كحكاية خرافية لن يصدقها أطفال هذه الأيام.

نورا. يصعب عليّ أن أغلق باب الحكاية وهي في تلك الحالة. هل تستعيد نفسها في وقت ما؟ امنحوني بدائل لم أفكر فيها. ربما تأتون فعلا بحيلة لم أتصورها من قبل. هل يبدو أنني قد تعلمت التواضع! ربما. أفلم تعلموننى أشياء أخرى. منها مثلا أنني قد شككت في مسألة الاختيار هذه التي تأتي مع كل اختبار. إن الأمر قد لا يكون اختيارا تاما لأنكم محكومون بألف خيط يربطكم بماضيكم. كيف رأيتم الحياة وأعينكم تتفتح علىها. كيف تعاملت معكم الحياة. البذرة قد تبدو مثل البذرة لكن منها ما تطرح ما إن ترمي في طمي الأرض، ومنها ما ترفض الإنبات. ولكن هذا في حالة أنكم لا ترون تلك الخيوط وتتركونها تجذبكم في اتجاهها. كيف ومتى ترون الخيوط. من أين تأتي تلك اللحظة السحرية! «هي لحظة واحدة فقط. حادة تماما». حتى أنا لا أعرف مصدرها تحديدا. من روح الخفي! لكنه يرسل لكم الكثير في كل ثانية. من الذي أو... ما الذي يحدد من يلتقط اللحظة ومن تفوته!

دعوني أسترجع كم لعبة مارستها معها. لكن هذا مؤلم. سيكون عليّ وقتها أن أتذكر لعبة الرجل المغوي.. ريمون. أتذكرونه! وأفهم لمَ تعلمت التواضع. تجعلون أزمة السياحة تنتهي وتحل مشاكلها المالة وربما حينها تتوقف عن لوم «البلد بنت الكلب دي». لكن مشكلتها الحقيقية لم تكن أبدا في أزمات الخارج.

ما الذي من الممكن أن يوقظ داخلها ذلك المحارب القديم بدرعه والسيف فتتراجع «سخمت». تحترق وتتساقط أجزاؤها مجرد ذرات رماد لن تلبث أن تعود إلى رحم الأرض. وهناك سيكون لها نفع أكثر. وتعود تلك الساحرة، جسدها يفوح بأريج بلاد «بونت» السخية، تخطو «في كامل ألقها واكتمال الشوق». وعندما يعود الغريب إلى دياره البعيدة لا تشعر بالوحدة لأنها قد فهمت أنها عذراء وستظل كذلك أبدا. في فردانيتها العالم كله في قلبها. نقطة النون في قلب النون. فكيف تشتكي الوحدة. ربما يجيؤني الآن خاطر ماكر. أن اللعبة الأخيرة مع نورا هي تلك الحكاية التي تنتهي عند علامة استفهام.

دنيا تركتها وقد فهمت أن كلا منكم مغناطيس لأشياء وشخوص يشبهونه. تلك معجزات صغيرة. هل تفكرون معي في المعجزات ولنختر منها واحدة مناسبة. ستكون مناسبة فقط لو أسعدتها. ربما يفكر أحدكم أن يجعلها تحب «الأستاذ الألماني اللي أخدت معاه كورس التصوير». لكن تلك الفكرة تبدو لي نهاية رومانسية فجة. حل سهل لمآزق أكثر حقيقية من أن تحل بـ«واتجوزوا وعاشوا في تبات ونبات وخلفوا صبيان وبنات». بإمكاننا أيضا أن نمد خيط الحدث حتى تأخذ الجنسية وهو أمر ممكن ولن نكون مخالفين لوقائع حقيقية فقد شهدت مصر تلك المعجزة أخيرا. لكن لا تلك ليست لحظات البهجة التي أعرف كيف أقرأها في عينيها عندما تلمع بفكرة جديدة وهي تتأمل صورة أبيض وأسود.

ولكن كيف نبحث عن معجزات وقد تبقى مجرد أيام على معرضها! تلك معجزة بالفعل وقد كادت تفوتني. سنكتبها وقد وقفت باحمرار وجهها تتحدث مع الأصدقاء وصوت «ماعت» يحثها على تصديق أنها بالفعل قد حققت حلما. تشعر أن كلا من تلك الصور لا يمكن أن تكون مجرد لحظات. بل هي زمن، أزمان. كل زمن بحكاية وكل حكاية لها أكثر من نسخة. ربما في هذا المشهد تجعلون

الفكرة تبرق في ذهنها. إنها ساحرة بالفعل بإمكانها التحكم في الزمن وقراءة رسائله المكتوبة بحبر سري قد استطاعت الآن أن تحضر إكسيره في كهف روحها المظلم. تضيء الحروف بنور خاص بها. تقترب من بعضها البعض، تتلاصق كما في حالات العشق، فتتخلق كلمات تمنح الفكرة جسداً. ويمارس الجسد سحره على من يغامر بالاقتراب. وفي ركن المعرض يقف حسام صامتا وفي عينيه لمعة، تتساءل دنيا عن معناها. تتجه نحوه وابتسامتها تتسع.

آه... ساكنو علب السردين. نسيتهم. هل لأنهم أسوأ ما في الحكايا! أمل منهم كثيرا. وأغتاظ أحيانا فأشعر باقتراب «سخمت» وقد «تأججت لبدتها وغدا ظهرها بلون الدم وتوهج وجهها كلهيب الشمس واضطرمت عيناها وأظلمت الصحراء من الغبار وهي تضرب الأرض بذيلها». أذكر نفسي وقتها أنني «سيدة البهجة ومولاة الأغاني والرقص على العود» لأهدأ وأتابع الحكي. من كان قادرا منكم على التعامل معهم فليقم بتلك المهمة نيابة عني. لكن إن حدثت إحدى المعجزات وأخرج أحدهم قدما من علبة السردين باحثا عن نسمة هواء شمالية ولحظة عتمة، يمكنكم عندئذ أن تنادوا عليّ فأعود.

وهكذا تطبق رمال الحكايا المتحركة حولي أيضا. وأنا التي بدأت الحكاية متوعدة إياكم ألا تخرجوا منها «إلا بإذن مني». لكن هل كل الرمال المتحركة أمكنة للموت؟ هل هي شيء آخر غير خوفكم؟ وهل بإمكاننا أن نجعل منها أمكنة للهو أيضا. يغوص أحدنا فيجذبه الآخر. يغطس رأس إحداهن فنفزع ونجري نحوها فتخرج إلينا ضاحكة على إحدى الحيل الصغيرة التي عرفت كيف تجعلها تنطلي علينا. ربما ساعتها تتعلمون أن تلاعبوا الحياة عندما تلاعبكم بدلا من التقطيب في وجهها رافضين تلك «الألاعيب السخيفة» التي غالبا ما تنتهي بصفعة أو ركلة. من يعلم.

مع الذين يقررون اللعب، سألعب.

«ترقص!».

أبتسم «غصب عني أرقص».

هكذا لن تنتهي الحكايا. ذلك لأن الحكايا دوائر وفي داخلها دوائر أخرى ومن حولها دوائر أوسع. وليست كل الدوائر واضحة. أحيانا، بل كثيرا، ما تتداخل. وهنا يبزغ التساؤل. أين نقطة النون. أين بدايات الحدث
و إلى أين تذهب انحناءاته. أم نحن الذين سنذهب بها. عندئذ يمكننا أن نبدأ دوما ب-«اخترت أن أبدأ الحكاية من نقطة..... هكذا يجب أن تبدأ ال-.....».

الهوامش

الجزء الأول

في البدء كان الأبيض

(١) حتحور هي ربة العشق والبهجة والرقص والموسيقى. كانت تُرى على أنها حاكمة السماء وتجسيدها الإنساني، الروح الحية للأشجار وربة الذهب (من بين أوجه ووظائف أخرى متعددة. تتخذ أحيانا شكل اللبؤة وأحيانا أخرى صورة البقرة. كانت «الحتحورات السبع» أشبه بجنياتها اللاتي يحرسن سرير الولادة ويحددن مصير الطفل الوليد. جعلها المصريون ربة للأماكن البعيدة، ثم صارت على الضفة السرى في طيبة
و منف حارسة جبل الموتى. صورتها كبقرة في الدير البحري تمثلها في دورها الكوني (كربة للميلاد والموت). أما في معبد «دندرة» المكرس خصيصا لها فهي تظهر في صورتها الكلاسيكية كربة عامة وامرأة شابة مرحة وباسمة وربة للعشق والرقص والموسيقى. في بعض نسخ الأسطورة الفرعونية تبدو كل من حتحور (إلهة العشق) وسخمت (إلهة الحرب والدمار والطب) على أنهما وجهان لكيان واحد.

(٢) قصيدة لصافو، أول شاعرة إغريقية (٦١٢ /٦٣٠) قبل الميلاد – ٥٧٠ قبل الميلاد).

(٣) ماعت هي إلهة العدل والحقيقة التي صورتها الأسطورة الفرعونية على هيئة امرأة رشيقة صغيرة جالسة وفوق رأسها تقف ريشة نعامة. تلك هي الريشة التي توضع في الميزان قبالة قلب الميت لمعرفة ما إذا كان «ماعتيا» أي إنسان خير.

(٤) المعنى الحرفي لكلمة سخمت هو «القوية». هي ربة لبؤة
و كان يعتقد أنها مظهر لعيْن «رع» في حالة غضبه والمهلكة لأعدائه وأعداء الشمس. هي سيدة رسل الموت المتعطشة للدماء وسبب الأوبئة لكنها أيضا ربة الخير والشفاء، فمن يعرف كيف يهلك يعرف عن الشفاء كذلك. كوّن «كهنة سخمت» جمعية من أقدم جمعيات الأطباء والجراحين.

(٥) »هناك طرق... في الوردة». من قصيدة للشاعرة الأمريكية هيلدا دوليتل (١٨٨٦ – ١٩٦١).

(٦) من ملحمة جلجامش.

(٧) قصيدة فرعونية مدوَّنة في «المرأة في عصر الفراعنة» لكريستيان ديروش نوبلكور.

(٨) هذا حلم لأحد الرجال مدون في كتاب «الاشتغال على الداخل» Inner Work للطبيب النفسي الونجي روبرت جونسون.

(٩) «نهارا... يتلصص» من كتاب مارثا نورمان «العرافة»

The Fortune Teller (١٩٨٧).

(١٠) « مرتفعات ويذرنج» (١٨٤٧) للكاتبة البريطانية إميلي برونتي (١٨١٨ – ١٨٤٨).

(١١) The Hermetica «متون هرمس: حكمة الفراعنة المفقودة». تيموثي فريك وبيتر غاندي (١٩٩٧).

(١٢) قصيدة لصافو.

(١٣) «أزمان... أو جنونا». الصور مستوحاة من الساحرات الثلاث في مسرحية «ماكبث» لوليام شكسبير.

(١٤) «متون هرمس».

الجزء الثاني

جمر أحمر

(١) «مليكتي... بلا حدود». من صلاة إلى «إينانا» من أواسط الألف الثالث قبل الميلاد حيث تكشف إلهة الخصب السومرية عن وجهها الآخر كسيدة الغضب والدمار(بتصرف). من «الشرق الأدنى القديم» (١٩٦٩) لجيمس بريتشارد.

(٢) «الألم أيضا... المكسور» من قصيدة «صدأ» للشاعرة الأمريكية ماري كارولين ديفيز من ديوان Youth Riding - (١٩١٩)

(٣) «أمونت» أو «أمونتي» - و«إيمنتي» أو أمينت» هي الوجه المؤنث للإله «أمون» (و الاسم يعني الواحد الخفي)، هي العالم السفلي، عالم الموت. وقد صورتها الأسطورة الفرعونية على أنها أفعى أو امرأة برأس أفعى هي من ترحب بالموتى عند وصولهم عالم الظلام. هي أم الخليقة وصاحبة الشجرة التي انبثقت منها الحياة. ولأنها أيضا إلهة الهواء فقد صورها الفارعنة على أنها إلهة مجنحة أو امرأة يصاحبها صقر أو ريشة نعامة فوق رأسها.

(٤) من ديوان «حزن في ضوء القمر» للشاعر السوري محمد الماغوط (١٩٣٤ – ٢٠٠٦).

(٥) سليمان خاطر هو مجند أمن مركزي مصري كان يعمل على حدود رفح. في ٥ أكتوبر ١٩٨٥ تصدي خاطر لمجموعة من الإسرائيليين الذين رفضوا أمره بالتوقف عن صعود الجبل وتخطي كشك الحراسة فأطلق عليهم النار. سلم خاطر نفسه وتحت مظلة قانون الطوارئ تم تقديمه لمحاكمة عسكرية. بعد إصدار حكم بالسجن المؤبد عليه قال خاطر «إن هذا الحكم، هو حكم ضد مصر، لأنى جندي مصري أدى واجبه».. ثم التفت إلى الجنود الذين يحرسونه قائلا «روحوا واحرسوا سينا.. سليمان مش عايز حراسة». بعد تسعة ايام من بدء تنفيذ الحكم أعلنت السلطات انتحار سليمان خاطر، الشيء الذي رفض تصديقه الكثيرون.
و خرجت المظاهرات تدين النظام الذي عاقب جنديًا على تأدية واجبه إرضاء للكيان الصهيوني.

(٦) «أدونيس... السوداء». جزء من قصيدة لصافو.

(٧) قصيدة للشاعر الفارسي فريد الدين العطار (١١٤٢– ١٢٢٠) من ديوان «جوهر الذات».

(٨) من «جوديت» (١٩٧٧) كتاب شعري للشاعر البريطاني تد هيوز (١٩٣٠ - ١٩٩٨).

(٩) من كتاب Les Guérillères (١٩٦٩) للكاتبة النسوية والروائية الفرنسية مونيك ويتيج (١٩٣٥ – ٢٠٠٣).

(١٠) «إن كان... محبتنا» من الرسالة الثامنة من «رسائل لشاعر شاب» (١٩٠٤) للشاعر الألماني ريلكه (١٨٧٥-١٩٢٦).

الجزء الثالث

سراديب الأسود

(١) «وتأمل... الأنثى»، «متون هرمس».

(٢) «الميثولوجيا الهندية»، ب م أورسل (وارد في «لغز عشتار» لفراس السواح).

(٣) قصيدة «سننسى يا قلبي» للشاعرة الأمريكية إميلي ديكنسون (١٨٣٠ – ١٨٨٦).

(٤) «الفن هو نسيج... إلا دمنا». من كتاب «القلب الجاسوس» (١٩٨٩) للكاتبة والروائية الأمريكية كاثرين باترسون (١٩٣٢).

(٥) قصيدة من ديوان «حزن في ضوء القمر»، الشاعر محمد الماغوط.

(٦) قصيدة «أحلف بنون» لفؤاد حداد (١٩٢٨ – ١٩٨٥) من ديوان «على أعتاب الحضرة الزكية».

الجزء الرابع

تجليات الذهب

(١) السفير حسن أبو نعمة هو الممثل السابق للأردن في الأمم المتحدة ورئيس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمّان، الأردن وله إسهامات في الكتابة السياسية.

(٢) حرف ال-A هو اختصار لكلمة Adulteress التي تعني زانية.

(٣) «أرقص... ذهبا»، من قصيدة «Hierodule» للشاعرة الأمريكية المعاصرة كوزي فابيان.

(٤) السسترام هي الآلة التي نعرفها اليوم باسم «الرق».

(٥) «النون» هى إحدى تسميات الحوت.

(٦) «النون» في المعجم هي إحدى تسميات «المحيط».

(٧) «شو» و«تفنوت» في الأسطورة هما ابنا الإله الخالق وأول زوج. يرمز «شو» إلى الجو فكان الإله الممسك لقرص السماء فوق الأرض بذراعيه المرفوعتين فاصلا «جب» (إله الأرض) عن «نوت» (إلهة السماء)، لذا فهو الهواء، الأنفاس الإلهية التي تعطي الحياة للمخلوقات.

(٨) «الأوجات» تعني «المكتملة».

(٩) قصيدة من «الظلمة المثمرة» (١٩٩٣) للشاعرة والكاتبة البوذية المعاصرة جوان هالفاكس.

Table of Contents

الجزء الأول في البدء كان الأبيض
(1)
(2)
(3)
(4)
(٥)
(٦)
(٧)
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(5)
(٦)
(٧)
الجزء الثالث سراديب الأسود
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
الجزء الرابع تجليات الذهب
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
في البدء كانت الحكايا...
الهوامش

.